

مَجْلَدُ الْعَزَالِ

الجانب العاطفي

من الإسلام

بَحْثٌ فِي الْخُلُقِ وَالسُّلُوكِ وَالتَّصَوُّفِ

41



العنوان: الجانب العاطفى من الإسلام.

المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثالثة يوليو 2005م .

رقم الإيداع: 2003/ 8653

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2122-0

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434 (02) - 3472864 (02) فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني:
08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

**احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D)
ولتتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com**

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بآية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

مقدمة الطبعة الأولى

التصوف الفلسفى فى تاريخنا العلمى لون من الغزو الثقافى الماكر قُصد به لَفْتُنَا عن عقائدنا ومناهجنا وأهدافنا ، ويجب أن ينتبه أولو العلم له ، وأن يُحذِّروا أمتنا من بقايه ووسائله فإن أعداء الإسلام ينشدون من إشاعته خلق أمة لا انتماء لها ولا وجهة ، أمة ثرثرة كسول واهية الصلات بكتاب ربها وسنة نبيها ، لا تحسن إلا تأويل الآيات والأحاديث وتحريف الكلم عن مواضعه والاسترسال مع الأحلام والخيالات ... أما التصوف الإسلامى فشأن آخر ، وربما كره البعض هذا العنوان ونحن لا نكتث لاختلاف الأسماء إذا اتفقنا على حقيقة المسمى !

أسماء البعض : علم القلوب ! وأسماء آخرون : علم الإحسان بمقاميه من مشاهدة ومراقبة ! وأسماء جماعة من علماء النفس والأخلاق : علم البواعث على الأعمال ...

وَأثرت أنا تسميته بالجانب العاطفى من الإسلام ! وقد قيل قديما : لا مُشاحَّة فى الاصطلاح ...

المهم أن نفكر ونعمل داخل سياج محكم من توجيهات الوحي وسنن صاحب الرسالة ، ومنهاج سلفنا الصالح ، وهذا ما حرصت عليه فى هذا الكتاب أشد الحرص ...

إن أولى النهى أجمعوا على أن الحضارة الحديثة تربط الإنسان بالأرض وتقطعه عن السماء ، وتعلق قلبه بمآرب الدنيا ، وتذهله عن مطالب الآخرة ، وتعمل على سوق البشر بعيدا عن الله ...

أى أنها تسير فى اتجاه معاكس للدين كله ، وربما أعانها على إدراك بعض النجاح فشل المتدينين فى تقديم المنهج الإلهى مشبعا للعقل والقلب كافلا للدنيا والآخرة ، ملبيا لحاجات الروح والجسد والعاجلة والأجلة ...

ونحن المسلمين أغنى الناس بمواد البناء فى هذا المجال ، وفى تراثنا ما يكفى ويشفى إذا أحسنا الإدراك والإفادة . . .

ليس الدين أحكاما جافة وأوامر ميتة ، إنه قلب يتحرك بالشوق والرغبة ، يحمل صاحبه على المسارعة إلى طاعة الله وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ (طه : ٨٤) .

فكيف تتحول التكاليف الصعبة إلى شىء سائغ حلو . . ؟

ليس الدين ابتعادا عن المحذورات ابتعاد خائف من مجهول ، أو ابتعاد مكره مضطرب ، إنه الوجل من عصيان ملك مقتدر ، سبقت نعمائمه ووجب الاستحياء منه .

قيل ذلك لبنى إسرائيل قديما : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ (البقرة : ٤٠) وقيل للمسلمين من بعدهم : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ (النحل : ٥١) .

لا إيمان إلا لضمير يرفض الدنايا ويرقب الرحمن ، ويحرس الحدود والحقوق ويتمنحس لله وحده ابتغاء ما عنده!

فى هذا الكتاب إحياء لجانب مهم من موارثنا العلمية الثمينة ، تتجههم له الحياة المعاصرة ، ولكنها سوف تحرم من بركات الأرض والسماء إذا خاصمته ومضت إلى غايتها الأرضية بعيدة عنه . .

وقد حرصت على ضبط المفاهيم الإسلامية وتقريبها إلى الأجيال الجديدة ، وكان همى الأول كيف أصل بين العمل المطلوب فى هذا العصر - لنصرة الإسلام - وبين المعانى الروحية الموفرة لدينا ، كى تنطلق هذه الأعمال بطاقة داخلية قوية ينتعش بها الحق ويسبق !

هناك متكاسلون فى طلب الدنيا . . والكسل صفة رديئة ، وعبادة الدنيا صفة رديئة ، والإسلام يحتاج إلى دنيا تخدمه ، وتدفع عنه ، وقد رواقه ، فكيف السبيل إلى جعل القلب متعلقا بربه ، يملك الدنيا كى يسخرها لخدمته ، ويجمع المال والبنين ليكونا قوة للحق ، وسياجا يحتمى بهما؟

كيف يتحول ذكر الله بالغدو والأصال إلى مسلك إيجابى فعال ، يجعل أصحابه رهبانا بالليل فرسانا بالنهار .

وليست الفروسية هنا فى ميدان الوغى وحده؟ بل هى كدح فى أرجاء البر والبحر والجو ، ليكون التوحيد صبغة الدنيا كما هو هتاف الكائنات كلها فى الأرض والسماء .

إننى خرجت بالتصوف من جحره أو من صومعته ليكون طاقة محرّكة . . . وقد سرّنى أن يضع الله القبول لما كتبت ، والله أسأل أن يجعله فى ميزان الحسنات ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون : ١١٨) .

محمد الغزالى

٦ فبراير ١٩٩٠ م

١٠ رجب ١٤١٠ هـ

مقدمة

هذا جزء من ثقافتنا الإسلامية يستحق البعث والعناية .
فإن بعض شعب الإيمان لقيت من الدراسة الحصيفة ما جعلها قريبة المأخذ
يسيرة العرض ، بل لقد حُسِبَتْ الإسلام كله لطول ما توافر العلماء على خدمتها .
وذلك كفقهاء العبادات ، وما تضمن من طهارة وصلاة وزكاة . . الخ ، وفقه
المعاملات وما تضمن من بيع وشركات ومعاوضات . . الخ .
وكسائر الأحكام التي نظمت العلاقات بين أفراد الأسرة وأركان المجتمع .
إن هذه الجوانب من ديننا العظيم استبحر الكلام فيها ، واتسمت دراساتها
بدقة . علمية ملحوظة ، وبرز فيها أئمة مرموقون .
أما الجانِب النفسى والخلقى فهو - على جلالته - مغموط الحق ، أو لم يلق
العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى .
لماذا تؤلف فى الموضوع مثلا كتب كبيرة لها طابع علمى محدد؟ ولا تؤلف
هذه الكتب العلمية فى الإخلاص ، والتوكل ، والتقوى ، والأمانة والصبر
والحب . . الخ .
إن محبة الله جل جلاله ، والإخلاص له ، والتبتل إليه ، والتوكل عليه ، والصبر
فيه - معان تعد فى الطليعة من شعب الإيمان ، أو هى من أركانه الركينة .
وتحرير هذه المعانى وفق تفاسير مضبوطة ، وشروح مستفيضة - خدمة جُلَى للإسلام
وأؤكد أقول : إن الأعمال الظاهرة من عبادة ومعاملة ما تصدق وتكمل إلا إذا
اتسقت وراءها هذه المعانى الباطنة ، وتخللت مسالك الفؤاد ولذلك يجب أن تطرق
موضوعاتها بكثرة ودقة .
وميدان التربية الإسلامية فى هذا العصر أحوج ما يكون إلى هذه
الدراسات ؛ فالتعاليم المدنية تزحف من كل فج ، وتقتحم طريقها إلى النفوس
من مسارب لا حصر لها .

وإذا لم نحسن البناء الداخلى للنفوس ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها ، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف ، وربما شعرت بنقص فى كيائها الروحى تسعى كى تستكملة من جهات أخرى ، وهذا باب لو انفتح هبت منه شرور جائحة .

ولست أجهل أن صلة الإنسان بربه ، وصلته بنفسه كانت موضع كلام طويل والأنفاس فى كتب التصوف .

غير أن هذا الكلام كان أشبه بمقالات الأدباء ، وعواطف الشعراء ، يصور الإحساس الخاص لصاحبه أكثر مما يصور حقائق علمية قيمة .

ومهما كان ذلك الإحساس صادقاً فإن خصائص المنطق العلمى أعوزته . والمنطق العلمى يقوم على الثبات والعموم لا على وجهات النظر الخاصة .

ذلك ، أن هذه الكتب أثبتت خلالها أخطاء مزعجة ، ومن الخطورة بمكان أن يتناولها رجل الشارع ، فلا يدرى ما هو مستقيم منها ، وما هو معوج ، أو ما هو ذوق خاص ، وما هو حقيقة عامة . ومن الإنصاف أن نسجل للقوم عنايتهم بما انصرف غيرهم عنه أو قل اكترأتهم له .

وهو هذا القسم الضخم من شعب الإيمان المتعلق بأحوال النفس الباطنة . وإذا كانوا أخطأوا حين درسوا وكتبوا - فغيرهم أخطأ حين وقف وجمد .

على أن الأخطاء فى ثقافتنا التقليدية ليست حكراً على كتب التصوف - وإن نالت هذه الكتب نصيباً جليلاً منها - فإن الأخطاء تطرقت إلى كتب التفسير والفقه والسيرة ، واندس فى صحائفها ما يؤذى الله ورسوله ، وما اجتهد الأئمة فى التحذير منه . وكشف القناع عن دخله وغشه .

وكم تحتاج موارثنا الثقافية إلى جهاد علمى كبير؟ كى تتجرد من الظنون والأوهام التى علقت بها ، وتعود إلى السمات الماثورة عن كتاب الله وسنة رسوله . وهى سمات الحق واليقين فيما تتناول من قضايا ، أو تصدر من أحكام .

وقد دفعنى إلى تأليف هذا الكتاب ما رأيته من ضرورة تجلية هذه الحقائق المطمورة ، وتكميل الملامح الإسلامية بكشف الغطاء المضروب على جانب منها . ثم ما رأيته من أن هذه الحقائق شيبت بما غص من فضلها ، حتى تجهم كثيرون لها وضاقوا ذرعاً بمجرد ذكرها .

فكان جهدى أن أنحى فى هدوء تلك الشوائب الغربية ، وأن أعود بالمادة الإسلامية الصرف إلى موضعها الخالى منها ، لتحتل إلى جوار زميلاتها من حقائق الإسلام الأخرى ، معتمدا على كتاب الله وسنة رسوله ومتأثرا بخطوات الأسلاف من رجالات الإسلام الذين سبقوا بإنارة الطريق وتهيئه للسالكين .

وقد أسفت - كما أسف غيرى - لصنفين من الناس :

● صنف تلمس فى قلبه عاطفة حارة ، ورغبة فى الله عميقة ، وحبا لرسوله باديا ، ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة ، يعلم منها قليلا ويجهل منها كثيرا ، وبغريه بالتعصب للقليل الذى يعلمه أنه يأنس من نفسه صدق الوجهة ، وقوة محبة لله ورسوله ربما افتقدها فى غيره فلم يشعر بها .

● وصنف تلمس فى عقله ذكاء ، وفى علمه سعة ، وفى قوله بلاغة ، يعرف الصواب فى أغلب الأحكام الشرعية ، ويؤدى العبادات المطلوبة منه أداء لا بأس به ، ولكنه بارد الأنفاس ، بادى الجفوة ، غليظ القلب ، يكاد يتمنى العثار لغيره ، كى يندد بأغلاطه ، ويستعلى هو بما أوتى من إدراك للحق ، وبصر بمواضعه من كتاب وسنة .

عرفت الصنفين معا فى تجاربى مع الناس .

فكان يغيظنى من أصحاب العاطفة ، ما يغلب عليهم من جهل وما يشين غيرتهم من عكوف على الخرافات ، وعجز عن استيعاب الأحكام التى استعلنت فى دين الله أدلتها ، واكتفاؤهم بحب سلبى طائش .

وهؤلاء يصدق عليهم :

ما رواه ابن الجوزى بسنده^(١) : عن ابن عباس ، أنه دخل على عائشة - رضى الله عنها - فقال : يا أم المؤمنين أرايت الرجل يقل قيامه ويكثر رقاذه ، وآخر يكثر قيامه ، ويقل رقاذه . أيهما أحب إليك ؟

قالت : سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى ، فقال : أحسنهما عقلا ، فقلت يا رسول الله . إنما أسألك عن عبادتهما .

فقال : يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما إنما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة .

(١) اعتمدت فى تدوين هذه الأحاديث على ابن الجوزى ، لكن يبدو أن أسانيده ضعيفة ، فلم أرها فى الصحاح ولا الحسان ، وإنما أغرائى بقبولها أن معناها دلت عليه نصوص أخرى ثابتة .

وعن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليكون من أهل الصيام وأهل الصلاة وأهل الحج وأهل الجهاد ، فما يجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله » .
وكان يغيظني من الآخرين استكبارهم لما هدوا إليه من صواب في بعض الأحكام العقيدية والفقهية ، واستهانتهم بأفات القلوب وفراغهم من حرارة الإقبال على الله ، والخنو على عباده .

وقديما شكوا الإمام ابن القيم من أن بعض المدرسين والمفتين والقضاة غلب عليهم جفاف الطبع ، وقسوة القلب ، وإن كانت براعتهم النظرية في ميدان العلم لا مطعن فيها .
والمسلم الكامل رجل نير الذهن والقلب معا . حاد البصر والبصيرة جميعا تتعاقب فكرته وعاطفته في معاملته لله ، ومعاملته للناس ، فلا تدرى أيهما أسبق؟ صدق أدبه أم حسن معرفته ، ولا تدرى أيهما أروع؟ خصوصية نفسه الجياشة أم فطنة عقله اللماح؟ . .

وهذه الصفات مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه ، فهو دين يبني عقائده - من ناحية الصحة العقلية - على أسس فكرية تشبه البديهيات في علوم الرياضة من حساب وجبر وهندسة .

والركائز العقلية لهذا الدين ثابتة فيما شرع من معاملات عامة ، وفيما يعرض لها من مشكلات متجددة .

والى جانب هذا فالإسلام دين عبادة تقوم على سلامة القلب ، وشحنه بالإخلاص ، والمحبة والأدب ؛ وتجريده من الهوى والأثرة والغش .

وسيرة صاحب الرسالة - صلوات الله عليه - مثل لهذا الازدواج بين يقظة القلب واللب والتقائهما في سلوك واحد .

ودين الإنسان ينقص بقدر ما يصحب عاطفته الحارة من نقص علمي أو عجز فكري ، وما ننظنا ناسين قصة الدبة التي قتلت صاحبها من حيث تريد حمايته ، وإن العقل للإيمان كالבصر للسنائر ، هيهات أن يرشد سيره إذا فقدته .

ويشيع بين أصحاب هذه العاطفة القاصرة التعويل على ما يرونه هم دلالة الصديق وسبيل النجاة ، ومن بدع اختلقوها ، أو طاعات محدودة القيمة ضخموا قيمتها ، ورفعوها فوق قدرها .

على حين ينسون عزائم الإسلام ، وتكاليفه المهمة ، وموازنه الحساسة فى تقويم الخلق والسلوك وشتى المعاملات .

وما أكثر ما تتدخّل النفس صاحبها . حين تغريه بعمل ، وتثبطه عن آخر .
والذى قعدت عنه هو خيرها وشرفها ، والذى أسرعته إليه قليل الجدوى إن لم يكن مبعث ضرر!!

أعرف موظفا كبيرا يظهر حب آل البيت ، ويمسك السبحة بيده ليحصى عليها ما يريد من أسماء وصلوات ، إنه يحسب نفسه من الواصلين بإدماانه هذا اللون من العبادة ، وتلك عنده مظاهر الثقى الشديد ، إلى جانب - طبعاً - أدائه للفروض المكتوبة فهو - فيما أعتقد - لا يقصر فى أدائها .

وحدث يوماً أن أقيم حفل تبارى فيه الخطباء ، وذكرت الصحف أسماء المتحدثين ونسيت أن تذكر اسم العاشق لآل البيت ، وكاد الرجل يجن لما فاته من أسباب الرياء .!! وانكشفت خبيته ، وانكشفت معه خبيّة هذا النوع من التدين الذى لا يستكمل عناصر الإيمان الحق ، ولا يحسن فطام النفس من أخبث عللها ، بل يدارى هذا النقص بتلاوة أذكار ، أو إحصاء صلوات على رسول الله ﷺ . . .
ولو أنه قرأ القرآن كله ، وهو يستبطن تلك العلل ما أفاده شيئاً أن يتلو القرآن والسيرة معاً .

إن الله جل شأنه جعل الصراط المستقيم هو المعبر الفذ لمن يبتغيه . وكل تقصير ، أو قصور فى فهم هذا المنهج ، واستبانة مراحلها - لا يدل على خير .
وكل عوض يشغل المرء به عن المعالم التى وضعها الله لا يزيد صاحبها إلا خبالاً .
وأى عاطفة لا يصحبها تفصيل صحيح لأصول الإسلام وفروعه ، وعمل تام بها فليس لها عند الله وزن .

وصدق العاطفة ليس عذراً للخلط العلمى ، ولا للقول فى دين الله بالهوى والرأى ، فإن للإسلام ينباع معروفة محصورة تؤخذ أحكامه منها وحدها ، ولا يؤذن لبشر بالتزيد عليها أو الانتقاص منها .

وقد توفر العلماء جيلاً بعد جيل على خدمة هذه المصادر واحترام حدودها .
لكن بعض العاطفيين يؤثرون - بالهوى - حديثاً واهناً أو موضوعاً على حديث صحيح ، ويعتقدون أقوالاً فقهية ليس لها من أصول الفقه سند .

وقد يفسرون القرآن فتسمع منهم الغرائب .
معانى لا صلة لها بدلالات الألفاظ ولا بتراكيب اللغة ، ولا بالمأثور عن رسول
ﷺ ، ولا بالمرؤى عن أصحابه الذين تعلموا منه ، ومشوا فى أثره .
اسمع هذا التفسير الخرافى لسورة النصر :
﴿إذا جاء نصر الله﴾ أى المدد الملكوتى ، والتأييد القدسى بتجليات الأسماء
والصفات .

﴿والفتح﴾ : المطلق الذى لا فتح وراءه وهو فتح باب الحضرة الأحدية والكشف
الذاتى بعد الفتح المبين ، فى مقام الروح بالمشاهدة .
﴿ورأيت الناس يدخلون فى دين الله﴾ : أى التوحيد ، والسلوك على الصراط
المستقيم ويتأثير نورك فيهم ، عند فراغك من تكميل نفسك .
﴿أفواجاً﴾ : أى مجتمعين كأنهم نفس واحدة .
﴿فسبح﴾ : أى نزه ذاتك من الاحتجاب بمقام القلب إلى الترقى فى حق
اليقين .

﴿بحمد ربك﴾ : أى حامدا له بإظهار كمالاته وأوصافه التامة عند التجريد
بالحمد العقلى .
﴿واستغفره﴾ : واطلب ستر ذاتك بذاته ، كما كان حال الفناء قبل الرجوع إلى
الخلق أبدا .

﴿إنه كان تواباً﴾ : قابلا لرجوع من رجع إليه بإفنائته بنوره ولما كمل الدين
واستقرت دعوته طوبى الرسول بذلك أى بالرجوع إلى مقام اليقين الذى يستمر
إلى ما بعد الموت^(١) .

نقول : وسورة النصر هذه لها قصة معروفة مشهورة .
فإن عمر بن الخطاب كان يقرب إلى مجلسه عبد الله بن عباس ، وهو مجلس
يشهده أشياخ الصحابة ، وعبد الله لما يزل شابا فى مقتبل العمر ، فكأنهم استكثروا
عليه تلك المنزلة .

(١) نشرت مجلة العشيرة المحمدية حلقات متصلة لهذا اللون من التفسير ، وقد استغرقت هذا النشر لما أعلمه
عن رائد الجماعة من أدب وفضل وغيره على الإسلام ورغبة فى إصلاح التصوف من الأقداء التى علقت
به ونحن نعد هذا الشرود العلمى أخطر الآفات على كيان الإسلام نفسه .

ورأى أمير المؤمنين ذلك فأراد أن يريهم سر إعزازه لابن عباس ، وأنه لم يؤثره بقربه إلا لرجاحة عقله ورحابة علمه .

فسألهم عن تفسير سورة النصر ، فأجابوا بالمعنى المتبادر إلى الذهن : أمر بالتسبيح والاستغفار ، موقوت بمجيء النصر ، ودخول الناس أفواجا فى الإسلام بعد الفتح الأعظم ، وسأل عمر : أكذاك يا ابن عباس؟ ، وأجاب ابن عباس بإضافة معنى آخر ، أن السورة تنعى إلى الرسول نفسه ، كأن الأمر بالاستغفار بعد دخول الجماهير فى دين الله إيدان بانتهاء وظيفة الرسول ، وتمهيد لانتقاله إلى الرفيق الأعلى . . . ذلك كله ما تعنيه السورة .

لكن هذا المفسر المتصوف سلك طريقا لا يعرفه شيوخ الصحابة ، ولا ابن عباس ، ولا أمير المؤمنين عمر ، ولا تطبيقه معانى الألفاظ ، ولا توحى به صياغة الجمل ، ولا سند له من علم ؛ اللهم إلا شرود قائله .

وهذا الهراء لا يسمى تفسيرا ، ولا يقبل القول به من أحد .
وأسوأ ما فيه أنه فتح لباب الفتنة والتأويل الباطل لدين الله ، وأنه تهجم على القرآن العزيز . ما يليق أن يصدر من مسلم .

لندع هؤلاء ولننظر إلى الطرف المقابل ، وهو خاص بالعلماء النظريين ، الذين أحسنوا دراسة الأحكام وتقريرها .

ولما كنت قد أتممت دراستى فى هذا الميدان فأنا خير بماأخذه .

تلقينا فقه الصلاة مثلا ، وحفظنا من واجباتها بضعة عشر ، ومن سننها فوق الخمسين ، ومن فروضها وشروطها كذا وكذا ، واستغرق ذلك وقتا طويلا .

ومع ذلك فلم نع شيئا من روح الصلاة ، من الخشوع الحتم فى حضرة الله ، لم ندر شيئا عن العظمة الباهرة التى ينبغى أن تغمر أفئدتنا وأوصالنا .

لقد درسنا الشكل بدقة واستوعبنا من التعاريف والضوابط الكثير . . أما موضوع الصلاة فربما عرض له بعض المدرسين الاتقياء بكلمات قلائل وحسب . . !!
وليس هذا هو دين الله .

ودرسنا التفسير ، فخذ مثلا هذه الآية أنموذجا للشرح المقرر ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

الجملة الأولى فيها قصر موصوف على صفة ، فما سر هذا القصر؟
والجملة الثانية جاءت بعد اسم نكرة فهي صفة .
والجملة الثالثة تضمنت استفهاما إنكاريا بيانه كذا . . .
والجملة الرابعة فيها الشرط والجزاء يدلان على خسارة المرتد واستغناء الله عنه .
أما الجملة الخامسة ففيها وعد الله بمثوبة الشاكرين .
هذا هو التفسير الذى يجىء فيه الامتحان :
أما التنويه بالوفاء للمبدأ وإن مات مثله .
أما تحديد وظيفة المرسلين بأنها البلاغ الذى يقف كل امرئ بين يدى الله مسئولاً عن نفسه .
أما النعى على هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف ، والذين يفرون من الميدان عند أول مصاب .
أما تبين قيمة الحياة الدنيا بالنسبة لحملة المبادئ ولسائر الناس .
أما تعليق القلوب بولى النعم ، وبعث الهمم على الارتباط به والبذل له والفناء فيه وحده .
أما توضيح معنى الشكر على نعمة الإسلام ، وتوفيق الإيمان الذى ختمت به الآية .
أما ذلك كله فإن أحدا لا يعرض له ، ولا يسأل عنه ، مع أنه لباب التفسير .
وما إعراب الجمل واستبانة وجوه البلاغة ، وتعرف شتى الأحكام إلا إطار لإبراز هذه المعانى التى تدعم اليقين ، وتربى الإخلاص ، وتعلم التضحية ، وتدريب على الجهاد .
وعجيب أن نقع بين صنفين متناقضين :
صنف يفسر بقواعد اللغة والبلاغة ، ولفت النظر إلى بعض الأحكام القريبة الظاهرة ثم يقف .
وصنف آخر يهدم القواعد ويتجاهل الحدود ويهجم على القرآن بمعان مبتوتة الصلة به لأنها فى نظره ترقق القلب ، وترهف الوجدان ، وتنقل الناس إلى الله .

إننا فى هذا الكتاب نعرض - كما قلنا - جزءا من الإسلام لا مصدر له إلا ما يفهم من الوحى ، ولا سناد له إلا شواهد القرآن والسنة .

وأعرف أن ناسا من أهل السنة سيقولون : لقد تصوف المؤلف .

وأن ناساً من المتصوفة سيقولون : إنه شارد عن الطريق .

وحسبى أنى استهديت ربى ، وأنصفت هذا الدين من شتى الأفهام الحائرة .
ولله الحمد أولاً وآخره .

محمد الغزالى

الإسلام والإيمان والإحسان

حديث جامع

من حديث لعمر رضى الله عنه قال : «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال صدقت . قال : فمجبنا له يسأله ويصدق . قال : فأخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..»^(١) .

الإسلام ، الإيمان ، الإحسان ، كلمات ثلاث وردت في الحديث معرفة بما يشرح دلالتها ، وهي - في نظرنا - لتعد عناوين شتى لحقيقة واحدة .

والحقيقة الواحدة قد تنظر إليها من عدة جهات فيعينك من كل جهة وصف خاص بارز ، مع أن هذه الأوصاف كلها متضافرة في تحديد الحقيقة وتوضيح معالمها . ولذلك ختم الحديث بتلك العبارة : «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» .

والدين الذى نزل أمين الوحي لتوضيحه هو الإسلام إن نظرنا إلى السلوك الظاهر ، والعمل البين .

وهو الإيمان إن نظرنا إلى اليقين الباعث والعقيدة الدافعة .

وهو الإحسان إن نظرنا إلى كمال الأداء والوفاء على الغاية عند اقتران الإيمان الواضح بالعمل الصالح ...

(١) بقية الحديث «قال فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال : فأخبرني عن أماراتها؟ قال : أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق فلبث مليا . ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» رواه البخارى .

بل هو جملة هذه المعاني ، لا ينفصل أحدها عن الآخر عند التصور الكامل ، كالشجرة الحية . قد تنظر إلى جذعها الذى يحمل الغذاء للغصون الدانية والذوائب العالية .

وقد تنظر إلى الأثمار المطعومة والأوراق المظلمة .

وقد تنظر إلى ينع الشجرة وحفولها وازدهارها .

بيد أن هذه الأنظار المختلفة لا تغير من وحدة الشجرة ، واكتمال صورتها فى الذهن وفى الخارج . من الجذع القائم ، والأغصان الممتدة ، والرواء الشائع فى الأزهار والجنى ...

وربما انكملت العناصر التى تتكون منها حقيقة الدين ، ووهت الروابط التى تشد بعضها إلى البعض الآخر ، فيكون الإسلام عملاً خافتاً لا تلمح وراءه قوة الإيمان ، أو يكون الإيمان باعثاً مريضاً لا يدفع الأهواء ولا يوقظ الضمائر ، أو يكون الإحسان زعماً لا يبصر الحق ولا يحس هيئته .

نعم ، قد يقع هذا فى حياة الناس كما ترى أحياناً شجرة معطوبة الثمر ، ذابلة الورق ، لا جذعها يحمل الخصب والثمار ، ولا أفنانها تحمل القطف والخير ولا منظرها يوحى بالبهجة والرضا .

ولكن هذه الأحوال المعتلة ليست الفطرة العامة والطبيعة السائدة .

والحديث الذى بين أيدينا يشرح الحقيقة الصحيحة للدين .

والإيمان إذا صح لا بد أن ينتج العمل .

والعمل إذا صح لا بد أن يركز على الإيمان .

والإحسان إذا صح لا ينشأ إلا من إيمان راسخ وعمل كامل .

ويمكنك أن تقول : إن الدين الذى جاء جبريل يعلمه هو الإسلام .

والإسلام لا يصح إلا بالروح الكامنة فيه ، والوقود المحرك له أى الإيمان الحق .

فإذا استبطن هذا اليقين الدافع فأمامه مثله الأعلى فى إحكام الصلة بالله ، والشعور برقابته الدائمة وشهوده الجليل ، وهو مقام الإحسان .

وقد شرحنا الحديث بهذا الأسلوب لأن بعض الناس وهم أن كلمات الإسلام والإيمان والإحسان مراتب يسلم بعضها إلى البعض الآخر ، وأن بينها فواصل وفجوات ، أى أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان ، وأن الإيمان قد ينفك عن الإسلام .

ثم جاء في هذا العصر الهازل من ظن الإحسان منزلة يتوصل إليها بغير الفروض المشروعة والعقائد المقررة .

وبذلك أصبحت الكلمات الثلاث ترمز إلى حقائق شتى لا إلى دين الله الواحد ، وهذا شرود بعيد .

والقرآن الكريم يهذى إلى تلازم هذه المعانى وتساقطها فى بيان حقيقة الدين من ألفه إلى يائه ، وإلى أن تلون العبارات إنما يشير إلى الوجوه الوضاعة لهذه الحقيقة الواحدة . وإنك لترى هذا فى عشرات الآيات التى تصف هذا الدين ، وتشرح تعاليمه ، ذاكرة فى تضاعيف هذا الوصف كلمات الإسلام والإيمان والإحسان ، لتكون هذه الكلمات منارا يضيء الطريق ، وحاديا يسوق إلى الغاية .

قال عز وجل يصف المؤمنين فى صدر سورة النمل : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (النمل : ٢ ، ٣) .

وقال يصف المحسنين صدر سورة لقمان : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (لقمان : ٢ - ٣) فاتحدت الصفات للنعين معا .

وأنت خبير بأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة أهم عناصر الإسلام التى ذكرت فى الحديث . وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١٧) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الزمر : ١١ ، ١٢) .

﴿ ... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ (يونس : ١٠٤ ، ١٠٥)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (النساء : ١٢٥) .
﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (لقن : ٢٧)

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٢)

والآيات السابقة كلها ترادفت فيها عبارات الإسلام والإحسان على أساس أن الإيمان المستكن في الأفئدة شىء مقطوع بوجوده ووفرته ، وإلا فلا يتصور هنالك إسلام ولا إحسان .

وإذا كانت هذه الآيات قد تناولت الجانب الظاهر من جوهر الدين فإن الآيات الأخرى تناولت الحقيقة تناولاً يصف جذرها الأصيل :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال : ٢) .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الحجرات : ١٥) .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال : ٧٤) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء : ١٣٦) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥٥) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (النساء : ١٥٠ ، ١٥١) .

والتأمل في هذه الآيات يرى أن متعلقات الإيمان كثيرة لا يجوز بته أن يتفك أحدها عن الآخر ، كما يرى أن آثار الإيمان العملية - وهي لباب الإسلام لا يمكن أن تفصل هي الأخرى عن طبيعة اليقين الموحى بها .

بل يرى أن الإيمان بالبعض والكفر بالبعض كفر كامل .

وأن الإيمان المقرون بنية التمرد ، ورفض الخضوع لله كفر كامل .
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (النور : ٥١) .

ومن ثم يتضح أن حقيقة الدين واحدة ، وأن أوصاف الإسلام والإيمان والإحسان التي تعرض له هي شروح لوجوه شتى منه ، وليست مراحل مغايرة له أو بعيدة عنه ، وإن كان العنوان الذي شاع علما على هذا الدين ، بل صفة للأديان كلها ، وسمه للفطرة الإنسانية السليمة ، هو الإسلام ...

ما هو الإيمان؟

الإيمان معرفة بلغت حد اليقين ، أو هو علم يصحبه الجزم والقطع .
فإذا قلت : أنا أؤمن بوجود القاهرة فمعنى ذلك أمران :
أحدهما عقلى ، هو أنك تعرف وجود هذا البلد ، والآخر قلبى ، وهو أن علمك
لا ريبة فيه ولا تردد ، بل مقرون بالتصديق التام .
والإيمان بالله - جل شأنه - ينطوى على الأمرين جميعا ، النظرى والنفسى .
فإذا قلت : أنا أؤمن بالله فمعنى ذلك أنك تعرفه ، وأن معرفتك له لا تلتبس
بشك أو تردد . بل إن فؤادك ملئ بالتصديق لقضية هذا الوجود الأعلى .
وبديهى أن تتفاوت حقائق الإيمان فى النفوس بتفاوت المعرفة ضيقا وسعة ،
وتفاوت التصديق عمقا وقربا .
فهناك عارفون بالله معرفة صافية الرونق ، مجلوة الأفق ، شديدة التألق كأنها
معرفة دراسة وخبرة .
﴿الرَّحْمَنُ فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان : ٥٩) .
وهناك معرفة دون ذلك .
وهناك أصحاب قلوب مفعمة باليقين ، راسخة الثقة ، تمر بها العواصف كما تمر
الرياح بشماريخ الذرى لا ترحزحها عن الحق قيد أنملة .
وهناك يقين دون ذلك .
على أن الإيمان إذا كان معرفة وتصديقا . فإن هذه المعرفة يجب أولا أن تتسم
بالصحة ، وإلا فلا قيمة لتصديق لبابه الخطأ .
إن من البشر أجيالا لا تعرف الله ، ومنهم من يعرفه على وجه حافل
بالأغلاط والترهات .
والفريق الأول : ينكر أصل الألوهية كالشيوعيين والوجوديين وأضرابهم من الملحددين .
والفريق الثانى : يعترف بالألوهية ولكنه يتصورها تصورا مخالفا للواقع ، وينسب

إليها ما لا يليق بها ، كجماهير المشركين على اختلاف مللهم ، سواء فيهم عبدة الأصنام ، أو الزائغون عن الحق من أهل الكتب الأولى .

والإيمان عندنا يجعل العلم الصحيح بالله روح التصديق المقبول .
وقد امتلأ القرآن الكريم بالآيات التي تعرف الله لعباده تعريفا ينفي عن أذهانهم صور الضلال والانحراف ، ويقر الحق في نصابه .

خذ هذه الآية : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة : ٢٥٥) .

هذه الآية تعرف بين المسلمين بأية الكرسي ، وقد نوهت السنة النبوية بفضلها ومكانتها ، وتتكون من عشر جمل متصلة المعنى في الحديث عن ذات الله وصفاته :

١ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ليس في الوجود أحد يتجاوز مرتبة العبودية ، فكل ما عدا الله عبده ، وهو وحده المتفرد بالألوهية في السموات والأرض ...

من قال عن نفسه إنه إله فهو كاذب ، ومن قال عنه الناس ذلك فهم عليه كذبة ، وقد تمر بالناس أعصار يتخذون فيها بعض الجمادات والدواب آلهة ، وهذه أعصار الانحطاط الذهني والنفسى التى نرجو أن يتم خلاص البشر جميعا منها .

ولكن الضلال الشائع إلى اليوم اتخاذ بعض البشر الطيبين آلهة مع الله بحجة أنهم انبثقوا منه أو أنه حال فيهم .

وقد حارب الإسلام هذه الضلة حربا شديدة ، وأكد أن البشر مستحيل أن يرتفعوا إلى مصاف الآلهة ، وأن الله العلى الكبير لا يمكن أن يهبط إلى منازل البشر .

إنه الإله الذى خلق غيره ، ومنحه الحياة ، وقام على أمره من المهد إلى اللحد ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ نَنْفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان : ٣) .

ورسول الإسلام - وهو قمة البشرية - عندما يدعو الله يؤكد هذه الحقيقة «اللهم

أنا عبدك وابن عبدك وابن أمّتك وفى قبضتك . ناصيتى بيدك ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ... »^(١) .

٢- ﴿الحى القيوم . . .﴾ والأحياء من الخلق ليس لهم من أنفسهم ما يوجب الحياة ، إن الحياة عرض مفاض عليهم من خارج أنفسهم .

وهو عرض يفارقهم يوما ولا يعود إليهم إلا وفق مشيئة مفيضة جل شأنه ، الحى الذى لا بداية لحياته ولا نهاية ، فحياته وصف ملازم له أزلا وأبدا ، وذلكم الفارق بين حياة الخالق والخلق .

ومن ثم يقول الله لنبيه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر : ٣٠) أما المتفرد بالحياة العظمى فهو الله .

ولما كانت هذه الحياة وضاحة نفاحة ناسب أن يجيء عقبها وصف القيوم الذى يمد الأكوان والخلائق كافة بحركاتها وسكناتها ، ويشرف إشراف إحاطة وهيمنة على شئونها وأحوالها فهى أحوج ما تكون إليه ، وهو أغنى ما يكون عنها . وقد ورد فى الآيات والآثار أن الله قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنه القيم على السموات والأرض ومن فيهن .

والقائم على الشئ ، والقيم عليه أو القوام عليه ، ألفاظ تتفاوت فى الكشف عن هذه الإحاطة الشاملة لفتون التصريف وألوان السيطرة على العالم .

ولكن لفظ القيوم جاء على هذه الصيغة فى المبالغة ، إشارة إلى أنه من المستحيل أن يفلت زمام الأمور من الخالق ، أو أن تسير فى وجهة غير ما قضى ، إذ كل شئ يستند فى وجوده وبقائه وتقلبه إلى هذا الوجود الأعلى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر : ٤١) . وهذه الجملة - الحى القيوم - أولى الجمل التسع التى ترادفت أشبه بالاستدلال على الوحدةانية المتقررة فى الجملة الأولى من آية الكرسي .

إذ هذه الأوصاف تنفى الشركة نفيا حاسما ، وتشهد للبارئ الفرد أنه لا إله غيره .
٣- ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ السنة ما يخالط الأجفان من أوائل النعاس ، والنوم هو الاستغراق التام .

(١) الترمذى .

والمراد أننا نحن البشر تدركننا ساعات غفلة نفقد فيها الشعور بأنفسنا وما حولنا .
بل نحن فى إبان اليقظة يختلف انتباهنا ونشاطنا الذهنى نحو ما نفكر فيه وما
يحيط بنا .

وعند الكلال يضعف هذا الانتباه ، وتتهىء العزيمة ، وتكثر الأخطاء .
لكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن ولا يغفل عن أمر فى السماء
لاهتمامه بأمر فى الأرض ، ولا تلحقه عوارض الوهن والإعياء ، ولا تنفك قبضته
الواعية عن ذرة فى العرش أو الفرش لسهو أو إغفاء .

٤- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الله واسع الملك . وما تقول فى
غنى يشمل آفاق السموات وفجاج الأرض؟ إن العالم كله ، علوه وسفله ، ملك لله
وحده . والذين يظنهم الجاهلون شركاء لله ، ليس لهم فى هذا العالم ذرة ، إن كانوا
أصناما فما الأصنام؟ تماثيل نحتها المصورون فهم فى الحقيقة يملكونها ولا تملكهم .
وإن كانوا بشرا ، فهؤلاء البشر ملك لمن صورهم فى الأرحام ، وجعل صدورهم
تهبط وتعلو بالشهيق والزفير ، ولو شاء أن يقف دقائق قلوبهم فى أية لحظة من ليل
أو نهار ما رده راد . .

إن هناك ملاكا على المجاز يضعون أيديهم على بعض التراب ليرتفقوه حيناً ، وربما
طغوا بما يملكون ظاهراً ، ثم يجيئهم الموت فيدعون الحياة صفر الأيدى ، يدعونها
لمالكها الحق الذى له ميراث السموات والأرض . ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام : ٩٤) .

٥- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ القاعدة العامة فى الإسلام أنه لا
شفاعة لمشرك ، أو ملحد .

وأنه لا حق لأحد من الملائكة أو المرسلين يذهب به إلى الله ليقول له : اعف
عن فلان ، أو اترك فلانا .

وأن الأساس الأول للنجاة هو الإيمان والعمل الصالح ، ولذلك قال الله تعالى
قبل هذه الآية مباشرة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ
يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة : ٢٥٤) .

ويقول مخبرا عن مصاير المشركين والمجرمين : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكِ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة : ٧٢) .

ويقول أيضا : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (فاطر : ١٨)

وقد يقع - لمن ينجون بأعمالهم - شيء من الفضل ترتفع به درجاتهم فوق ما يستحقون .
أو يقع - لمن قاربوا ولم يصلوا - شيء من العفو ينجحون به ولا يرسبون ويجعل الله السبب الظاهر في ذلك شفاعة المرسلين أو الصالحين .

وهي شفاعة لا ترجع إلى أن هؤلاء المرسلين أو الصالحين يجيرون على الله ، أو ينقذون منه من يريد عقوبته ، كلا ، فما يجرو ملك ولا نبي على أن يقف من الله هذا الموقف .

إنهم لا يشفعون إلا بإذنه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى .

﴿ لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٧ ، ٢٨) .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (طه : ١٠٩) .

وربما قال قائل : ولم هذه الشفاعة وما قيمتها؟ والجواب أنها لا تعدولونا من إكرام الله في الدار الآخرة لمن أهينوا بسببه في الدنيا ، فيريد الله أن يصلح بالهم وأن يعلى قدرهم ، وأن يشعر عباده بما لهم عنده من مثوبة ومنزلة ، وأن يطوى قلوب المقصرين والمتأخرين على محبتهم وإعزازهم لما سيق إليهم من فضل على أيديهم .

بيد أن الشفاعة المذكورة لا تهدم قواعد العدل ، ولا تعطل موازين الحساب ولا يحتاج إليها سابق بالخير ، ولا ينتفع بها مارق من الحق .

٦- ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ليس يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء ، وعلم الأمس واليوم والغد عنده سواء . كأن العالم منذ خلق ، وإلى أن تبدل معالمه ، صفحة واحدة يستوى فيها القريب والبعيد والأول والآخر .

وذلك - بداهة - لأن الخالق يعلم ما خلق ، ولا يتصور أن أحدا صنع من ورائه شيئا فيكون هو- سبحانه - جاهلا به .

إن الإبداع - وهو إبراز شىء من العدم - لا يقدر عليه إلا الله .
 والتغييرات التى تحدث فى المادة - وهى محور الأعمال البشرية - لا تتم إلا
 بأقدار الله ، ومن هنا كانت إحاطة العلم .
 ومن هنا كان معنى قولنا : إن الله لا يعلم هذا الشىء ، أن هذا الشىء لا وجود
 له ، إذ لو كان موجودا لعلمه حتما ، وهذا معنى الآيات الكريمة .
 ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ
 اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
 يُشْرِكُونَ﴾ (يونس : ١٨) .

ولقد تحول الفكرة فى خاطرى - وكم يحمل تيار الشعور السارى فى كيان المرء
 من خطرات ، وسوانح - فأقول : إن الله يعلم هذه الخطرة المارة ، كما تمر السحب
 بالآفاق . ثم أقول : وعلمه بها منذ أجيال :

وأستلنى القول : وهو يعلم من غيرى مثل ما يعلم منى !
 ومن غيرى ؟ ألوف مؤلفة تزحم أرجاء العالم .
 وعلمه يسع هؤلاء فى عصرنا . وما قبل عصرنا وما بعد عصرنا !!
 وما يملك المرء وهو يتابع هذا التصور إلا أن يهتف بالآية :
 ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر : ٧) .

٧- ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ ينباع المعرفة تنبجس ابتداء من
 مشيئة الخالق ، حتى العلم بما يقع فى مجال السمع والبصر ، إنه لولا ما ركب فى
 الإنسان من عقل مدر ، لملاح ، ما استطاع أن يفقه مما حوله شيئا .
 والاطلاع على ما هو أعمق من ذلك موكل إلى مراتب الذكاء الإنسانى ،
 وأنصبتنا من هذا الذكاء مقسومة علينا ونحن أجنة فى بطون الأمهات .
 ومن هنا كان فتح نوافذ قليلة يطل منها العقل البشرى على آفاق من العلم
 محدودا بما تهىء المشيئة العليا من أسباب عادية أو غير عادية .
 ومصادر المعرفة المعتادة مبنوثة فى كتاب الكون المفتوح ، وفى تجارب الناس مع

الحياة العامة ، ويمكن بالوعى والتأمل والتجربة أن نبليغ آمادا بعيدة فى هذا المضمار دون حرج ودون قيد .

أما المعارف الغيبية التى مصدرها الوحي الأعلى ، فإن الله قد اصطفى لها رسله الأولين وقد انتهى هذا المصدر بالرسالة الخاتمة ولن يحيط أحد بشيء من هذا العلم عن طريق الاتصال بالاله أو بملائكته ، ومن زعم ذلك فهو كاذب .

وقريب من ذلك الإنباء بالغيوب ، فإن هذا ليس من العلوم الميسرة للخلق حتى تتاح فرصها للبشر على سواء : ولا مكان لوحى ينزل به بعد انقضاء النبوات . ومن ثم فلا يقبل من أحد القول بأنه داخل ضمن الإمكان العام فى قوله تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) .
فإن هذه المشيئة مبينة بما أوضحناه لك آنفا .

٨ - «وسع كرسیه السماوات والأرض» المتبادر إلى الأذهان أن السماوات والأرض هما حدود الملك الإلهى ، وهذا خطأ ، فإنهما بعض آثار القدرة العليا فحسب ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (الشورى : ٢٩)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم : ٢٥) .

هما من آيات الله وآيات الله الشاهدة بجلاله لا يحاط بها ، وكرسیه من الرحابة بحيث يسع السماوات والأرض وسائر ما لا نحصى من آيات .
ونحن لا ندري ما الكرسي؟ ولا نكلف باكتناه ذلك .

وكل ما ندركه من هذه الجملة هو ما توحى به من الإشراف الإلهى العالى على سائر الخلق ، ما نرى منه وما لا نرى ، وأن السموات والأرض ما يستغرقان إلا جزءا من الملكوت الواسع الذى اشتمل عليه هذا الكرسي ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج : ٢٠)

٩ - «ولا يئوده حفظهما» لا يتجشم أية مشقة فى ضبط السموات والأرض وتدبيره الأمر بينهما ، كما أنه لم يتجشم أية مشقة فى الخلق الأول ، وهذا ما ذكره فى قوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات : ٤٧) .

أى أن ذلك البناء شيء هين إلى جانب ما فى وسعنا ، كما ينفق صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلوسا قليلة ، فلا يرى أنه أعطى شيئا طائلا

كذلك - ولله المثل الأعلى - بناء العالم وحفظه ، ما يتعب الخالق المدبر ، ولا يرهقه ، لفرط عظمته .

والجملة السابقة فى وصف الكرسي تشير إلى علو الذات . ولذلك جاءت الجملة الأخيرة .

١٠- ﴿وَهُوَ الْعَلَى الْعَظِيمُ﴾ تذييلاً يختم المعانى السابقة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مناسبين للمقام ، مقام العلو والعظمة الواجبين لذى الجلال والإكرام .

العقيدة الصحيحة بين الإسلام والنصرانية:

هذا الاعتقاد الشريف فى إله منزّه عن كل عيب مستحق لكل كمال هو أساس الدين .

وإن وراء المادة وجوداً أعلى يجب اليقين فيه والاستمداد منه .

والله جل شأنه لم يدع الخلق دون رعاية وهداية ، بل تعهدهم بالوحي الذى ينير لهم الطريق ويعرفهم المبتدأ والمنتهى .

وما الوحي؟ إنه ليس حديث نفس ، ولا ارتقاء فكر ، إنه تعاليم حملها ملك ، وتضمنتها كتب ، واصطفى لها بشر .

واستمعت إليها الأمم على مر العصور من أناس يعلمون عن ثقة وصدق أنهم مرسلون من لدن الله إلى عباده لإبلاغ كلماته .

ومن هنا كان من تمام الإيمان بالله ، الإيمان برسله وكتبه وملائكته . لا بد لتمام الإيمان من أن يعترف البشر بما وراء المادة ، وبالعلم الذى تمخض عنه الوحي السماوى .

إن الإيمان بعلوم الحياة الأرضية وحدها دلالة كفر بالله رب العالمين . ولا ينبجأ هذا الكفر إلا بالاعتراف بالوحي وتصديق المرسلين ، والشعور بأن ما جاءوا به حق وأنهم موفدون من قبل الله كى يعدوا الناس لحياة راشدة يحسن بعدها لقاءهم لله فى اليوم الآخر .

تلك عرى الإيمان كما ذكر الله فى كتابه ، وبينها رسوله الأخير فى سنته .

﴿أَمَّا الرَّسُولُ فَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ

وَرُسُلُهُ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾ .

والمسلمون يرون الأنبياء جميعا إخوة .

ويرون الكتب النازلة من السماء كلها شارحة لأصول الدين شرحا يصدق بعضه بعضا .
ويرون الأجيال الأولى حفلت بالعديد من هؤلاء المرسلين الكرام ، ولا ينتظرون نبوة جديدة فى الأجيال الأخيرة ، لأن السماء ألقت كلمتها الأخيرة ، فى القرآن الكريم الذى جاء به محمد خاتم النبيين .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(الأنعام: ١١٥)

والخلاصة التى أكدها الإسلام لدين الله الذى بلغه المرسلون عامة تنحصر فى أنه :

- ١- لا إله إلا الله ، ليس هناك إله ثان ولا ثالث .
 - ٢- استحقاق الله لكل كمال وتنزهه عن كل نقص .
 - ٣- نعمة البشر فى عبادتهم وانقيادهم لتعاليم هذا الإله الفرد كما نزلت من لدنه .
 - ٤- ليس هناك أحد يجير على الله ، أو يملك التعقيب على حكمه ، فلا شركاء ولا شفعاء .
- والإسلام يأخذ على أتباع الديانات السماوية الأخرى انحرافهم عن الجادة فى تقرير هذه المعانى .
- فالمسيحية مثلا ترى أن هناك إلها هو الأب وثانيا هو الابن ، وثالثا هو الروح القدس! ثم تلحق ذلك بأن الأب هو الابن ؛ وأن الثلاثة مع ذلك إله واحد!!
وهذا الكلام شطر الإيمان فى المسيحية ؛ أما الشطر الآخر الذى لا يتم الإيمان إلا به ، فهو القول بأن الإله الابن صلب كى يرضى الإله الأب عن أولاد آدم بعد خطيئته الموروثة .

ولما كان الإله الأب هو نفسه الإله الابن ، فمعنى هذا أن الله ، قتل الله ليرضى الله . . !!

والحق أن العقل البشرى تبهظه هذه الأنقال ، ولذلك فهو بين أمرين إما أن يهضم نفسه فيقبل هذه الأوهام ويعتقها على ما بها .

وإما أن يطرحها ويسير وفق ما يراه .

وذاك سر البراكين التى تثور فى الكيان الصليبي ، وتجعله يقذف العالم بين الحين والحين بأشتات من مذاهب المروق والفسوق والعصيان ، كالشيوعية والوجودية والإباحية وغير ذلك من عوج فى الطبيعة الإنسانية بعد ما سارت فى الأرض من غير زمام .

وهاك ما يصور العقيدة المسيحية منقولا عن بعض الكراسيات التى توزع اليوم - للدعاية - ومدعوما بالمصادر الشاهدة له من الكتاب المقدس .

«إن الثالوث الأقدس هو الله الأب السرمدي وهو كائن ذاتي قادر على كل شيء حاضر في كل مكان عالم بكل شيء ، لا حد لحكمته ومحبته ، والرب يسوع المسيح ابن الله الأزلي الذى به خلقت كل الأشياء وبه أيضا يتم خلاص المفلدين ، والروح القدس الأقنوم الثالث فى الثالوث الأقدس ، وهو القوة العظيمة المجددة فى عمل الفداء .

إن الرب يسوع المسيح هو الله نفسه إذ هو من طبيعة الله الأبدي نفسها وجوهه ، الذى مع احتفاظه بطبيعته الإلهية اتخذ الطبيعة البشرية ، وعاش على الأرض كإنسان ، ومثل فى حياته ، كمثال لنا ، مبادئ البر ، وأثبت ألوهيته بعجائب كثيرة عظيمة ، ومات على الصليب من أجل خطايانا وقام من بين الأموات وصعد إلى الأب حيث الآن يشفع فينا . يوحنا : ١ ، ١٤ ، عبرانيين ٢ : ٩-١٨ ، ١ : ٨ ، ٢ و ٤ : ١٤ - ١٦ : ٧ : ٢٥ .

لقد توج السيد المسيح إعلانه عن محبة الله ، إذ سار أخيرا إلى الصليب ، وهنالك ، بوصفه الممثل الكامل الأوحى للجنس البشرى ، امتزجت طبيعته الإلهية والبشرية امتزاجا لا انفصال له . وهكذا بعد أن قضى سحابة حياته على الأرض فى طاعة تامة لناмос البر الأبدي الذى وضعه هو ، بذل نفسه عن خطايا الناس ذبيحة كاملة تامة وافية بلا تلاعب ، «لأنه كما بمعية الإنسان الواحد جعل الكثيرين خطاة هكذا أيضا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرين أبرارا» . رومية ٥ : ١٩ .

وكتب الرسول بولس : «مخلصنا يسوع المسيح ، الذى بذل لأجلنا لكي يفيدينا من كل إثم» تيطس ٢ : ١٣ ، ١٤ .

لقد صور الرسول بولس التضحية الإلهية الجلى بهذه الكلمات الخالدة : «إذ كان

فى صورة الله لم يحسب (المسيح) خلسة أن يكون معادلا لله . لكنه أخلى نفسه
أخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس . وإذ وجد فى الهيئة كإنسان وضع نفسه
وأطاع حتى الموت موت الصليب» فيلبى ٢ : ٦ - ٨ .

أجل ، تنازل السيد فانتقل من أسمى علو إلى أدنى مرتبة ، من كرسى المجد إلى
خشبة العار ، من القدرة اللامحدودة إلى التسليم التام ، من السلطان المطلق إلى
التواضع العميق من تسييح الملائكة وتعبدهم له إلى تجديف البشر عليه وهزئهم به .
يا لها تضحية عجيبة فائقة التصور! أجل ، لقد كان الله مستعداً أن يدفع هذا
الثمن الذى لا يستقصى فى سبيل خلاصنا .

هكذا أراد أن يعلن محبته لنا ويتصل بنا عبر الهوة السحيقة التى أوجدتها
الخطية ، وعليه قال الرسول بولس : «فإن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل
الخطايا . البار من أجل الأثمة لكى يقربنا الله» بطرس ٣ : ١٨ » أ . هـ .

هذا الكلام العجيب المشحون بالنقائص هو محور الإيمان عند القوم . الله صلب
الله ، لكى يرضى الله ... يرضى عن الخاطئين من بنى آدم ، لو خبر الإنسان بأن
قوماً فى كوكب آخر يجمعون فى تدينهم هذه الغرائب لأنكر وجودهم ، ومع ذلك
فهم يعيشون معه على ظهر هذا الكوكب .

وليس لنا من تعليق على قصة الأوبة والنبوة والفداء وروح القدس التى تلتقى
كلها فى ذات واحدة إلا قول الله فى كتابه الكريم : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى
يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكَمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا
تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿ (الأنعام : ١٠١ : ١٠٤)

الإلحاد خرافة علمية

قلنا : إن الإيمان معرفة بالله بلغت حد اليقين ، وإن المعرفة المقبولة هي المعرفة الصحيحة التى تطابق الحق .

وقلنا : إن هناك من يعرفون الله معرفة مشوبة بالخطأ ، مقرونة بأوهام لا يساندها الواقع . وقد ذكرنا نماذج لتفكير هؤلاء .

وبقى أن نتعرض لقوم آخرين لا يعرفون الله أصلا ، بل ينكرون وجوده بقوة . وهؤلاء المولعون فى الجحود قد اشتدت سواعدهم فى العصر الأخير اشتدادا محزنا ، وأسعفتهم حضارة الغرب المادية بقوى كثيرة .

فلسفة الشيوعية القائمة على أنه ، لا إله والحياة مادة ، أسست لها دولة مسلحة مخوفة .

وفلسفة الوجودية ، أو نزعات البعد عن الدين إجمالا ، تنتظم مواكب ضخمة من المثقفين فى دول أوروبا الغربية .

وهؤلاء يروجون لنظرية النشوء والارتقاء ، ويدرسون الحياة على أنها بداية هزيلة مبهمة تدرجت فى سلم التطور حتى بلغت وجودها الحالى .

واستطاع الغزو الثقافى أن يقذف مجتمعنا بجملة من هذه الأفكار العلييلة وهى أفكار ما تلبث - إذا نوقشت - أن تنهار .

وقد تجددت الحملة على الإيمان فى الآونة الأخيرة فرأينا أن ندفع ما فيها من باطل ، تحت العنوان نفسه الذى اختاره المبطلون وهو :

نفي الحياة :

ماذا ترى عندما تعبت الأيدى بأوراق اللعب ، أو بأزهار النرد ؟ .

إنها تلقى ما بها أو تستقبل ما أمامها دون أن تدرى عنه شيئا ، ثم تتأمله بعد أن يقع لتعرف ماذا يحتوى .

أترى الأطفال وهم يلعبون بالألعاب المهداة إليهم؟ إنهم يرمونها بمئة أو يسرة

ويحركونها بضعف أو قوة ، دون أن يكون لهم هدف أكثر من حب العبث وطلب المرح . هذه الحركات التى تلمحها فى الصغار والكبار لا يمكن أن توصف بأنها مقرونة بحكمة أو محكمة بقانون ، أو مصوغة فى إطار من سداد الفكر ودقة الغاية ، إنها حركات وحسب .

ونحب أن نسأل : هل خلق العالم جاء على هذا الغرار؟ فركمت مواده بعضها فوق بعض دون قصد ، وسيرت حركاته علوا وسفلا دون ضبط ، كأن الخالق أراد من هذا الصنيع اللهو والتسلية!

والجواب السريع لا ، فإن ميدع هذه العوالم قال فى وضوح : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء : ١٦ ، ١٧) .

وفى آية أخرى يبين أن كيان هذا العالم تضام وتماسك ، أو تحرك وانطلق وفق نظام راقى ، وسنن متسق ، وغاية مرسومة ، ومراحل معلومة .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان : ٣٨ ، ٣٩) .

ونريد أن نفق وقفة ذكية فاحصة عند كلمة (الحق) هذه . فإنها تكررت فى كتاب الله عشرات المرات . وهى فى شتى مواضعها تعنى أن الحياة لا تسير خبط عشواء ، وأن بناء الكون قائم على بصر نافذ وأوضاع اكتنفها من ألفها إلى يائها إعداد حكيم ، وتنظيم مضبوط ، يستحيل أن يتطرق إليه خلل أو ينتابه عوج .

فكل قطرة فى المحيطات الفسيحة أخذت سمتها والتقت مع سواها وتهيأت لحمل السفن الماخرة ، أو صلحت لحياة الأسماك والحيتان ، وثارَت موجا عاتيا أو حالت جليدا باردا . كل قطرة فى عالم الماء العميق الواسع تكونت على هذا النحو وفق قانون عتيد وخطة مرسومة ، وصل العلم البشرى إلى جزء منها ، وربما وصل إلى أجزاء أخرى مع إيمان النظر والتفكير .

وكل ذرة فى القارات الراسية من أرض مخصصة أو مجدية تماسكت مع غيرها وصلحت مهادا للناس يستخرجون دفائنهم ، ويرتفقون ظواهرها ، ويجوبون أقطارها ،

ويعمرون فجاجها كل ذلك ما يتم إلا فى نطاق التخطيط الأزلى الذى وضعه البارئ
الأعلى للكائنات كلها . فهى مطبوعة به منساقة إليه لا تعرف غيره ولا تحيد عنه .

أجل ، فالنظام الشامل يسود كل حركة وسكنة تتعرض لها الكائنات جملة وتفصيلا .

وعندما وجه فرعون إلى موسى وأخيه هذا السؤال : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (٤٩ : ٥٠) .

إن هداية كل شئ فى الحياة ليقوم بوظيفته المطبوع عليها ، هو «التقدير» الذى
سير الله به الحياة تسييرا متقنا .. ! ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١) الذى خلق فسوئ

(٢) ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (الأعلى : ١ - ٣) ، وذلك هو معنى الحق الذى قامت به
السموات والأرض . فلا تحسبن نباتا ينبثق من ترابه كما يحلوه . إن مقادير
الأغذية التى يحملها أو الروائح التى يطلقها عبث فيه وفق سنن بينة قائمة .

ولا تحسبن نجما يخترق هذا الفضاء متجولا فهو يسرع إذا أحب ويبطئ إذا أحب .
إنه يجرى تبعاً لقوانين قيد بها ، وقوى حبس فى حدود أذن الله بها ، ولم يأذن بغيرها .
وقد وزعت هذه الإحياءات من بدء الخليقة توزيعاً لا يلحقه اضطراب ولا ترقى
إليه فوضى .

وإبرازاً لهذه الحقيقة قال الله جل شأنه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (نصلى : ١١ ، ١٢) .

ذلكم هو الحق الذى انساب فى أوصال العالم كما تنساب الروح فى البدن ،
والذى تكرر كثيراً فى سور القرآن الكريم .

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا
عَمَّا نُنْذِرُوا عُصْرُونَ ﴾ (الاحقاف : ٣) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ
الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (الحجر : ٨٥) .

﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (الروم : ٨) .

ولما كان القرآن هو الكتاب السماوى الأواحد الذى لفت الأنظار بقوة إلى كتاب الكون المفتوح وأغراها بفهم أسرارهِ وسبر أغواره صح أن يقول الله فى وصفهِ : ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء : ١٠٥) .

وبديهى أن يكون التأمل فى الكون مفتاحا لإدراك عظمتهِ ، وبالتالى مفتاحا لإدراك عظمة البارئ الذى أبدعهُ ! .

إن التأمل فى صورة مليحة التقاسيم جميلة الرواء طريق طبيعى لتعظيم من رسمها والاعتراف بعلو فنهِ ، والتأمل فى قصر منيف الشرفات رحب الأكناف متين الدعائم طريق طبيعى لإكبار بانيهِ والتنويه بهندستهِ وعبقريته .

فلا غرو أن يكون النظر إلى الأرض والسماء وما بينهما طريقا طبيعيا لإكبار من سمك هذا السقف المحفوظ ، ومهد هذا الفراش المبارك ، وبث فى تضاعيف الخلق من أسرار الإبداع وروائع القدرة ما ينطق بالبحر بالإعجاب .

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات : ٤٧ - ٤٩) .

بيد أن بعض الناس انقلب فى تفكيرهِ هذا المنطق الطبيعى ، ونظر إلى القوانين اللازمة الدائمة الملحوظة فى بناء هذا الكون ثم أخذ يتغزل فيها ويتحدث عنها وينسب إليها ما يشاء .

فإذا وجد على قضبان السكة الحديدية قطارا منطلقا يخترق الريح قال : ما أروع هذه العجلات ، إنها تدور بقوة لا تهدأ ، ما أقوى الأذرعة التى تغمزها . إن جلدها على أداء هذه الوظيفة يستحق الثناء ، إن العربات المجرورة تتحسس طريقها بحذر وراء القاطرة الذكية .

وينتهى من هذا الوصف بأن القطار كائن عاقل أوجد نفسه بنفسه ! .

وينظر مثلا إلى المصباح الكهربائى فيقول : إن مفتاح التيار يرقب الأصابع التى تحركه ، والتيار السالب فى شوق حار إلى التيار الموجب كى يتعانق وإياه ويمتزج به وتُضاء الحجرة .

وينتهى من هذا الوصف . بأن الكهرباء كائن يدرى ما يصنع عندما يحرك آلة واقفة أو يضىء مكانا معتما!

وربما ظن القارئ أن هذا الكلام خيال شاعر سخيف ، أو تصور طفل غريب! لكننا نسارع إلى زيادة دهشته فنقول له . . . بل هذا الكلام يوصف بأنه تفكير علمى لدى بعض الناس! .

هذا المنطق الصيباني هو للأسف محاولة علمية لتفسير لغز الحياة! وحل مشكلة الوجود! وبيان أن العالم مادة وحسب ، وأنه لا إله .

هذا المنطق يرثد أن ينقل خصائص الألوهية إلى المادة نفسها جاعلا السنن الكونية المنتظمة لها علامة تفكير واختيار لدى الأحياء والجمادات على سواء . يقول الكاتب :

«اسمعوا . هذه ليست نكتة .

إن الوردة فيها عقل .

وشجرة البلوط لها عقل . وإن كان عقلا نخبنا مثل جذعها الثخين .

إن حركة زهرة عباد الشمس وهى تلوى عنقها لتتجه نحو الشمس لا تختلف كثيرا عن حركة النحلة وهى تطير إلى الحقل لتجمع العسل . ولا عن حركة الإنسان الواعية العاقلة وهو يطير ليقترحم المخاطر مستهدفا رسالة سامية .

إن الحركات الثلاث منظومة متصلة الحلقات ، الفارق بينها فارق فى الدرجة فقط

إن حركة زهرة عباد الشمس فى بساطتها . عقل . فما هو العقل؟

إنه قدرة تصرف وتكيف بالبيئة .

إنه فى كلمات قليلة بسيطة . القدرة على اتخاذ موقف انتقائى أكثر ملاءمة للحياة فى كل لحظة ، والزهرة حينما تلوى أوراقها نحو الضوء تتخذ موقفا انتقائيا أكثر ملاءمة لحياتها . إنها تتحرك عاقلة .

ومعنى هذا أن العقل ليس شيئا جديدا فى الإنسان . إنه فى الطبيعة الحية كلها .

كل الفرق أن الإنسان لديه وسائل أكثر يتصرف بها ويحتال على بلوغ أهدافه ، الإنسان بحكم كونه مخلوقاً معقداً يملك يدين فيهما عشرة أصابع . ويملك لسانا ناطقا . ويملك عينين مبصرتين . وأذنين حادتين . وبشرة حساسة . وأنفا شماما . وكل هذه الأجهزة فى خدمة عقله .

الإنسان حيوان إقطاعي عنده عشرة آلاف فدان من المواهب وعمارات من الأعصاب والحواس المرهقة .

وهو لهذا ظلم نفسه وظلم غيره من المخلوقات حينما اعتبر نفسه الوحيد العاقل بينها .
وهذه خرافة إقطاعية غير صحيحة .

العقل باطن كامن فى كل الطبيعة الحية .

ومنذ أن انبثت الحياة فى الأميبا الحقيرة ذات الخلية الواحدة . وحركة هذه الأميبا فيها كل الحذر والتلصص والخبث والنية التى فى الإنسان : لا جديد فى الإنسان . وإنما هناك تطور فقط » .

أقرأت هذا الكلام العجيب ووعيت مراميه؟ إن أرضنا هذه لم يصنعها أحد خارج عنها ، فإن كل ذرة فيها تؤدى رسالتها وفق عقلها الخاص ورأيها المستقيم! .
فإذا خرجت بعرة من دبر بهيمة ، فبرأيها خرجت ، وبرغبتها وقعت حيث وقعت! .
وإذا تحركت جرثومة بمرض فبعقلها سادت وعشيتها أصابت من أصابت . وهذا الكلام ليس نكتة .

بل هذا هو التفكير العلمى كما استقر فى أذهان بعض الغافلين ، وهو الحل الموفق للغز الحياة ، كما يتخيل نفر من الحاقدين على الله الكارهين لاسمه المحاولين إطفاء نوره .
والجنون فنون .

الله. هو الحق المبين:

إن بعض الناس يتناول الحقائق العليا بعبارات ساخرة ، فلا حرج علينا إذا دافعنا قضايا الإيمان بأسلوب يمزج بين الجد والتهكم .
وليعدرننا القراء إذا رأونا نسوق الأمثلة والشواهد جامعة بين هذه الأطراف البعيدة .

لو قيل لك إن إسكافا فى إحدى حارات القاهرة شارك - بعلمه - فى إرسال صواريخ الفضاء! وبعث الأقمار المصنوعة! فماذا تقول؟ .
ستقول يقينا : هذه أضحوكة!

لماذا؟ لأن إطارة هذه الأقمار توفر عليها نفر من العلماء العمالقة أتقنوا من الدراسات الكونية ما يعجز أمثالهم عن مناله .

إن سبعين قنطاراً تنطلق فى الفضاء وتعود وفق خطة مرسومة متحدية قوانين الجاذبية وعواصف المجهول عمل هائل ، تراصت عقول كبيرة فى إتقان كل أنملة منه .

وليس ثمّ مجال للقاصرين والجاهلين لتحمل وجودهم بله مشاركتهم ، فما للأساكفة وهذا الأفق؟

ولو قيل لك : انظر هذا القصر الوسيق الأركان السامق البنيان!

إن أحد البغال التى تشد عربات النقل هو الذى شاده!!

إنك - بداهة - ستشك من أن القائل قد جن . لماذا؟ لأنك تعلم أن أفكاراً نيرة وأيدياً قادرة هى التى خططت الشكل ، ثم أقامت الأركان ، وصاغت الأبواب والنوافذ ، ونسجت شبكة الضوء والماء ، ووزعت عليه ، علواً وسفلاً ، أنواع الطلاء .

وأنتى للبغال كلها هذه القدرة؟

ولكن العقل الإنسانى الذى يستسخف هذه الفروض ، لا يزال يهوى عند بعض الناس حتى يحول هذه الفروض الغبية إلى حقائق محترمة .

إطارة قمر صغير تحتاج إلى ذكاء لامع ، وعلم واسع وتقدير دقيق ، وبصر عميق . أما إطارة الألوف المؤلفة من الكواكب الضخمة الرحبة فلا تحتاج إلى شىء من هذه الصفات!

إن إسكاف أفندى بغائه هو الذى يطيرها ويديرها!!

بناء بيت محدود يحتاج إلى هندسة وقدرة وفن وإبداع ، وهذه الصفات لا بد أن تكون طبعاً فى ذات لا فى فراغ .

أما بناء الكون الكبير الطويل العريض ، فلا يحتاج إلى شىء من هذه الصفات . إن بغل أفندى يستطيع بهيمته أن يضع الرسم ، ويبرز البناء .

إن الإيجاد والتدبير وظائف عالية ، لا يمكن أن تتم إلا إذا تصورنا إرادة عليا ، وقدرة عليا ، وحكمة عليا وعلماً أعلى . وإبداعاً أعلى .

وهذه الصفات لا تتصور إلا فى ذات المريد القادر الحكيم العليم بديع السموات والأرض ذى الجلال والإكرام .

هذه بدهاء لا تحتاج إلى كد الذهن ، وإجهد الفكر ، ومع ذلك فإن أحد الكتاب أخذ يتناول لغز الحياة ، لماذا؟ ليحل هذا اللغز على أساس أن إسكافا طيّر القمر الصناعى ، وأن بغلا بنى أهرام الجيزة . وأن شيئاً باطناً فى تراب الأرض هو الذى أنبت سنابل القمح ، ولف كل حبة فى غلالها ، ونسقىها صفوفا متراكبة ، وأودع بها النشا والزلزال والسكر . . . إلخ .

شئى باطن فى تراب الأرض لا عقل له ، ولا إحساس ، ولا مشيئة ، ولا تدبير هو الذى صنع هذا .

هكذا يريد منا أن نفهم وأن نصدق .

إنها غرائز فى الطين - ليس لها مصدر إلا الطين - جعلت هذا الطين ، ينبثق عن الحقائق الزاهرة والحقول العامرة !!

فما تلمح على صدور الأغصان من ثمار ، وما تشم رائحته من أزهار ، وما تقيم به حياتك من عناصر طيبة كمنت فى هذه الحبوب المحصودة والفواكه المجنية ، هذا كله ، من صنع «العلامة طين أفندى» قام من تلقاء نفسه ، فلا ألوهية هنالك ، ولا وجود أعلى . وطن أفندى هذا هو أخو إسكاف أفندى الذى شارك علماء الروس والأمريكان تطيير أقمارهم!!

لا إله والحياة مادة ، هكذا يريد أن يعلمنا الكاتب البائس الباحث عن حل للغز الحياة!

اسمعه يقول : «ما الحياة؟ وما سرها؟

من الذى علم الكتكوت أن يكسر البيضة عند أضعف أجزائها ويخرج . . . ؟» .

إنه طبعاً اهتدى إلى ذلك بعقله الخاص!

«من الذى علم الطيور الهجرة عبر البحار والصحارى إلى حيث تجد الغذاء الأوفر والجو الأحسن ، وإلى حيث تتلاقى وتتوالد؟ ومن الذى يسدد خطاها طول هذه الرحلة من ألوف الأميال فلا تضل ولا تتوه؟» .

إنها طبعاً عرفت ذلك بعبقريتها الملهمة!

«من الذى علم دودة القز أن تنسلخ من ثوبها مرة بعد أخرى ، ثم تنزوى فى ركن

لتبنى لنفسها شرنقة من حرير تنام فيها ليالى طويلة مثل أهل الكهف ، ثم تخرج منها فراشة بيضاء جميلة .

يقول الكاتب الألعى ! : هذا الانتقال المنظم الدقيق من غط فى الخلق إلى غط آخر . هذا التطور من دودة إلى حشرة ، الذى تتعاون فيه الألوف المؤلفة من الخلايا ، يحدث تلقائيا بلا معلم ؟ » .

أى ليس هناك ملهم من الخارج تولى هذا الأمر وأشرف عليه ، إذن كيف حدث؟ يقول : «إن العلم هو الفطرة المرشدة المغروسة فى المادة الحية بطريقة لا يعرفها أحد . . . » .

والطريقة التى لا يعرفها أحد هذه ، هى الحل الموفق المحترم للغز الحياة . !!

قل أى شئ فى قطع صلة الموجودات ببارئها الأعلى يكن الكلام علما تقديميا مسموعا . مهما كان الكلام سخيلاً سمجاً .

النطفة تحولت إلى إنسان سوى العضلات ، مكتمل الحواس ، ذكى العقل ، لا لأن موجداً أعلى تولى ذلك وأشرف عليه ، بل لأن النطفة من تلقاء نفسها مشت فى هذا الطريق ، وبلغت تمامها كما يتحول الشخص الفيلس إلى غنى أكثر بجده واجتهاده . !!

هذا هو منطق العلم ، ولا بأس أن نتمشى مع هذا المنطق فى مراحل خلق الإنسان لنستقر على حقيقة واضحة فيه .

يبدأ وجود الإنسان عقيب التقاء الحيوان المنوى بالبويضة السابحة فى رحم الأنثى والحيوان المنوى كائن عجيب فهو مع ضالته المتناهية يحتوى على خصائص الرجل المادية والمعنوية ، وعنه تكون وراثته المشابهة فى طول القامة وقصرها مثلاً ، فى سواد الشعر أو شقرته ، فى لون الجلد ، فى حدة المزاج والذكاء أو فى ضد ذلك . . . إلخ .

ونسأل : من صنع هذا الكائن العجيب؟ أهو الرجل؟ أنا وأنت خلقنا هذا الحيوان وأودعنا فيه أسرار السلالة البشرية والمواهب الشخصية؟

لا بداهة ، فما يذكر أحد منا أنه فعل شيئاً من هذا!

أم أن لقمة الخبز التى أفلتت من بين الأسنان أخذت تكافح فى سبيل الترقى

فتحولت من تلقاء نفسها إلى دم ، ثم إلى منى؟

إنه شيء مضحك أن تتصور هذه اللقمة من الخبز قد رسمت لنفسها خطة كاملة لإيجاد بشر ، أو للتحويل إلى بشر يمشى على ظهر الأرض .

إذن من الذى خلق هذا الحيوان وجعل فى كيانه الدقيق مشروع بناء إنسان؟
ليس إلا الله!!

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (الواقعة : ٥٨ ، ٥٩) .

إن هذا الخالق الكبير يحكم الأسباب ولا تحكمه الأسباب ، وهو مستطيع أن يخلق البشر بوسائط أخرى غير ما يعرف فى النشأة الأولى للإنسان الآن .
ولذلك يقول بعد الآيات السابقة :

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة : ٦٠ ، ٦١) .

ولنتابع النظر فى أطوار خلق الإنسان بعد النطفة المعلومة ، إنه يتدرج فى أعماق الرحم أخذاً طريقه إلى التمام . ترى من يشرف على تكوينه وتصويره ، الأب أم الأم؟ إن دور الأب انتهى فماذا تصنع الأم فى تطوير هذا الجنين؟

من الذى يشق الأجفان ليضع العين المبصرة ، ومن الذى يصنع الأذان ، ويضع فيها حاسة السمع ، ومن ومن؟؟؟... إلخ .

إن الجنين فى بطن الأم تحت أمعاء مشحونة بالطعام والفضلات ، ووسط أجهزة لا تعى إلا ما سخرت له من وظائف معينة فهل يراد منا أن نتصور الخالق للسمع والبصر والفؤاد هو الجهاز البولى أو الجهاز الدورى؟ .

إننا نتصور بغلا يبنى الأهرام ، ولا نتصور هذا الذى يفترضه الملحدون حين ينكرون الألوهية فى هذا المجال الناطق باسمها الدال على عظمتها ...

إن الخلقى يا أولى الألباب وظيفة لها مؤهلات ، إن إيجاد شيء من عدم أو من غير عدم يقتضى أوصافا معينة لا بد منها ، إن تجميع آلات الراديو ووصلها بالتيار لتنتطق عمل لا تطبيقه دابة من الدواب ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، إنما يستطيع هذا امرؤه عقل وخبرة .

والذين يتصورون العالم المنسق الرتيب قد كونه مادة لا روح بها ولا وعى ، قوم يريدون أن يشيعوا غفلتهم أو تغفيلهم بين الناس وهيهات . !!

قال لى أحد هؤلاء : أتتكر نظرية التطور؟

فقلت له : لنفرض جدلا أن نظرية التطور أضحت حقيقة علمية ثابتة ، وليست نظرية يمكن أن يعدل العلماء عنها إلى تفسير أصدق لأصل الأنواع فماذا تفيده تلك النظرية؟

هب الإنسان كان أولا «أميبا» ثم ارتقى حتى أصبح كما هو الآن ، أفعمنى ذلك أنه لا إله؟ كلا إن الزعم بأن هذا التطور يتم من تلقاء نفسه لأن بالآشياء خصائص تجعلها تتدرج من فوق إلى تحت أو تتدرج من تحت إلى فوق ، هكذا من غير مؤثر خارجي ، زعم فارغ من العلم والمنطق!!

إنك تتصور فى تراب الحقول الذى تأنقت فوقه الأزهار والأثمار عبقرية مصورة خلاقة ، وأنا لا أتصور فى تراب الحقول شيئا من هذا وأرجع وجود الأزهار والأثمار إلى كائن أعلى هو الجدير بأن يسمى الخالق المصور .

إنك تستقبل الوليد حين ينفث عنه الرحم ، زاعما أن فى جسم الأم المصانع التى نسجت اللحم ، وأنشأت العظم ، وأوجدت المخ قابلا للذكاء والتفكير . وأنا لا أرى فى جسم الأم إلا مجالا لعمل المشرف الأعلى .

الذى يقول : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون : ١٢ - ١٤) .

إنك تنظر إلى القصر المشيد فتقول : بناء ما فى البلاط من خصائص .

وما فى الأخشاب من طابع! وأنا أقول : لا . بل مهندس معه أدوات التفكير والتنفيذ . إن ما تسمونه علما هو الجهل بعينه ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ

إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان : ٤٤) .

ما الإسلام؟

إن الإيمان المجرد ينبت شعوراً بالخضوع لله . خضوعاً تمتزج فيه الرغبة والرغبة . وليس فى هذا عجب . فإن الذى يعرف عظيماً من البشر يحس نحوه بالإعزاز والانقياد . فكيف بمن عرف الله وفقه صفاته العظمى وأسماءه الحسنى؟

إن الخضوع المطلق يفعم فؤاده ، ويجعل مبدأ السمع والطاعة أساس صلته به . وأياً ما كان الأمر فإن الدين ليس معرفة التمرد وشق عصا الطاعة ، هو التسليم التام لله ، والإنفاذ الكامل لما حكم به .

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) .

وكلمة الإسلام فى مدلولها اللغوى ، وفى مصطلحها الشرعى تعنى هذا . إنها لا تعنى الخضوع الجزئى ، أو الخضوع المشروط ، أو الخضوع الكاره . إنها خضوع لله ، ينقل الإيمان المستكن فى القلب إلى عمل تصطبغ به الجوارح . ويترجم اليقين الخفى إلى طاعة بارزة فى الحياة الخاصة والعامة .

وهذا الذى نقول يظهر فى أركان الإسلام التى ذكرها الحديث المشهور ، كما يظهر فى سائر شرائعه المبينة فى الكتاب والسنة .

معنى الشهادتين

وأول شرائع الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .
وهذه الكلمة العظيمة تعنى شيئاً فوق الإخبار المعتاد ، إنك حين تذهب إلى
ساحة القضاء فتذكر ما تعرف في قضية معروضة لا تقصد مجرد الإخبار .
إنك بما تقول تحقق حقاً كاد الباطل يغلبه ، وتخذل باطلاً كاد يروج ، وينتصر ، إن
الإخبار المجرد قد يكون قصصاً مسلياً ، وقد يكون حكماً جاداً .
وشهادة التوحيد حين ترسلها في ساحة الحياة فأنت بهذه الشهادة لا تطلق خبراً
هو بعض ما يتداوله الناس من كلام أو يتناقلونه من حديث .
إنها شهادة تعنى إحقاق حق وإبطال باطل .
إنها شهادة تعنى أنك قررت المضي في الحياة وفق خطة تناوب الشركاء العداء
وتقر لله بالوحدة .
إنك بهذه الكلمة أبديت وجهة نظرك في قضايا كثيرة تشغل الناس ليلاً ونهاراً .
إن الناس في الواقع يخضعون لآلهة شتى . ويطوفون حول كعبة تحفها أصنام المال
والجاه والسلطة . وكم في الدنيا من اتخذ إليه هواه وأصله الله على علم . وذلك
عدا من ساء فهمهم في الألوهية . ومن أنكروها بته . . .
في هذه الظروف العصبية يكون معنى أشهد أن لا إله إلا الله . أنك في ساحة
الحياة تدفع بعملك باطلهم وتجاه بحقك ضلالهم . وتعلن أنك مستمسك بعرى
هذا الحق ، وأنت لا تخفيه في سريرتك بل تشهد به ليظهر بين الملأ ويعرف ويتقرر .
إن الشهادة ليست فقط دلالة إيمان . بل هي معالنة برأى . وبداية لسلوك ، إنها
شهادة تنتقل من ساحة القضاء إلى ساحة الحياة لتكون شارة مذهب معين .
وصبغة نفس عرفت الله . وقررت أن تسير باسمه في كل درب!
والشهادة بأن محمداً رسول الله لم تذكر في الحديث اكتفاء بالشطر الأول . فإن
الإيمان بالله يستلزم الإيمان بأنبيائه واحداً واحداً .

فمن آمن برجل منهم وكفر بالآخر فهو بهم جميعا كافر ، وهو بالله كذلك كافر ، لا فرق بين موسى وعيسى ومحمد وسائر المرسلين .

فالله عز وجل أبر بأبيائه من أن يدعم لعبث العابثين وتفريط المفرطين ، سيما وهم لم يعيشوا على ظهر الأرض لأنفسهم ، بل عاشوا لربهم يذكرون به ، ويدفعون الجماهير إليه ، فكيف يبعدهم الله عنه بعد ذلك؟ لقد قال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ (النساء : ١٥٠ ، ١٥١)

والشهادة بأن محمداً رسول الله شهادة لجميع المرسلين على اختلاف العصور بأنهم حق ، وأن اتباعهم واجب .

ذلك ؛ لأن محمداً جاء مصدقاً لجميع من سبقوه من النبيين ، ومجدداً لتعاليمهم ، ومنصفاً لهم من الأتباع الغالين والجاثرين ، ورافعاً لذكرهم في الآخرين كما ارتفع في الأولين .

ومعنى أشهد أن محمداً رسول الله : أتعهد بأن أتخذ من حياته الأسوة الحسنة وأن أستمسك بالسنة التي رسمها ، وأستظل باللواء الذي نصبه .

ولك أن تسأل : من أين هذا التعهد؟ والجواب :

أن سر العظمة في حياة محمد يرجع إلى أنه إنسان كامل ، بلغ ذروة الارتقاء البشري عن طريق العبودية الصحيحة لله .

فهو لم يزعم يوماً أن الله حل فيه ، أو أن بينه وبين الله نسباً يخلع عنه وصفاً من أوصاف البشرية المعتادة ، كلا ، إنه واحد من الناس تخييره العناية العليا ليبلغ عن الله ، وليكون رائداً يتقدم صفوف التائبين إلى ربهم .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف : ١١٠)

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ (هود : ١١٢)

كان رجلاً سوى المشاعر قوى العضلات لم تشن بدنه عاهة أو علة .

تصله هذه العافية بأقطار الحياة الصحيحة دون عقد نفسية .
وكان زوجاً وأباً وتاجراً وفارساً ، وكان يتعرض للغنى والفقر ، والنصر والهزيمة ،
والحزن والسرور ، والرضا والغضب .

ومع هذه البشرية التى يشركه فيها سائر الخلق فقد انتظم سره وعلنه فى خشوع
وجهاد وتفان فى ذات الله ، جعله يتحدث عن نفسه صادقا مصدوقا فيقول : «أنا
أتقاكم وأعلمكم بالله» .
من هنا تحيى الأسوة .

من بشر مثلنا أحرز الكمال الإنسانى على عنت الظروف وقوة البيئة يتعلم
الناس ويتعظون ، وفى هذا يقول الكتاب العزيز :

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ
مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ (الإسراء : ٩٣ - ٩٥) .

أجل ؛ لأن سكان الأرض بشر تعمل فى كيانهم غرائز البدن ورغائب النفس ،
ويتعرضون فى حياتهم لمشاعر الضيق والفرج ، والشدة والرخاء ، والكدر والراحة ،
والتجمع والشتات . . . إلخ ، ناسب أن يجيئهم نبي منهم يتعرض لمثل ما
يتعرضون ، ويواجه ما يعرض له بأحسن تصرف وأشرف سلوك .

من هنا تكون الأسوة ، من خطوات هذا الرسول الإنسانى فى مرضاة الله
والوقوف فى ساحته وابتغاء وجهه تكون السنة التى يجب أن تتبع «فمن رغب عن
سنتى فليس منى» .

وكلمة التوحيد تقتعد مكان القيادة فى حياة الرجل المسلم والمجتمع المسلم ،
وعليها المدار فى فنون الطاعات التى حفل بها الإسلام .

ولما كان الإسلام هو الخضوع التام لله فرما يظن لأول وهلة أن المسلم لا ينبغى أن
يرتكب مخالفة ، ولا أن يقع فى معصية . إذا العصيان ينافى الخضوع .

الخطيئة فى حياة البشر

وهذا المعنى يحتاج إلى إيضاح ينفى التناقض بين منطق الخضوع الواجب لله ، وما تنزلق إليه طباع الأناسى من أخطاء وخطايا . . .

هناك أغلاط تقع دون أن تتجه إليها الإرادة اتجاءاً بيناً ، بل تكاد تقع دون إرادة .
خذ مثلاً عمل الطباع فى جمع الحروف والكلمات ، إن الكتاب لا يتم طبعه إلا بعد أن تمر كل صفحة بعدة تجارب ، ترى الأخطاء فى التجربة الأولى كثيرة ، ثم تقل أو تنعدم فيما بعدها من تجارب .

إن العامل يود من أول مرة أن يكون جهده سليماً من كل عيب ، وهو بإرادته وبصره وأصابه يجمع الحروف والكلمات على أساس تحرى الصواب ، ومع ذلك يقع فى الخطأ برغمه ؛ لأن قصور قواه يغلبه .

خذ مثلاً عمل الخياط : إنك تذهب إليه بالقماش ليصنع لك بدلة ملائمة ، وهو يجتهد أن يفصل أجزاء الثوب على بدنك بحيث يصنع منه حلة وسيمة ، ومع ذلك فقد يقع من الطول والقصر والسعة والضيق ما يجعله يعيد التجربة على بدنك مرة حتى يصل إلى ما يبغي .

إن هذه الأخطاء أثر العجز البشرى فى بلوغ الكمال من أول سعى والخطأ هنا يتولد من تلقاء نفسه تقريباً ، لا أثر فيه لرغبة أو تعمد .

والواقع أن المسلم لا يطبق عصيان الله ، ولا يرضى به ، ولا يبقى عليه إن وقع فيه ؛ بل إن ما يعقب المعصية فى نفسه من غضاظة وندامة يجعل عروضاها له شبه مصيبة ، فهى تجيء غالباً ، غفلة عقل ، أو كلال عزم أو مباغطة شهوة وهو فى توقيره لله ، وحرصه على طاعته يرى ما حدث منه منكراً يجب استئصاله إنه كالفلاح الذى يزرع الأرض فىرى «الدنيبة» ظهرت فيه ، فهو يجتهد فى تنقية حقله قدر الاستطاعة من هذا الدخل الكريه .

ولو بقى المسلم طول حياته ينقى عمله من هذه الأخطاء التى تهاجمه ، أو من

هذه الخطايا التي يقع فيها ، ما خلعه ذلك من ربة الإسلام ، ولا حرمة من غفران الله . ولعل ذلك هو المقصود من الحديث القدسي .

«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ، ورجوتني ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، ولا أبالي .
يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»^(١) .

وبعض السفهاء يأتي لهذا الحديث وأشباهه فيظنه إذنا عاما بالعصيان .

وهذا الظن من انطماس البصائر ، وأهله أبعد الناس عن المغفرة .

إن المعصية شيء خطير ، واتجاه الإرادة إليها زلزال يصيب الإيمان ، أو ضباب يغطي معرفة المسلم لربه .

يصحب هذا العمى انفلات من قيد الخضوع ومن مبدأ السمع والطاعة .

من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٢) .

وهذا الانتقاء المؤقت للإيمان ، أو لأثره - وهو طاعة الله وتقواه له عواقبه المخوفة ، ترى أيعود كاملا أو يعود مثلوما؟ .

فإذا استمر العاصي المرعى فهل لهذا الإيمان المنفى من عودة؟ مع أنه مطارد باستدامة العصيان! .

ونحن - بطول التأمل واستقراء التجارب - لا نستطيع فك المعصية عن الحالات النفسية المصاحبة لها ، وعن الظروف الخارجية الواقعة فيها .

في هذه الأحوال والظروف فيصل التفرقة بين ألوان الخروج على الدين ، فهناك اللطم المرتجى له العفو ، وهناك الإهمال الذي يستحق اللوم ، وهناك التفريط أو الانحلال اللذان يستوجبان العقوبة .

وهناك أخيرا المروق الذي يحكم على صاحبه بالارتداد ، والتفصي عن ربة الإسلام .

(٢) البخاري .

(١) الترمذي .

فشرب الخمر مثلاً جريمة ، ولها حد تواضع المسلمون على إقامته .
وربما رأيت بعض واهنى العزيمة من المدمنين الذين ألفوا الخمر فى جاهليتهم لا
يحسنون اجتنابها فيقعون فيها على خزى! وكان الحد قد يما يقام على أحدهم
فيتحملة راضياً!!

مثل هذا المجرم لا نستطيع عده مرتداً عن الإسلام إنه مسلم مخطئ وحسب! .
ولكن هناك من يفتتح معصرة لتقطير الخمر ، أو حانة لبيعها ، وهو يعلن عن
بضائعه ؛ ويغرى بتناولها ؛ ويجتهد فى ترويجها هنا وهناك ؛ ويقيم حياته على
مكاسبه من هذا الاتجار الخبيث .

هذا الصنف لا يمكننا بأية حال من عده مسلماً ؛ لقد كفر بلا ريب ؛ وانبت
رباطه بالإسلام! .

لماذا؟ لأن السكير الأول رجل وهت إرادته فى الخير ؛ أما السكير الثانى فهو
رجل قوي إرادته فى الشر .

فالْبَوْنُ بينهما بعيد ؛ بعد الخضوع المضطرب عن التمرد العاتى .
ونية الخضوع لا تخرج صاحبها عن معنى الإسلام ، أما نية التمرد ؛ والإصرار
على رفض الطاعة فلا يمكن بته أن تسمى إسلاماً ، بل إن ذلك عادة يصحبه
استباحة الحرام . وجحد الواجب . وهما كفر باتفاق المسلمين .

وفى أمثال هؤلاء المصرين المتمردين تساق آيات التخليد فى العذاب التى
تهددت بعض العصاة :

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن : ٢٣) .

وهناك مثلاً آخر : إن القاضى قد يميل عن الحق لشفاعة بعض ذوى الجاه وقد
يميل عن الحق لهوى غلب عليه وجعله يحابى أحد الخصوم .

هذه معصية بلا ريب تستحق الويل والثبور ؛ وهى حكم بغير ما أنزل الله يعرض
صاحبه لأشد العذاب ؛ ولكن هل ذلك كفر بالله وارتداد عن الملة؟

أو بتعبير آخر هل يسوى هذا الأثم بصنف آخر من الناس يرى الحكم بما أنزل
الله بقية من مخلفات الماضى التى لا تستحق البقاء ، ويستبدل بها قانوناً آخر يبيع
ما حرم الله ويقترح عقوبات أفضل فى نظره مما شرعت السماء من حدود
وقصاص؟! ويدرس ذلك ويدعو إليه ويوسع دائرته جهد الطاقة!!

إن العاصي الأول شخص طاش به نقع عاجل ، أو غلبته شهوة جارفة فحادت به عن طريق الواجب الذى يعرفه ويعترف به .

أما الآخر فهو يدع أمر الله رغبة عنه واتهاما له ، ويرى أن يتقدم بين يدى الله ورسوله بأحسن مما أوحى الله وبلغ الرسول .

هذا إن كان فى نفسه إقرار بأن النبوة حق ؛ وأن الله قائم بين عباده بالقسط .

إن الفارق بعيد جدا بين معصية تتم فى الظلام ؛ ومعصية تقع فى وضوح النهار .

بين معصية يكون العقل فيها غافيا ، ومعصية تتم مع يقظة الفكر وإعمال الرأى .

بين معصية تمشى فى الأرض على استحياء ومعصية تتبجح كأنها فضيلة .

إن عزيمة تتعثر فى طريق الخير غير عزيمة استحكمت فى طريق الشر .

ويستحيل أن ينسب إلى الإسلام فرد أو مجتمع من ذلك النوع الفاجر بعصيانته ، السافر باعتداءه على حدود الله ، وإطراح فرائضه ، واستبقاء محارمه .

إن الدين - كما أوضحنا - إيمان بأن الله حق ، وإقرار بأن شرائعه واجبة النفاذ ، والسجود لها بالقلب والجوارح .

فمن استعلن بمسلك مضاد لما أمر الله به ونهى عنه ، واجتهد كى يرسى قواعد

الشر مشاقا لله ورسوله فهو فاسق كفور ، ومن البلاهة وصفه بالإيمان .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (السجدة : ١٨ - ٢٠) .

والضابط الذى يطرد حكمه فى كل شىء ، والذى لا نلتقى فى السير معه هو أنه حيث يرى أثر الخضوع لله ، والانقياد لأمره فالإسلام موجود . وإلا فلا إسلام .

أجل لا إسلام حيث تجحد الفرائض ، وتموت الشرائع ، ويسود الهوى ويضيع هدى السماء .

دائرة الخضوع لله

وقد شرع الله جملة فرائض تعد - مع شهادة التوحيد - أركان الإسلام .
والحكمة من إقامة هذه الأركان تدريب الناس على طاعة الله وإحسان الخضوع
له والبعد عن الرذائل التي زجر عنها .

ولهذه الأركان آثار نفسية واجتماعية بعيدة المدى لا مجال هنا لشرحها .
وإنما الذى نسارع بتوضيحه أن من أداها ولم يستفد منها الخضوع الواجب لله فى
كل شىء ، فكأنه ما أدى شيئا ، مهما استكثر من هذا الأداء .
ما قيمة صلاة أو صيام لا يعلمان الإنسان نظافة الضمير والجوارح؟

عن ثوبان - خادم رسول الله - عن النبى ﷺ أنه قال : «أعلمن أقواما من أمتى
يأتون يوم القيامة بأعمال - أمثال جبال تهامة - بيضاء ، فيجعلها الله هباء منثورا!! قال
ثوبان يارسول الله ، صفهم لنا ، حلَّهم لنا لا نكون منهم ونحن لا نعلم . قال : أما هم إخوانكم ،
ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كماتاً خذون ، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله
انتهكوها» (١) .

هؤلاء - كما ترى - يؤدون الأركان الظاهرة ، غير أنهم لا يستفيدون منها الخشوع
المطلوب ، ولا تخلق فيهم الضمير الصالحى المراقب لله فى السر والعلن ، ولا تكون
فى نفوسهم روح الخضوع المطلق تجاه كل ما نهى الله عنه ، وما أمر به .
لهذا لم تحسب لهم مع أنها تبلغ الجبال! .

وما نحب أن نرسل كلاما يغض ظاهره من شأن العبادات المفروضة من صلاة
وصيام ، فإن هذه العبادات حركة حقيقية فى صقل الإنسان وترويضه على الخضوع
لله فى سلوكه كله .

ولكننا نلفت الأنظار إلى الفروق الطبيعية بين الحركات الحقيقية والحركات التمثيلية!
إذا قلت : إنك بنيت دارا فى فضاء ما من الأرض ، فلكى تكون صادقا يجب أن

(١) ابن ماجه .

يرى الرءون هذه الدار رأى العين ، وإذا قلت إنك غسلت هذا الثوب من أوساخه فيجب لتكون صادقا أن ينشر هذا الثوب على الملاء ، فلا يبين به أثر قدر .
وأركان الإسلام عمل حقيقى لبناء النفوس على الخير ، وصياغتها على نحو مترفع يتنزه عن الدنيا ويتبعد عن الرذائل .

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (العنكبوت : ٤٥) .

خبر حق .

فإذا رأيت مصليا لا ينتهى عنها ، فالسبب لا يعود إلى ريبة فى الخبر الإلهى ، بل السبب أن الرجل يمثل حركات صلاة وليس مصليا حقيقيا .

وقول رسول الله ﷺ : «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١) خبر حق .

ومعناه أن الصيام يعفى على آثار الماضى السيئ ، ويمسح أكداره عن مرآة القلب فتعود مجلوة نقية ثم يستأنف الصائم بعد خلاصه من أدران ماضيه حياة تكاد تلحقه بالملاء الأعلى . . .

فإذا رأيت صائما معتكر النفس غائم الصفحة ، فاعلم أنه مثل فحسب يتشبه بالصوم فى ترك الأكل حيناً ، ليغرق فيه بعد .

إن العبادات التى تكون أركان الإسلام ، أو التى تصور جمهرة شرائعه رياضة جليلة الآثار فى تربية الأخلاق وتقوم الطباع .

وهذا بعض ما ينشأ عنها .

أما الأساس الأول لشرعها فهو أداء حق الله ، والقيام بوظيفة العبودية واعتراف البشر بأن الله الذى خلقهم ورزقهم يجب أن يعبد ويشكر .

إن أغلب الناس فى هذا العصر المادى يحسبون الحياة لا تعدو الخمسين أو الستين سنة التى يقضونها على ظهر هذه الأرض يقضونها وهم فى عماية من أمرهم لا يدرون من أين جاءوا ولا إلى أين يصيرون ، يقضونها وهم يصطرخون فى طلب القوت ورفع مستوى المعيشة ، ظانين أن رسالة البشرية محبوسة داخل هذه الحدود وحسب .

(١) البخارى .

والذين يعرفون الله لا ينظرون إلى الحياة هذه النظرة الصغيرة .

إنهم يرونها كنظرة حياة أخرى عنده وبينون سلوكهم فى هذه الحياة الأولى على تحرى رضاه ، وإقامة هداه .

وهم لذلك يعدون «العبادة» شيئاً يقصد لذاته ، ويوثقون صلتهم بالله لأن الله أول من ينبغى توثيق الصلة به ، إجلالاً لألوهيته ، وإقراراً بفضلِهِ ، وابتغاءً لثوابه ، واتقاءً لعقابه ...

إن شهادة التوحيد وهى الركن الأول فى الإسلام إسهام من البشر فى إعلان تنزيه الله ، هذا الإعلان الذى تتجارب به مواد الكون علواً وسفلاً ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء : ٤٤) .

واسم الله أحق اسم بالهتاف والتقديس والدعاء والتمجيد .

فإذا زمت الشفاه دون النطق بهذه الشهادة الواجبة ، وإذا صرف الناس عن الاعتراف بهذه العظمة السائدة ، فأين يذهبون؟ وكيف يعيشون؟

﴿أَغْفِرْ دِينَ اللَّهِ يَغْفُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران : ٨٣) .

إننا نطلب من الناس أن يهتموا بهذه الوظيفة التى خلقوا لها ، وظيفة عبادة الله واستشعار نعمائه والاستعداد للقائه ، والفرع إلى طوله ، ومد اليد إلى عطائه .

ولن يبارك للعالم فى يومه وغده إلا إذا استقام على هذا المنهج . .

والله جل وعز لن يمتع الناس فضله ما بقيت أكفهم مدودة إليه ، فإن أبوا إلا النسيان فيصبرعهم القلق والعنت ولن يضروه شيئاً ، إنهم أحوج ما يكونون إليه وهو غنى عنهم أبداً .

عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : أنه قال : يقول الله عز وجل : «يا بنى آدم كلكم مذنّب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم .

وكلكم فقير إلا من أغنيت فاسألونى أعطكم .

وكلكم ضال إلا من هديت فاسألونى الهدى أهدكم .

ومن استغفرونى - وهو يعلم أنى ذو قدرة على أن أغفر له - غفرت له ولا أبالى .

ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب
أشقى رجل واحد منكم ما نقص ذلك من سلطاني مثل جناح بعوضة .
ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى
قلب رجل واحد منكم ما زادوا في سلطاني مثل جناح بعوضة .
ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتى تنتهي مسألة
كل واحد منهم فأعطيهم ما سألوني ما نقص ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو
غمسها أحدكم في البحر .
وذلك أني جواد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذاي كلام .
إنما أمرى لشيء إذا أردته أن أقول له : كن فيكون»^(١) .

وأركان الإسلام لم تشرع لشخص واحد يقيمها إذا شاء ويهملها إذا شاء .
بل شرعت لأمة من الناس تحيا عليها ، وتتواصى بنصرتها ، وتستبطن الولاء
لها ، وتغرس في أرجاء الجماعة شاراتها وشعائرها ، ويتوارث الأخلاف ذلك كله
عن الأسلاف .
خذ مثلا الصلاة - وهي في لبابها مناجاة عبد لربه - إن الإسلام لم يشرعها
عملا فرديا ، بل نظاما جماعيا تتراص الصفوف له وتشرف الدولة عليه!!
نعم فالتعبير المختار في الكتاب والسنة لأداء الصلاة هو إقامة الصلاة .
ولم يقل : صلوا ، أو ائتوا الصلاة ، أو افعلوا الصلاة ، بل أقيموا الصلاة! وفي
تفسير قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴿
(البقرة : ٢ ، ٣)
قال العلماء : يؤدونها في جماعة! لماذا؟ لقوله ﷺ : «سوا صفوفكم فإن تسوية
الصفوف من إقامة الصلاة»^(٢) .

والواقع أن التجمع للصلاة جزء من إقامتها ، والإقامة الكاملة تكون بتنظيم
الإقبال عليها ، وإشعار البيئة كلها بالمبادرة إليها ، والمحافظة على أوقاتها ، واحترام
ركوعها وسجودها وقراءاتها وتساييحها واستحياء معانيها بعد انقضاءها .

(٢) البخارى .

(١) مسلم .

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣)

إن الدين ينشد أن يكون الخضوع لله ظاهرة اجتماعية عامة لا مسلكا فرديا خاصا .

وإقامة الصلاة من أبرز الأعمال لدعم هذه الغاية ودوام تحققها ، وفى سبيل ذلك أعدت المساجد لاستقبال النساء والأولاد والرجال كى ينتظموا صفوفًا وراء إمام يتلو القرآن ويكبر الرحمن .

وقبل كل صلاة يشق صوت المؤذن حجاب الصمت السائد ، أو يعلو صخب الحياة المعتادة مهيبا بالناس أن يدعوا ما يباشرون من أعمال ويستعدوا للمثول بين يدى الله .

إن هذا الأذان العالى المتكرر المتصل مع اختلاف الليل والنهار ، شعار أى شعار لكل مجتمع مسلم .

وعند اندلاع فتنة الردّة أيام الخليفة الأول ، كانت الوصاة للمجاهدين أن يتسمعوا الأذان فى أوقات الصلاة ، فإذا حملت إليهم الرياح أصدااء التكبير عرفوا أنهم بإزاء جماعة مؤمنة ، وإذا استمر الصمت ، ولم يرتفع النداء بذكر الله ، عرفوا أنهم أمام قوم مرتدين ، فاستعدوا للقتال . . .

وانى لأعجب أشد العجب لأقوام يضيقون اليوم بإذاعة أذان الفجر من مكبرات الصوت .

لقد جاءنى - وأنا مدير للمساجد - من يعلنون تأذيتهم لذلك ، محتجين بإزعاج المرضى أو التعكير على الهاجعين ، لا أغمض اللهم لهم جفنا .

وترددت شكايات هؤلاء على ألسنة صحافيين ما يعرف أحدهم الفرق بين طهارة وجنابة ، وصدرت الأوامر ألا يذاع من مكبرات الصوت أذان الفجر كى تبقى القاهرة نائمة لا يعكر صفوها ذكر الله!!

إن هذا بلا ريب أثر الجاهلية التى حملها الغرب إلينا ، ولقن ألوفًا مؤلفة من الناس تعاليمها . . .

والإسلام شىء غير هذا ، إنه يضيف على أرجاء أمته روح الخضوع لله ويجعل

من رسالتها الإنسانية الكبرى - إذا مكنت في الأرض - أن تشرب الجماهير عاطفة الحب للمسجد ولف النداء المنبعث منه .

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج : ٤١) .

أى إن من عمل الحكومة الإسلامية أن تحافظ على الأمن مثلاً برجال الشرطة ، وأن تحافظ على الإيمان بإقامة الصلاة ، وأن ترفع المستوى الاقتصادي بشتى المشروعات والجهود ، وأن ترفع المستوى الروحي مع ذلك ، وقبله ، وبعده ، يختلف وسائل الإعلام التى تملكها .

ولا يحسبن غافل أن الإسلام يتوسل بالحكم لإكراه مخالفه على الدخول فيه وإقامة شعائره ، كلا ، فليس فى ديننا إكراه .

لقد قال العلماء : إن الزوج المسلم يرسل زوجته إلى الكنيسة يوم الأحد إذا كانت نصرانية ، فلها دينها وله دينه !!

إنما المراد أن تقوم الدولة فى الإسلام بواجبها فى رعاية حقوق الله ، كما فصلها الكتاب والسنة بوصفها مثلة لجمهور المسلمين ، وحارسة على مثلهم الأعلى .

إن شرائع الإسلام كثيرة ، والأركان الخمسة المذكورة هنا هى بعض الإسلام لا كله . والمهم أن الإسلام خضوع تام لكل صغيرة وكبيرة جاء بها الوحي .

ولن يتم إسلام المرء إلا إذا قال من أعماق قلبه بإزاء كل ما أوصى الله به ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

ما الإحسان؟

عند صدق الإيمان وقام الإسلام يجيء الإحسان نتيجة لازمة لهما قال تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠)

لقد علمت أن الإيمان حسن معرفة لله وثقة نامية فيه ، وأن الإسلام استجابة مطلقة لتعاليمه ، وتحرق دقيق لرضاه ، فإذا تجمعت هذه العناصر ، وجرت فيها مشاعر اليقين ، وأبغيت فيها صوالح الأعمال ، فإن المرء يكون لا محالة محسناً . . .
والحديث الذى بين أيدينا عرّف الإحسان . . . أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ورؤية وجه الله فى العمل هى الباعث على إجادته والحادى على إتقانه ، وهى ليست تخيلاً لقوة موهومة ، بل هى شعور بالوجود القائم ، وإدراك لحقه .
فإذا لم يبلغ المرء هذه المرتبة من الحس فلن ينزل عن المرتبة الأخرى ، وهى الشعور بإشراف الله ورقابته عليه وعلى كل شىء حوله .
ونريد أن نقف عند هذه الكلمة «أن تعبد الله . . .» .
إن العبادة تشمل نوعين من الأعمال :

الأول : الفروض العينية التى لا يخلو منها مكلف . وهى فروض تنتظم الناس فرداً فرداً ، ويعتبر كل أحد مسئولاً برأسه عن أداؤها .

الآخر : الفروض التى يسأل المجتمع بجمليته عنها ، ويكلف بتوفيرها فى نطاقه العام ، ويعد أفرادها قاطبة مقصرين ملومين إذا خلا المجتمع منها ، وهذا ما يسمى فى اصطلاح الفقهاء بالفروض الكفائية .

والفروض العينية تتصل بالخصائص المادية والأدبية التى يتساوى البشر فى أصلها فما من إنسان على ظهر الأرض يمكن أن تسقط عنه الصلاة أو يمكن أن يباح له الزنى .

إن هذه الفروض تستهدف تزكية كل نفس ، فما تصلح أى نفس إلا بها ومن هنا كان وجوبها عينيا .

أما الفروض الكفائية فهي تتصل ابتداء بالملكات والمواهب التي يتفاوت الأفراد فيها ، وتختلف ميولهم إليها اختلافاً بيناً ، ومع ذلك فإن المجتمع يقوم على أداء كل فرد لما يحسن منها . . .

لو أن الناس كلهم فلاحون فمن يتاجر؟ ولو كانوا جميعاً صنّاعاً فمن يزرع؟ إن إيجاب عمل بعينه على فرد بعينه شيء متعذر ، وإنما تفرق الأعمال عليهم وفق رغباتهم ويرشحهم استعدادهم له .

وهذا التوزيع يقوم المجتمع به تلقائياً ، لضمان مصالحه كلها ، فإذا وقع خلل فى ذلك كان مسئولاً عن تلافيه .

وربما سألت سائل . وما علاقة هذه الأعمال العادية بالدين؟

والجواب أنها من صميم العبادات ، وأنها حقاً فروض كفايات ، وأن الهندسة ، والطب والفلاحة ، والصناعة ، ومختلف الحرف وأسباب العمران من أركان الإسلام ، وأنها تدخل دخولاً محتوماً فى دائرة الإحسان التي تناولها الحديث الشريف بهذه العبارة الموجزة : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وذلك لأن الإنسان - وهو محور النشاط الدينى وموضع التكليف السماوية - لا تستقر له حياة ، ولا يستقيم له وجود إلا إذا كفلت له معاشه وتعاونت ظروف البيئة على ضمانها .

أى إنه يوجد ويستقر أولاً ثم تلاحقه الواجبات بعد ذلك .

وهذا الوجود منوط بالكدح سحابة النهار والاستعداد له - بالراحة - أثناء الليل قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ (يونس : ٦٧)

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ۚ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ (النبا : ١٠ ، ١١)

إن تعاقب الليل والنهار مجال النشاط العمرانى الذى تقوم به الحياة الدنيا ، وهو كذلك مجال النشاط الدينى الذى يعرف به الله ، وتكفل به الحياة الأخرى ، قال

تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ (الفرقان : ٦٢)

فلا بد للإنسان من أن يعمل عملا ما ، عملا ترشحه له ملكاته وخصائصه ويلزمه المجتمع الذى يعيش فيه بأن يقوم به .

وفى شبكة الأعمال المنشورة على هذا وذاك ، يسرى تيار الحياة العامة قويا ، ويتوزع على الأفراد ما يصون معاشهم ، ولن يستطيع أحدهم صلاة وصياما إلا إذا تحقق هذا المعاش الحتم ، ففروض العين لا توجد إلا بعد أن تتحقق فروض الكفاية!!

وربما استطاعت أمة من الأمم أن تحيا على نحو بدائى ييسر الكفاف لبنيتها ويجعل ما يقيم أودهم شيئا ضئيلا لا يتطلب إلا أدنى الجهد ، وبذلك يكون كفاحهم العمرانى ضيق الدائرة ، ينصرفون بعده إلى الفروض العينية من صلاة وصيام .
وإذا كان ذلك عسير التصور فى حياة الجماعات فهو سهل التصوير فى حياة الأفراد .

الإحسان فريضة مكتوبة على كل شيء

وهذا كلام يحتاج إلى فضل بيان ، نعم ، يقدر أحد الناس على تناول أقراص من الخبز ، وارتداء ألبسة من الخيش ، والانزواء بعد ذلك فى مكان خرب أو عامر يعبد الله كما يرى .

والبيئة التى يوجد فيها هذا الصنف من الناس ربما لا تتطلب أكثر من رضى للطحن ، ومغزل للنسيج ، وعدد من الأشغال التافهة هى التى تمثل «فروض الكفاية» فى مجتمع ساذج .

لكن الإسلام لا يصلح فى هذه البيئة ، ولا تعاون أدواتها على السير ، ولا على مجرد البقاء .

لو كان الإسلام رهبانية صوامع ربما انزوى فى جانب منها واكتفى بأى لون من العيش ، ولكنه دين يبغي الاستيلاء على الحياة ، وإقامة عوجها ومحاربة طواغيتها . وعدة هذا الجهاد تتطلب أمدادا موصولة من النشاط والخبرة والتضلع فى علوم الحياة والتمكن من أشتات الحرف .

أى إن المجتمع الإسلامى لا بد أن تزدهر فيه جميع الفنون والصناعات التى تشيع بين أجيال البشر فى أرجاء الأرض كافة .

وينبغى أن تبلغ براعة المسلمين فى هذه الميادين حد التفوق . فإذا قورن بهم غيرهم فى النواحي المدنية والعسكرية كانوا أرجح كفة وأهدى سبيلا . . . وإتقان هذه الأمور فى طليعة درجة الإحسان التى شرحها الحديث . . .

تصور مثلا أن المسلمين متخلفون فى صناعة الدواء ، وأنهم فى هذا عالة على غيرهم من الأمم الشيوعية والصليبية! أظنهم بهذا التخلف يسدون إلى دينهم أو إلى أنفسهم جميلا؟

أم أنهم بهذا التخلف يهزمون مبادئهم ومثلهم العليا فى أول معركة مع عدوهم؟ تصور أنهم متخلفون فى فن الطباعة ، أتراهم يستطيعون السيطرة على وسائل النشر وإبراز الحقائق وإغراء ألوف القراء بمطاعتها والإقبال عليها؟

إن مهنة صيدلى ، أو مهنة طباع ، فرائض على المجتمع الإسلامى كالصلاة والصيام سواء بسواء ، غاية ما هناك من فرق أن الصلاة والصيام لا يتخلف عن أدائها أحد ، أما فروض الكفاية فيختار لها من يصلح لها .

ومن لم يصلح لحرفة معينة صلح لغيرها ، وكلف بالقيام بها .

وعندما يقع الاختيار على واحد بعينه للقيام بفريضة اجتماعية أصبح مسئولا عنها لفوره مسئوليته عن الركوع والسجود ، وأصبح إحسانه لمهنته - أى مهنة - كإحسانه للصلاة .

إن عبادة الله فى الحقل كعبادته فى المحراب ، وعبادته فى المصنع كعبادته بالسعى والطواف .

وتشيع المرء من الطعام ليقوى على الجهاد ، كتقلله من الطعام فى عبادة الصيام ، وصور الطاعات شتى ، ومكان الإحسان فيها لا يتناهى .

إن إجادة الأعمال كلها غاية من وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض! ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ (الملك : ١ ، ٢) .

ولما كان الإنسان خليفة لله فى أرضه ، وكان تصرفه فى عناصرها أثرا من نفخة الروح الأعلى فيه ، وكانت مرتبة الإحسان المنشودة له بعض ما يربطه بنسبه السماوى العريق ، نسبة لله ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه : ٥٠) .
ومن هنا استحب الله له أن يتقن كل ما يصدر عنه ، وألا يخرج منه بين يديه معيبا أو شائنا .

فلو ذبح حيوانا ليأكله فليكن ذلك بأدب ولطف .

رأى عمر بن الخطاب رجلا يقود شاة من رجلها ليذبحها فقال له : «ويحك ، قدها إلى الموت قودا جميلا» (١) .

(١) رواه عبد الرازق .

وعن المسيب بن دار قال : رأيت عمر بن الخطاب ضرب جمالا وقال : لم تحمل على يعيرك ما لا يطيق؟

رواه ابن سعد فى الطبقات .

وعن عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب أن رجلا حد شفرة وأخذ شاة ليذبحها فضربه عمر بالدرة وقال :

أتعذب الروح؟ ألا فعلت هذا قبل أن تأخذها^(١)؟

وعن وهب بن كيسان أن ابن عمر رأى راعى غنم فى مكان قبيح ، وقد رأى ابن عمر مكانا أمثل منه ، فقال ابن عمر : ويحك يا راعى حولها فإننى سمعت رسول الله يقول : «كل راع مستؤل عن رعيته»^(٢) .

ولو أنفذ القصاص فى قاتل فليس القصد إزهاق روحه بأى وسيلة - وإن كان مجرما - بل يجب إقامة أمر الله بنزاهة وترفع .

قال رسول الله ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»^(٣) .

وقال : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»^(٤) .

والإتقان لا يتأتى بالادعاء والجهالة ، فإن لكل عمل أرضى أو سماوى قواعد يصح بها ، وتدرك بالتعلم والمران .

(١) البيهقى .

(٢) أحمد .

(٣) البخارى .

(٤) مسلم .

قوانين الإحسان وأخطاره

ولن يبلغ المرء درجة الإحسان حتى يستوعب هذه القواعد فقها وأداء وحتى يرقى من طور السلامة إلى طور الإجابة والتبريز للكلام قواعد نحوية وصرفية لا يقبل إلا مع توفرها فيه .

والكلام يكون صحيحا عندما يتفق مع هذه القواعد ، ولكن لا يوصف بأنه بيان حسن إلا إذا كان عليه من رواء البلاغة طابع جميل .

للصلاة سنن وأركان ينبغى أن يستجمعها المصلى ، فإذا تمت كانت صلاته صحيحة ، ولكنها لا تبلغ درجة الإحسان إلا إذا تألق فى حركاتها وسكناتها روح الخشوع ، واطمئنان البصيرة إلى الله ، وخلوص القلب فى حضرته .

قيادة السيارات لها تعاليم وشروط ، والقدرة على القيادة تشيع بين خلق كثير ، ولكن البراعة التى تدفع صاحبها إلى الأمام فى ميادين السباق لا تتاح إلا لغير قليل .

إن الإحسان ليس علما عاديا ولا عملا عاديا ، إنما هو الشأو البعيد ، الذى تبلغ الأشياء فيه تمامها ، وتزهى فيه بجودتها ونقاها .

والمسلم مخاطب بنشيدان هذه المنزلة فى كل ما يمس من عمل .

العادات ، والعبادات فى ذوقه وفقهه سواء ، إذ العادات بمجرد اقترانها بنية الخير تتحول إلى عبادات .

ولا يفرق بين الأمرين إلا أن لهذه صورا انفراد الشارح برسمها ، أما تلك فهى متروكة لعلم الناس وتحريتهم على مر العصور .

حدد الشارح أعداد الصلوات وهيئاتها ، ولم يحدد طرق الزراعة وأنواع المزروعات ، وجعل هذه فرض عين وتلك فرض كفاية .

ولكن هذا الاختلاف فى الوصف والتحديد لا أثر له فى درجة الإحسان المفروضة على كل شىء .

وغاية ما يستفاد منه أن الشارع فتح باب الابتداع والانطلاق في شئون الدنيا وأتاح للبشر أن يتصرفوا فيه كيف شاءوا .
أما شئون العبادات فهي مجمدة على صورها الماثورة لا مجال فيها لتحوير أو تطوير . وذلك خير .

ومجموعة الأعمال التي يتحرك بها جهاز الأمة في كل مجال ، تختار لها المواهب الصالحة ويعد لها الأكفاء من كل بيئة ، وذلك لضمان الإحسان المكتوب على كل شيء . ويرى الإمام الشاطبي أن ذلك يتطلب مرحلتين : التعليم العام ، ثم الإعداد الخاص .

قال (١) : « . . وذلك أن الله عز وجل خلق الخلق غير عالين بوجوه مصالحهم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ! ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَمَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (النحل : ٧٨) .

ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدرج والتربية ، تارة بالإلهام كما يلهم الطفل التقام الثدي ومصه ، وتارة بالعلم ، فطلب من الناس أن يتعلموا جميع ما تستجلب به المصالح ، وكافة ما تدرأ به المفسد ، إنهاضاً لما جبل فيهم من غرائز فطرية ومطالب إلهامية .

لأن ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح - الكافلة لحياتهم - سواء كانت من قبيل الأفعال ، أو الأقوال ، أو العلوم ، أو الاعتقادات ، أو الآداب الشرعية والعادية . وفي أثناء العناية بالأجيال الناشئة ، وتنمية مواهبها الفطرية يقوى في كل واحد من الخلق ما امتاز به ، ويبرز فيه على أقرانه الذين لم تهيئهم الأقدار على غرار ، فلا يأتي زمان التعقل حتى ينضج فيه ما اختص به من ملكات ، فهذا يطلب العلوم ، وهذا يعشق الآداب ، وهذا يتجه لبعض المهن ، وهذا يهوى الرياضة والفروسية ، وهذا يحب الكفاح والجلاد ، وهذا ينشد التقدم والرياسة . . إلخ .

وإذا كان كل واحد قد غرزت فيه القدرة على التصرف العام ، والفهم لقدر مشترك من شتى المعارف إلا أن العادة جرت بغلبة بعض الميول الأدبية والمادية

(١) لم نستطع النقل الحرفي لما كتبه الشاطبي ، وذلك لغلبة التعبيرات العلمية والاصطلاحات الفنية على الأسلوب ، ويمكن الرجوع للموافقات ، جزء أول ، ص ١٧٩ .

عليه ، فتكون التربية الصحيحة تتبع هذه الميول بالإثماء والرعاية ، ثم توزيع الأعمال على المكلفين بما يوائم طبائعهم ، وعندئذ ينهض كل مكلف بأداء ما هو راغب فيه محسن له» .

وبعد أن شرح الشاطبي النظام الدراسي الذى يقترحه للطلاب وفق خصائصهم النفسية قال : «وهكذا يكون الترتيب مع من ظهرت عليه صفات الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور فإنه يمال بهذا الصنف إلى ما يرغب ، ويعلم آدابه المشتركة ، ثم يختار له الأولى فالأولى من صنائع التدبير كالعرفاة أو النقابة أو الجندية أو الهداية أو الإمامة أو غير ذلك مما يليق به ، وما ظفرت له فيه نجابة ونهضة .

وبذلك يتربى لكل عمل - هو فرض كفاية - قوم يؤدونه .

وطريق المعرفة الطويل يبدأ بمرحلة مشتركة - حيث يقف السائر ، ويعجز عن المسير - فقد وقف عند مرتبة من الثقافة تحتاج إليها الأمة فى الجملة ، وإن كانت به قوة ، ومضى فى السير حتى وصل إلى أقصى الغايات فإنه سيحز من الكفاية ما يرشحه لأداء فروض كفاية أخرى رفيعة القدر فى شئون الدين والدنيا .

قال الشاطبي - ونلتزم هنا النص الحرفى - : فأنت ترى أن الترقى فى طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد ، ولا هو على الكافة بإطلاق ، أو على البعض بإطلاق ، ولا هو مطلوب من حيث المقاصد دون الوسائل أو العكس ، بل لا يصح أن ينظر فيه بنظر واحد . . . حتى يفصل بنحو من التفصيل ، ويوزع فى أهل الإسلام فى مثل هذا التوزيع ، وإلا لم ينضبط القول فيه بوجه من الوجوه ، والله أعلم وأحكم .

وقريب من كلام الشاطبي فى توزيع الأعمال على من يحسنونها وفق استعدادهم النفسى والعقلى ما قاله ابن القيم فى تغاير التكليف والواجبات بالنسبة إلى ميول الأشخاص ومواهبهم .

قال : «فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شىء منه ، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة .

والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته : وقوفه فى الصف ساعة ، وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع .

والعالم الذى قد عرف السنة ، والحلال والحرام ، وطرق الخير والشر : مخالطته

للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح .

وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده ، جلوسه ساعة للنظر فى المظالم ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، وإقامة الحدود ، ونصر المحق ، وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره .

ومن غلبت عليه شهوة النساء ، فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته .
وتأمل تولية النبى ﷺ لعمر بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهما من أمرائه وعماله ، وترك تولية أبى ذر ، بل قال له : إني أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم .

وأمره وغيره بالصيام ، وقال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له .
وأمر آخر بأن لا يغضب .

وأمر ثالثا بأن لا يزال لسانه رطبا من ذكر الله .

ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد همت له ، فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل :

ما زال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به ، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه .

فالشح المطاع مثلا من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها .

وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع فى العلم والذكر والزهد .

وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده .

ولو قيل : أيهما أفضل ، الخبز أو الماء ؟ لكان الجواب : أن هذا فى موضعه أفضل ، وهذا فى موضعه أفضل .

كذلك فنون العبادات . . . »

الإحسان بين التأمل الذاتي والصالح الاجتماعي

جمهرة الناس تغلبهم طبيعة العيش ، وضرورات النفس والأولاد ، وظواهر الحياة الدنيا ، فتراهم منصرفين بأفكارهم ومشاعرهم إلى تأمين حاضريهم والاحتباس في نطاقه الضيق .

ولو أنك تسمعت الضجة التي تسود أرجاء العالم ، وحاولت استبانة معناها ما وجدت إلا بغام الغرائز المتهاجة تريد إثبات نفسها وتحقيق رغباتها .

أما منطق الإيمان خلال هذا الضجيج العالي فهو همس لا يكاد يبين .

إن كان ذلك بين الأمم الكافرة بالله - وهى اليوم ألوف مؤلفة - فالأمر ظاهر ، كيف تذكر من تجهل؟ أو من تجحد؟

وإن كان بين جماهير المؤمنين ، فإن معرفتهم لله كامنة فى طواياهم ، قد تحركهم إلى رحبات المعابد حيناً ، وقد تحجزهم عن بعض المحارم حيناً ، ولكن هذه المعرفة قلما تبقى وضاحة مع الركض المجهد فى ساحة الحياة وراء مآرب أخرى . . .

من أجل ذلك حث الله عباده المؤمنين به أن يقاوموا هذا الذهول السائد ، وأن يتخلصوا من هذه الغيبوبة العامة ، وأن يذكروه برغم هذه المنسيات ، وأن يحاولوا الاستضاءة بوجهه الكريم خلال غواشى الدنيا وكرباتها .

أجل ، يجب أن ينقذوا أنفسهم من الغرق فى هذه اللجج المتتابعة ، وليس من طريق إلا الإكثار من ذكر الله ، والتشبث بأسمائه الحسنى ، وشدة التعلق به فى كل حين وفى كل حال .

وهذا سر الوصايا المتكررة بإدمان الذكر وإطالته .

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف : ٢٠٥) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

(الأحزاب: ٤١، ٤٢)

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣) .

والذكر ليس افتعالا نفسيا لشيء بعيد عن الإنسان ، أو تخيلا لوهم مقطوع الصلة بالحياة الخارجية .

كلا . إن الله لا يغيب عن الناس لحظة ، وهو معهم حيثما كانوا .

ومن ذلك شأنه ، فمن الحق أن يحس وجوده ، وأن يدرك شهوده ، وأن يتصرف الناس - ما شاءوا - لكن مع الاستيقان بأنهم في حضرته ، ما يتفكون عنه أبدا ، وما

يتركهم لحظة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف: ٧) .

وذكر الله من أشرف العبادات وأنفس ما يجرى على اللسان من كلمات ، وأذكى ما ير بالخاطر من صور ، وما يثبت في القلوب من معان .

وهو مفتاح الصلة المباشرة بالله الكبير المتعال ، ما إن يشرق معناه في نفسه وتتحرك به شفتاه حتى يذكره الله ببره ولطفه ، ويصحبه بتأييده وعونه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول : أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه» (١) .

وفى الآية ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ - قال : «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لا تبغيه حوبا فى نفسها وماله» (٢) .

وقد تنافس الصالحون فى ذكر الله ، وربطوا أفئدتهم وأذهانهم به ، لم يتوهوا عنه فى زحام الحياة ، ولم يفتتهم عن ذكره نعمة ، أو تشغلهم محنة .

وقد رأوه طريقا سريعة التوصيل إلى مقام الإحسان ، والأنس بمشاهدة الله عما تزخر به الحياة من فتون ومجون . وسعى وعبث ، وعزلة واختلاط ، وقصور وانطلاق!!

ونحن نريد أن نقف هنا وقفة قصيرة ، لنكشف شبهة خدع بها الكثيرون فإن

(٢) الطبرانى .

(١) ابن ماجه .

إلف الذكر والاستئناس بمعانيه الرقاق ، والاعتزاز بما يتركه في النفس من صفاء ووداعة ، كل ذلك جعل لفيفا من الصالحين يحسبه الغاية المنشودة لا الوسيلة الباعثة ، ونشأ عن ذلك أنهم استغنوا به عن غيره ، وظنوا مقام الإحسان وليد حالاته وإشراقاته .

ولعل مما روج لهذه الخدعة ما روى عن أبي الدرداء^(١) قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق . وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قال : بلى ، قال : ذكر الله ...»

قال معاذ بن جبل : «ما شيء أنجيء من عذاب الله من ذكر الله .» . ونحن لا نسارع إلى تكذيب حديث ما لأن ظاهره - لأول وهلة - يخالف المعروف من الدين .

والأمر يتطلب شيئا من الفقه والتدبر ... من الذي قال : إن المجاهدين في سبيل الله طائفة أخرى تقابل الذاكرين لله ، وتوضع في كفة مغايرة يقال : هذه أرجح من تلك؟ إن الجهاد في سبيل الله أرفع درجات الذكر ، والمجاهد في سبيل الله رجل يعرف ربه ، ويريد أن يغرس هذه المعرفة في الحياة ، وأن يرويهما بدمه حتى تزدهر وتنمو . المجاهد في سبيل الله رجل يذكر الآخرين بالله بعد أن امتلأ هو بهذا الذكر من أخصم قدمه إلى ذؤابة رأسه .

لقد ذكر ربه عند التقاء الجمعين استجابة لقول الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال : ٤٥)

وصاحبه هذا الذكر في أدوار المعارك كلها خصوصا عند اشتداد البأس وتكالب العدو ، وعند ابتعاد النصر وإثخان الجراحات واستحارار القتل في إخوانه .

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٧ ، ١٤٨) .

(١) مسند أحمد بن حنبل .

نعم ، يحب المحسنين ، وهذا الجهاد الصبور المحتسب هو الإحسان ، وهو أحق شىء يوصف بالعبارة الماثورة فى الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

ثم من قال : إن الإنفاق فى سبيل الله ليس ذكرا لله ! إنه ذكر عملى له مكانته .

وهو أشرف من ذكر اللسان ولو واطأه صحو القلب .

وذلك أن ألوف الناس يغريها حب المال فترتاد له الصعاب ، وتهجر فى سبيله الأحياب .

وربما نسيت حق الله ، وما وضع من حدود ، وما شرع من معالم ، بل لعلها فى سبيل الاستكثار من المال تهدم كثيرا من خلال الشرف وخصال الخير .

فإن وجد من أرباب المال من يذكر ربه عندما يجمعه ، ومن يذكر ربه عندما يتخلى عنه ويصرفه إلى وجه البر ، فهل يكون ذلك فى طليعة الذاكرين؟

إن القرآن الكريم جعل الإنفاق هو الذكر ، أو أثره المطلوب فى قوله جل شأنه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٠) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(المنافقون : ٩ ، ١٠)

إن المعنى الوحيد الصحيح للحديث المذكور أن الذكر المجرد أفضل من الجهاد المشوب بحب الغنيمة وطلب الشهرة . وكذلك أفضل من الإنفاق المصحوب بالمن والرياء .

أى إن الحديث يستهدف تركية النفس بذكر الله وطلب ما عنده ، ويرى النية الطاهرة أرجح من العمل الكدر . وهذا معنى حق ، فإن الآفات التى تسطو على الأعمال الصالحة تذهب قيمتها عند الله ، وتمحق ثمرتها فى المجتمع .

حقيقة الذكر المطلوب

ولكن عددا كبيرا من المسلمين - فى قرون مضت - حسب الذكر أثر عند الله ، وأدنى إلى إرضائه من أى عمل آخر ، أو ربما حسب أن درجة الإحسان لا تنال إلا بطول الذكر ، سواء فى الصوامع المعزولة ، أو المجالس الحافلة ، فكان الاستكثار من الأوراد ، وأنواع التلاوات ، وانتشرت السبح فى الأيدي تعد الأصابع على حباتها ما يمكن عدده من أسماء الله الحسنى!! نحن نستعيز بالله من تهوين عبادة كريمة ، وندعوه جل شأنه كما علمنا على لسان نبيه فنقول : اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

ونحب أن ننبه المعجبين بمسالك القوم - وقد مضت أيامهم - أن مقام الإحسان ينال بمسلك أرشد من ذلك وأدنى إلى الصراط المستقيم .

إن ابن عطاء الله السكندرى - وهو من أكابر الصوفية الأولين - يغرى بالذكر ، ويطمع رجاله فى مقام الإحسان فيقول : «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره .

فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة .

ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور .

ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع رغبة سوى المذكور ، «وما ذلك على الله بعزيز» .

وهدف ابن عطاء الله واضح أن الإنسان قد يسأم تكرار ورد ما لا يشغال ذهنه فى أثناء تلاوته .

ويرى ابن عطاء الله أنه لا ينبغي للمرء أن يترك الذكر ولو كان قلبه مشغولا فإن إصراره على الذكر سوف يترقى به إلى أعلى المراتب .

إنه قبيح بالإنسان أن ينسى ربه أو يسأم ذكره ، وهو ملحوظ بعناية الله فى كل حين .

وقد تطفئ صور الوجود الأدنى على الفؤاد ، فيكون ذكر المرء لله حركة لسان لا

يصحبها جَنَان ، وربما شعر بأن هذا الذكر الشفهي قليل الجدوى فيتركه ، والأولى به أن يصر عليه ، فإن هذا الإصرار حميد العقبي .

ولو فرضنا أنه انتهى إليه فهو خير من السكوت ، إنه انشغال عضو بطاعة الله ، وهذه المشغلة - على تفاهتها - حاجز عن معصيته!

فكيف لو ترقى به هذا الإدمان لذكر الله ففض مغاليق الغفلة عن قلبه وجعله يقظان المشاعر فهو يذكر الله بلسانه وقلبه جميعا؟

وابن عطاء الله يبغى تحصيل المسلم ضد حالة الارتكاس لا تليق به فقد يزدري اللسان لأنه وسيلة فاشلة . . في تحريك القلب ، فتكون النتيجة أن يهمل فمه وقلبه معا وتحرفه تيارات الحياة بعيدا بعيدا فقلما يخطر على باله ذكر ربه .

والقمة التي يحدونا إليها هذا الصوفي الذكي هي حالة الاستغراق! وما حالة الاستغراق؟

إن أحوال الاستغراق في شيء ما تزحم حياة الناس العادية .

قد تنادى بأعلى صوت رجلا يسير قريبا منك في الطريق فلا يلتفت إليك لأنه غارق في فكر سيطر عليه ، فهو ينطلق في الطريق ضعيف الإحساس بما حوله . . .

وقد جربت في نفسى هذه الحالة اجلس إلى جوار المنبر في الجامع الأزهر يوم الجمعة ، ولما أعد - بعد - الخطبة التي حضرت الألوف لاستماعها .

فأعبى قواى الذهنية ، وأحضر مشاعرى كلها لتحديد الموضوع ، وجمع نصوصه وشواهد ، وأتابع في نفسى ربط العناصر ، وتسلسل المعانى ، وضبط بعض الجمل الدقيقة حتى لا يند زمام التعبير في نقطة حساسة .

ثم أصحو من هذه السباحة العقلية وقارئ السورة فى المسجد يصرخ بالآيات فلا أدري من أين بدأ؟ ولا أين وصل؟

وكأننى ما سمعت منه حرفا مع أن مكبرات الصوت تملأ به جو المكان! إن حالات الاستغراق هذه شيء معتاد فى حياة الناس .

ومن أهل الصلاح من تصفو سرائرهم ، وتزكو بواطنهم ، وتتوطد مع الله علائقهم ، ويمس حبه شغاف قلوبهم ، وربما تضطرم مشاعر الذكرى فى أنفسهم إثر طائف يمر بها من الملاء الأعلى ، كما تتقد الجذوة نفخت فيها الريح ، فتمر بهؤلاء

لحظات ليست من حياة الناس ، يذهلون فيها عن أنفسهم ويبقون مع ربهم فى استغراق يطول أو يقصر . . . !!!

أى عجب فى هذا؟ إن الإيمان يربو أحيانا كما تربو أمواج البحر ، ثم يعود رهواً ، ساكن الصفحة ، كأن لم يعره شيء . . .

وهذه السويغات ، فى حياة المؤمنين أمر معتاد!

وأنا أكره تسميتها فناءً ، كما أستنكر تسميتها جذباً .

وأحسب أن هذه الإطلاقات تنقصها الدقة والأدب .

ولنا أن نسأل : هل هذه اللحظات هدف يسعى إليه؟

والجواب : لا . . . إنها أحوال تعرض وليست غايات تقصد .

وذكر الله بالقلب ، أو باللسان لا ينبغى أن يتوسل به لهذه اللحظات ، وإنما ينبغى أن يتحول إلى الأعمال العظيمة التى رسمها الشارع ، وناط بها كيان الفرد والمجتمع .

إن جيشان عاطفة ما أمر قد يعترض حياة العاملين ، ولكنه لا يتجاوز هذه الحدود . وقد كرهنا أن نسمى هذه الحالة فناء ؛ لأن هذا التعبير كان مزلفة لانسلاخ البعض عن ذواتهم .

ورأينا البعض يسميها وحدة الشهود لينفى بها خرافة وحدة الوجود!

ومع ذلك فإن تعبير ابن عطاء الله - على استقامته - مهد الطريق لهذه المحظورات واسمع إلى ابن عجيبة يشرح عبارته التى ذكرناها آنفاً . قال : «فإن دمت على ذكر الحضور رفعتك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور ، لما يغمر قلبك من النور . وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق - الذاكر - فى النور ، حتى يغيب عما سوى المذكور ، وحتى يصير الذاكر مذكوراً ، والطالب مطلوباً والواصل موصولاً ، وما ذلك على الله بعزيز . . .» .

ثم يقول : «إن الذاكرين الله بالقلوب هم فى حال ذكرهم لله بلسانهم أشد غفلة من التاركين لذكره» لماذا؟ لأن ذكره باللسان يقتضى وجود النفس وهو شرك ؛ والشرك أقيح من الغفلة» .

ونحن نرفض هذا الكلام جملة وتفصيلا ، بل نرى ابن عطاء الله بريئا من قصده فإن الذاكر غير المذكور قطعاً .

وشعور المخلوق بأنه غير الخالق توحيد لا شرك .

والواقع أن فى عبارات الصوفية من هذا القبيل تشويشا يجعلنا نستبعدا من ميدان التعليم والتربية مهما التمس لها من الشروح وقصد المجاز لا الحقيقة .

إن الإحسان - ورد فى الكتاب والسنة - شىء آخر غير هذا الاستغراق الذاتى وغير التأمل العميق الذى قد يغيب المرء فيه عن نفسه أحيانا . . .

والمسلم - إذا أطاع الله ورسوله - لم يحتبس داخل صومعة محدودة الأركان يفسح جنباتها بالخيال الجامع ، وإنما صومعة المسلم هذه الأرض ذات الطول والعرض ، يملأ جنباتها بالعمل المتقن والواجبات المطلوبة .

وليس الإحسان تجويد جزء من العبادات وإهمال أجزاء أخرى قد تكون أخطر وأجل ، وإنما الإحسان أداء فروض العين وفروض الكفاية ، وتناول شئون الدنيا وشئون الآخرة معا .

هو إشراب الحياة الإنسانية حقائق الأمر الإلهى ، وإضفاء صبغة السماء على أحوال الأرض .

هو ترقية كل عمل بذكر الله فيه ، لا الفرار من الأعمال بدعوى ذكر الله فى العراء .

روى عن معاذ بن جبل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن رجلاً سأل فقال : «أى المجاهدين أعظم أجراً؟ قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً . فأى الصالحين أعظم أجراً؟ قال : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة! كل ذلك ورسول الله يقول : أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً .

فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ، ذهب الذاكرون بكل خير! فقال رسول الله : «أجل»^(١) .

هذا هو الذكر يقارن الأعمال ، ويتحول الاستغراق فيه إلى خلوص قلب ومهارة يد ، ونبالة غاية . . .

(١) مسند أحمد بن حنبل .

الإحسان مراقبة ومشاهدة ، والرقابة الإلهية لا تتناول عملا ، وتدع آخر ، بل تتناول الأعمال كلها .

من اللقمة تضعها في فم زوجتك كي تبني البيوت على الحب ، إلى الرصاصة تطلقها على عدوك في ساحة الوغى كي يبني العالم على العدل .

من الثوب تلبسه لتكتسى به وتزين فيه ، إلى الكفن تختار على نحو معين لتلف فيه الجثة وتوارى تحت الثرى . . .

الإحسان يشمل الأحوال والأعمال جميعا قال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس : ٦١) .

الذكر عبادة اجتماعية

كثيرا ما تختتم آيات القرآن الكريم بعدد من أسماء الله الحسنی ، يناسب ما يقارب معناها من أفعال العباد .

والسرفى ذلك إشعار الناس بأن رقابة الله لا تنفك عن تصرفاتهم مهما اختلف مجالها .

وإن إشراق المعرفة الإلهية لا ينحصر فى صومعة نائية أو محراب خاشع ، بل يجب أن يصحب المؤمن فى عشرات الأعمال التى ينغمس فيها كل يوم .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (البقرة : ٢١١) إن الجملة الأخيرة جىء بها مغنية عن جواب الشرط ، وهو (يتعرض للعقوبة) والاستغناء عن هذه الكلمة بذكر اسم الله مقرونا بإحدى صفاته ، رجع بالمؤمنين وأعمالهم إلى ضرورة الإحساس بإشراف الله عليهم إشرافا غير منقطع ، ولذلك يجب أن يحذروه .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٤٩) والجملة الأخيرة جاءت مغنية عن جواب الشرط وهو (يظفر بالحماية والمنعة) ومواجهة النفوس القلقة باسم الله مقرونا بأوصافه المثيرة للطمأنينة والثقة إشارة إلى أن المسلم فى شتى أحواله ينبغى أن يركن إلى من هذا شأنه .

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . . . اعبد على هذا النحو وأنت تقيم حد السرقة شاعرا بأن الله يريد إشاعة الأمان فى الناس وأخذ المجرمين بالنكال فذلك مقتضى حكمته ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٨) .

ورؤية الله فى ساحة المحكمة حين يقام هذا الحد هى رؤية الله فى المسجد حين تقام له الصلاة . . .

تأمل فى الأسماء الحسنى التى ختمت بها هذه الآيات النازلة فى بعض مشكلات الأسرة ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢٠) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧) .

إن الرجل قد يضيق بامرأته ، ويحمله السخط أن يحلف على اجتنابها ، وتجبد القرآن يعالج هذه الأزمة علاجاً يبدأ بالرقعة وينتهى بالحزم .

يقول للزوج إن عفوت عن زوجتك ، واغتفرت ما ساءك منها فإن الله غفور رحيم .

وفى التذكير بهذين الاسمين من أسماء الله الحسنى ما يشيع جو الخنو والتسامح فى البيت المضطرب . . .

ثم يقول . . . وإن كانت الأخرى ، وتقرر الطلاق . فإن الله سميع عليم ، إنه غير بعيد عما يقع ، عارف بما يصنع الزوج والزوجة .

وفى التذكير بهذين الاسمين من أسماء الله الحسنى شىء من إقامة السلوك على الحذر والروية . . .

والقرآن الكريم مشحون بمئات وآلاف من هذه الآيات التى تغرس جذور الإحسان فى القلوب ، وهى تعالج كل ما يعرض لها فى الحياة من أعمال .

والخلاصة التى نريد توكيدها أن العبارة الواردة فى الحديث الشريف وهى «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ليست وصفاً لشخص يَصِفُ قديمه للصلاة ، أو يلهج لسانه بالذكر فحسب .

إنما هى وصف لإنسان يقيم أوامر الله كلها ، فى شئون الحياة كافة .

ومجال الإحسان رحب الدائرة ، حدوده وظيفة الإنسان فى الحياة من المهد إلى اللحد . . .

أمتنا بين الإساءة والإحسان

إساءة المسلمين إلى دينهم وأنفسهم بالغة الشدة ، وقد تتابعت هذه الإساءات فى الأعصار الأخير واتسع نطاقها ، وفشت بين الخاصة والعامة جهالات غريبة بالدين ، وجهالات أغرب بالحياة العامة ، فإذا الأمة التى بقيت دهرًا طليعة مرموقة ترجع القهقرى ، وتلاحقها الهزائم ، ويهون وجودها عليها وعلى الآخرين فهى كما قيل :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم لا يستأمررون وهم شهود!!

إنها ما أحسنت العمل بحقائق دينها ولا أحسنت العمل بشئون دنياها ، فلم يكن يد من مواجهة هذه العقبة .

إن الذى يجهل قواعد اللغة لا يحسن البيان ، والذى يجهل أركان الصلاة لا يحسن العبادة ، وكذلك الذى يجهل شئون الحياة لا يحسن الاستفادة منها ولا التبريز فيها .

والعلم ضربان : علم مصدره الوحى ، وهو محصور الدائرة ، واضح الحدود .

وعلم مصدره النشاط الإنسانى ومكابدة الحياة نفسها ، واستكشاف قواها وأسرارها ، وهو علم واسع الدائرة رحب الأفاق .

وفى النوع الأول من المعرفة ، حسب المرء أن يدرس ما جاء من السماء ليعمل به العمل الصحيح .

أما النوع الآخر ، فإن السماء تركتنا له وتركته لنا ، فلم يجئ وحى يعلمنا فنون الصناعات وألوان الحرف وإنما خلانا الله وشأننا نتكلف ذلك ثم نوجه ما نملك من أمور الحياة الوجهة الصالحة ، ونسخره لدعم الرسالة التى اصطفانا لها .

ومن المؤسف أن أقدام المسلمين زلزلت فى كلا الميدانين ، فوعيمهم لكتاب الله وسنة رسوله ضعيف ، وفقهم لظواهر الحياة وبواطنها أضعف ، وتوجيه الحياة وخبراتها وملكات خدمتهم دينهم أشد ضعفًا .

وليس من العبادة انتظار نجدة من السماء لتغيير هذه الأحوال .

إننا - من الناحية العامة - بشر كسائر البشر . لنا ما للناس من أسمع وأبصار وأفئدة .

فلماذا تتعطل حواسنا وأفكارنا ، وتنطلق حواس الناس وأفكارهم فى كل مجال؟
لماذا تمس أصابعهم الأشياء فتجود ، وتمسها أصابعنا فتضطرب؟

لقد كان الناس عالة على آبائنا فى النواحي الأدبية والمادية جميعاً فما الذى
عرانا حتى أصبحنا لا نحسن استخراج المعادن من أرضنا ، ولا بناء السدود
والجسور على أنهارنا ، ولا تشكيل الآلات وتركيبها فى مصانعنا ، ولا تطويع أدوات
الحرب والسلم لحاجتنا . . ؟

الحق أن القدرة على الإحسان أعوزتنا ، وأن أسباب هذه القدرة فى أيدينا لو أردنا .
إن الله أحيا المسلمين على هذه الأرض كما أحيا غيرهم من الأمم ، وإذا كان قد
اختص المسلمين بوحى سماوى جليل القدر ، بعيد الأثر ، فهو لم يختصهم بمعرفة
أرضية ترجح كفتهم على سواهم .

وعليهم أن يعانوا فى ذلك ما يعانى غيرهم ، وأن ينتفعوا بتجاربه .
وكل تفريط فى هذا الميدان معناه أولاً انخفاض مستواهم الفكرى والمادى ،
ومعناه أخيراً قصور الوسائل التى تنتج رسالتهم ، وتحقق غايتهم .
وعندما ينضم إلى هذا العجز ، عوج فى فهم الدين نفسه ، واسترخاء فى إجابة
عزائمه فهنا الطامة .

إن للإحسان جزاءين ، أحدهما أجل فى الدار الآخرة ، ولا كلام لنا فيه الآن ،
والآخر عاجل تلقاه الأم فى حاضر أمرها وتبلوه عيانا . قال جل شأنه : ﴿لِّلَّذِينَ
أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ
مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس: ٢٦، ٢٧) .

وقال جل شأنه : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء : ٧)

وقال : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن : ٦٠) .

والإحسان - كما شرحنا - لا يتجزأ ، كما أن الصدق مثلاً لا يتجزأ . فليس صادقاً من يعتمد الكذب فى نصف أخباره ، ويتحرى الصدق فى نصفها الآخر .

بل من الصعب تصور أن فضيلة الصدق تكونت لدى هذا الإنسان .

وليس محسناً من تراه فى نصف أعماله ردىء التصرف غبى السلوك ، وفى نصفها الآخر مجيداً ، مستحب السيرة .

بل ، بعيد أن يوجد هذا الصنف المختلط ، فإن الفضائل لا تتجزأ .

والإحسان عمل ما من الأعمال المعتادة صورة واحدة يعرفها المؤمن والكافر على سواء ، إذ أساس الإحسان فى هذه الأعمال إيقاعها وفق القوانين المقررة لها فى دنيا الناس .

فالجراحة التى يجريها طبيب مسلم هى التى يجريها طبيب شيعوى أو وجودى ، أو يهودى . ويمكن الحكم عليها أو لها من الناحية العلمية الخالصة . ووصفها بالحسن أو القبح لا مرجع له إلا هذه الأصول الفنية المتداولة بين أجناس البشر ، وليس يقبل من أحد مهما كانت نحلته أن يقصر فى هذه القواعد المتواضع عليها .

والفارق بين صدور هذه الجراحة من رجل مسلم ، وبين صدورها من شخص آخر ، أن المسلم لا تفوته فى أى عمل نية الخير ، ولا تنفك عنه صلته بالله ، وقصد وجهه فيما يأتى ويترك . . . أى إن صورة العمل المشتركة لا تفاوت فيها بين المسلمين ومخالفهم فى العقائد والوجهات . أما الصورة النفسية الباطنة فهى تختلف بين هذا وذاك .

والمسلم من الناحية الدينية لا يسمى محسناً إلا إذا استجمع الكمال الحسى فيما أدى من عمل ، والصفاء النفسى - أعنى قصد الله - فيه .

وليس يقبل منه بتهمة - مهما صلحت نيته - أن يسىء أو يقصر ، أو يترخص ، أو يتجاوز ، اتكالاً على هذه النية الكاملة .

فإذا شرك المسلمون غيرهم في أحوال الحياة وشئون الدنيا وفق هذه القواعد فيجب ألا تنسى شيئاً آخر انفردت به الجماعة الإسلامية وهو العبادات المحض التي كتبت عليهم وطولبوا بأدائها .

إن الإحسان أن نقوم بها كافة على وجهها المشروع ، كما أثرت عن صاحب الرسالة ، متحرين في صلاتنا وزكاتنا وصيامنا وحجنا أن تتأسي به ، وأن نلتزم سنته . وقد شرح القرآن الكريم أن الإحسان بهذا الشمول طريق التمكين في الحياة ، والاستيلاء على أزمته ، وملئها باليُمن والبركة .

كان يوسف الصديق شاباً بادی العفة ، راسخ اليقين ، متين الخلق ، عظيم الشقة في الله ، اجتاز الأزمات التي مرت به من تشريد ، وسجن ، وتلوّث سمعة وكآبة عيش ، فلم يهن له عزم ، ولم تزل له قدم ، ولم يطش له هدف .

فماذا كانت عقبي هذا الإحسان؟

كانت العقبي أن الرجل المختطف المستضعف يلى أضخم المناصب ، وتصير الجماهير طوع بئانه .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُرْنِي بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٥٤ - ٥٦)

ذلك كله في الدنيا أما بعد ذلك :

﴿ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يوسف : ٥٧) .

وليوسف مع إخوته الذين أهانوه ، ولم يتقوا الله فيه ، موقف آخر :

إن الإحسان بلغ به المدى ، وجعله في مصر مناط الآمال ومحط الرحال ، لكن الدنيا تقلبت بهؤلاء الإخوة ، وجزتهم بسوء أنفسهم سوءاً في معاشهم اضطهرهم إلى النجعة يطلبون القوت من ولي الأمر في مصر ، ودار بينهم وبينه حوار عرفوا منه : أي رجل يخاطبون .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) قَالُوا أَأَنْتَكَ لَأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٨٨ - ٩٠) .

والجملة الأخيرة يجب أن تكون في السلوك الاجتماعي قانوناً علمياً كالقوانين المقررة في علوم الرياضة والأحياء . إن الإحسان لا يضيع غرسه ، ولن تتحلى العناية الإلهية عن أصحابه ، مهما كبت بهم الخطوط . وتعثرت بهم في المراحل الأولى . وليس الإحسان جلودة ذهن طبيعته الغفلة ، أو يقظة نفس طبيعتها الركود إنه خليقة مستقرة ، وملكة تتكون من حب الإتقان وهواية الكمال ، وإدمان الذكر لله ، وطول الشعور بصحبته .

وإذا كانت الإجابة العلمية تتطلب مزيداً من الخبرة والدراسة - لأن شئون الحياة دائمة التطور والتغير - فإن الجو النفسى يتطلب صحواً دائماً ، وتعوداً على الطاعات والفضائل ، وولعاً بما يرضى الله ويقرب غفرانه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات: ١٥ - ١٩) .

وطرق الإحسان كثيرة ، ولكن من يطبقها؟ إنها تتطلب العزمات الشداد ، والصبر الجميل ، والهمم البعيدة ، والجهاد الدءوب ، وصاحب هذه الخصال أهل لأن يبسط الله عليه كنفه ، ويلهمه رشده ، وأن يكون أبداً معه ولذلك جاءت الآيات تؤكد عناية الله به وصحبته له .

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩) .

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ

رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿الزمر: ٣٣ - ٣٥﴾ .

والآية الأخيرة تفيد أن المحسن ليس معصوماً من الخطأ ، ربما كان له ماضٍ تاب منه ، وربما ساورته وساوس تجعله يلم بما ليس من طبعه ، ولكن الإشراق الذي يغمر حياته بالنور لا يعتكر لغيمة عابرة ، وفضل الله عليه أوسع وأجل .

ومن صور الإحسان التي استعرضناها آنفاً ندرك أن أمتنا متخلفة - أفراداً وجماعات - في ساح الحياة الدنيا والأخرى على سواء .

وأنها قد تزعم وتتمنى ، بيد أن سنن الله في كونه لا تغلبها المزاعم والأمانى . ولا طريق لمجد الحياتين إلا أن تباشر كل عمل وهي تحس أن الله عليها شهيد ، وأنها يجب أن تبلغ به مداه وفق ما شرع من وحى سماوى ، أو وفق ما وضع من قوانين طبيعية .

ذاك معنى «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

دَعَائِمُ الْكَمَالِ الْفَنِيِّ

نسبنا السماوى

فى ضجيج المعركة التى تنتظم البشر كافة حول مطالب الجسد نريد أن نترث قليلا كيلا نضل الطريق ونجهل الغاية .

لقد علا الصياح وراء وقود المعدة والفروج علوا اختلط فيه أنين الحرمان بسعار الجشع واتصلت نبرات هذا الصياح المهتاج حتى كادت أقطار الأرض لا تعرف غيره . وفى بقاع شتى لا حديث إلا عن رفع المستوى الاقتصادى ، وضمان مقادير موفورة من الرغبات والشهوات للكبار والصغار .

ونحن نعلم حاجة الناس إلى ما يصون ويدعم جانبهم المادى . ونعلم أن هناك فلسفات ومذاهب جارت عليه ونالت منه ، كما أن هناك مظالم وفتناً عرضت هذا الجانب وعرضت الحياة العامة معه لشر مستطير ...

لكن العلاج العادل المستقيم لا يكون بالغلو فى التقدير أو الانحراف فى وزن الأمور . العلاج الصحيح ليس فى الزعم بأن الحياة مادة صرف ، كى نجابه من حاف على أثر الظروف المادية فى كيان الإنسان وقلبه ولبه ...

إننا فى كتبنا الأخرى نوهنا أشد التنويه بقيمة المال ، وقدرة الأحوال المادية على الحمل الكثير ، بيد أننا لا نريد أن ننسى أبداً أن الأوضاع الاقتصادية التى نريد السيطرة عليها وسائل لا أهداف ، وأن القصد من توجيهها هو خدمة غايات أعظم .

إن رسالة الإنسان فى هذه الحياة تتطلب مزيداً من الدرس والتمحيص . ووظيفته العتيدة فى ذلكم العالم الرحب يجب أن تحد وتبرز حتى يؤديها ببصر ووفاء ، وقوة ومضاء .

إن بعض الناس جهل الحكمة العليا من وجوده ، فعاش عاطلاً فى زحام الحياة ، وكان ينبغى أن يعمل ويكافح .

أو عاش شاردة عن الجادة تائها عن الهدف ، وكان ينبغى أن يشق طريقه على هدى مستقيم .

والنظرة الأولى فى خلق آدم وبنيه كما ذكرها القرآن الكريم توضح كل شىء فى هذه الرسالة .

لقد بدأ هذا الخلق من تراب الأرض وحدها ، والبشر جميعاً فى هذه المرحلة من وجودهم ليس لهم فضل يمتازون به ، أو يعلى مكانتهم على غيرهم من الكائنات . كم تساوى حفنة من التراب؟ لا شىء .

بل إن القرآن الكريم وصفهم فى هذه المرحلة بما يدل على تفاهة الشأن قال جل شأنه : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿ (السجدة : ٧ ، ٨) .

أجل ، فتلك مرحلة فى تاريخ الوجود الإنسانى لا يستمد الإنسان منها أى كرامة ، وإنما يستمد هذه الكرامة من الطور الآخر الذى يقول الله فيه للملائكة : ﴿ إِذَا سُوِّتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٩) .

فى هذه النفخة من روح الله سرت فى الكيان الإنسانى الخصائص التى استحق بها أن يسمو ويمجد ، وأن تخضع له صنوف الخلق الأخرى . نعم ، قبل نفخ الروح فى آدم وذريته ، ما استحقوا سجوداً ولا تكريماً فإن الملائكة ومن دونهم لا يكلفون بالسجود لسلالة من التراب تافهة القيمة . إن هذا الغلاف المادى المجرد لا يستحق شيئاً من ذلك . . .

ولكن بعد أن تألق فى هذا الغلاف المادى قبس من نور الله الأسنى ، وبعد أن صار الإنسان يحمل أثراً من صفات الله جعلته حياً ومريداً وقادراً وعالمًا ومتكلماً وسميعاً وبصيراً ، بعد ذلك ، استحق الإنسان أن يكون خليفة الله فى أرضه ، وأن تنهياً أرجاء الكون لاستقباله ، والانقياد لأمره .

إن الإنسان كائن عظيم حقاً بيد أن عظيمته ترجع إلى نسبه السماوى الروحى ، لا إلى نسبه الأرضى المادى .

ومن الناس من يقدرُون نسبهم الإلهى هذا فيجعلون الحياة تزدان بالمعرفة والكرامة والفضيلة ، وتسخير الكون للإنسان .

ومنهم من تغلبهم نزعات الحمأ المسنون فيجعلون الحياة تسود بالشهوات والمظالم والأناية وتسخير الإنسان لأتفه شىء فى الكون .

المادية تشد الناس إلى أسفل

والنزاع الأبدى بين الناس فى هذه الحياة ، أساسه : أ تكون الهيمنة للحيوان الرابض فى دم الإنسان يتحرك بنزعات القسوة والأثرة وحدها ، أم تكون الهيمنة للقلب الإنساني المتطلع إلى الكمال والسلام ، والحب والإيثار؟ ذلك ما يجب أن يعرف بجلاء ، وأن ترتفع حناجر المصلحين به .

وقد حملنا نحن المسلمين حضارة أعلت قدر الإنسان ، ولفتت نظره إلى أن ملكوت السموات والأرض ممد له ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان : ٢٠) .

إن هذا التسخير لآفاق السماء وفجاج الأرض وجعلها فى خدمة الإنسان يتضمن إشارة بينة إلى أن الإنسان خلق ليكون سيدا لا ليكون مهانا .

وأن سجود الملأ الأعلى له فى السموات معناه أن يحيا على ظهر هذه الأرض سيدا موفور الحرمة مدعوم المكانة ، إذ وظيفته أن يخلف الله فى أرضه .

ولكن لا يجوز عند انشغال الإنسان بأعباء العيش الأرضية أن ينسى حقوق ربه الذى أسندها إليه ، والذى قواه عليها . قال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿ (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

وقد صالح الإسلام فى تعاليمه بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، وبين واجبات الدنيا وواجبات الآخرة ، فكأن الإنسان - بعد هذا الصلح الذى عقده الإسلام - كيان واحد يستقبل به عالما ليست فيه فواصل بين الموت والحياة .

وتوضيحا لهذا المنهج الوسط قيل لكل إنسان : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

الْآخِرَةَ وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ (القصص: ٧٧) .

ليس فى الإسلام إذن انفصال بين العمل للدنيا والعمل للآخرة فإن العمل للدنيا بطبيعته يتحول إلى عبادة ما دام مقرونا بشرف القصد وسمو الغاية .

وليس فى الإسلام تغليب للجسد على الروح ، ولا للروح على الجسد ، إنما فيه تنظيم دقيق يجعل معنويات الإنسان هى التى تتولى قياده وتمسك بزمامه ، فلا هو براهب يقتل نداء الطبيعة ، ويميت هوائف الفطرة ، ولا هو مادی يتجاهل سناء الروح وأشواقها إلى الرفعة والخلود .

إن الإسلام يلح على كل إنسان فوق ظهر الأرض ، ألا ينسى نسبه السماوى ، وألا يتجاهل أصله المنبثق من روح الله .

وللجسد حقوق مقدرة ، وقد قال الله فى وصف أنبيائه : ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨)

لكن توفير هذه الحقوق ليس إلا وسيلة لصيانة الفؤاد والفكر ، وحماية القلب والعقل ، ما أشبه هذا الجسم بزجاجة المصباح الكهربائى ، إنها هى التى تصقل الضوء ، وتمد الشعاع ، فلو انكسرت ذهب النور واحتبس التيار .

ومع ذلك فالمحافظة على هذه الزجاجاة وتلميعها وإزالة الغبار من فوقها شئ غير مقصود لذاته ، بل مقصود لينطلق الضوء من خلالها صافيا نقيا .

وقد أمر الإسلام بتطهير البدن وتزكية الروح فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) ، وطهارة الروح أساسها حسن الصلة بالله .

وطهارة البدن بإزالة القذى الذى لا يليق بمكانة إنسان كريم على الله ، له رسالة سماوية مجيدة .

إن عبادة الجسد ، وعبادة المادة ، والتمرد على الأساس الإلهى فى الحياة الإنسانية عوج لا يتمخض إلا عن الشر والبلاء .

وأفة الحضارة المادية أنها سخرت العقول للشهوات ، وأخرست نداء الروح

وأطلقت نداء الطين ، وحدث أن الإنسان نفخة من روح الله ، ورأت أنه - كلا
وجزءا - نشأ من الأرض فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى يذكر الله ولى نعمته ،
وسر عظمته . ونحن نؤكد أن شرف الإنسانية أولا وآخرها فى صلتها بالله ،
واستمدادها منه ، وتقيدتها بشرائعه ووصاياها ، والحرية الحقيقية ليست فى حق
الإنسان أن يتدنس إذا شاء ويرتفع إذا شاء بل الحرية أن يخضع لقيود الكمال وأن
يتصرف داخل نطاقها وحده ، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا
أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

وقال عليه الصلاة والسلام : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»^(١) .

ما هى الحرية التى هفت إليها الشعوب ، وتنادى بها كبار القلوب؟

إنها حق البشر فى تأمين الوسائل التى يحيون بها حياة زكية نقية ، وليست حق
امرئ ما فى أن ينسلخ عن طبيعته ، أو يتمرد على فطرته .

إن الحرية ليست حق الإنسان أن يتحول حيوانا إذا شاء ، أو يجحد نسبه
الروحى إلى رب العالمين ، أو يقترب من الأعمال ما يوهى صلته بالسماء ويقوى
صلته بالتراب ، فإن الحرية بهذا المعنى لا تعدو قلب الحقائق ، وإبعاد الأمور عن
مجرها العتيد . بل الواقع أنك لن تجد أعبد ولا أخنع من رجل يدعى أنه حر ،
فإذا فتشت فى نفسه وجدته ذليلا لشهواته كلها ، ربما كان عبد بطنه أو فرجه ،
وربما كان عبدا لمظاهر يرائى بها الناس ، أو لمراسم يظنها مناط وجاهة ، فإذا فقد
بعض هذه الرغائب رأيته أتفه شئ ولو كان يلى أكبر المناصب ، بل لو كان ملكا
تدين له الرقاب .

الحرية المطلقة لا تنبع إلا من العبودية الصحيحة لله وحده .

فإن القلب المرتبط بالله يعلو بصاحبه على كل شئ فما تذله رهبة ولا
تدنيه رغبة .

وهو بمعالم الشريعة التى يلتزمها مصون من الدنيا ، محصون من المزالق ...

ولذلك فنحن نكذب كل دعوة للحرية تزبن للناس اعتداء حدود الله أو تعطيل أحكامه أو تهوين فرائضه ، أو الهبوط بالإنسان عن المكانة السماوية التى رشح لها بأصل الخلقة . كم يكون الإنسان نازل المرتبة تافه القيمة إذا كانت وظيفته فى الحياة لا تتجاوز بضع عشرات من السنين يقضيها على ظهر الأرض ثم ...

ثم يقضى دون عودة ، وينتهى بذلك أمره كما تنتهى أجال الذئاب فى الغاب أو الشياه فى الحقول أو الخيول فى «الاصطبل» .

ألهذا خلق الإنسان؟ أو لهذا استخلفه الله فى العالم؟

قد رشحوك لأمر، لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل
إن الله الذى امتن على الإنسان بهذه المرتبة الرفيعة لم يدعه فى هذه الحياة
وشأنه ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة : ٣٦) .

كلا إن الله كما شرفه بالكثير من النعم كلفه بالخطر من الحقوق .
وهى حقوق تدور فى جملتها على رعاية مصالحه ، وضمان الخير له فى عاجل
أمره وآجله .

والإسلام كلمة الله الأخيرة فى هذا المجال ، وهو دين يحترم طبائع الأشياء لأنه
دين الفطرة .

ولذلك يستحيل أن يتضمن حكما علميا أو اجتماعيا يناقض الحقائق المقررة ،
﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء : ١٠٥) .
وكذلك يستحيل أن يلحقه تعديل أو تبديل فإن اجتياز دائرة الحق إلا الدخول
لا معنى له فى دائرة الباطل ، ولذلك يقول جل شأنه : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام : ١١٥) .

وخير للناس أن يستبينوا رشدهم فى صفحات الكتاب الذى استوعب أصول
هذا الدين القيم ، واستوعب إلى جانب ذلك كل ما يضمن للعالم الخير والازدهار .
إنه الأثر السماوى الفذ ، الذىبقى مستعليا على التحريف والتغيير ، يصل
الإنسان بنسبه السماوى العريق ، ويرتفع به عن مستوى التراب ، وآمال التراب!

لقد تألقت مواهب الإنسان العقلية فى عصور مضت ، وازداد وهجها ازديادا عظيما فى هذا العصر ، وخيل للإنسان أن مكاسبه من وراء هذا الارتقاء الفكرى البحت لا تقدر ، بل خيل إليه أنه أصبح - بهذا الجانب العقلى المبتور - سيد الوجود حقا . . ولو أننا تأملنا فى حصاد هذا الطور التقدمى من حياة الإنسان لراعنا منه أن كفة الخسائر طافحة ، وأن الإنسان خسر نفسه وبذل أنفـس ما فيه كى يحصل على الحطام الفانى ، ولم يرجع من وراء هذا الكفاح الخسيس إلا بالتضحيات والبلايا : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج : ٥٥) .

إن الإنسان يكون وفيما لنسبه السماوى ، يوم يكرس قلبه ولبه لله .

الإلحاد خيانة عظيمة

الدين مدرسة لتعليم الكمالات ، وغرسها فى النفوس ، وأخذ الناس بها حتى تنضج فى أحوالهم وأعمالهم .

إنه يعرف الناس بربهم أولاً ، لكنه لا يصلهم بالله على ما بهم من أثره وشراة ، وبغى واعتداء ، بل يغسل عن قلوبهم هذه الأضرار ويشرع لهم من العقائد والعبادات ، والأخلاق والمسالك ما يدرهم على فعل الخير وحب المعروف وتحسين الحسن وتقبيح القبيح .

وما نزع أن كل منتم إلى الدين يحرز ما يراد له من أنصبة الكمال ، وإنما تؤكد أن الدين يستهدف الكمال النفسى لأتباعه قاطبة ، وأنه كالمستشفى يقبل كل بشر ، ويتولى علاجه بشتى الأدوية حتى يبرأ من علله ، وتتم له الصحة الروحية المنشودة .

والناس يتفاوتون فى حظوظهم من العافية يزودهم بها الدين بيد أن من رفض هذا العلاج الحتم ، وأبى إلا البقاء بأدوائه طرد ، وسدت فى وجهه أبواب الوصول إلى الله .

ذلك أن عبادة الله منزلة لا يرقى إليها المفسدون والمجرمون ، وأحلاس الشهوات ، وعشاق العلو فى الأرض والكبر على الخلق .

وهذا الصنف من الأشرار لا يؤذن له أن يجاور الله فى جنته ، فإن ما التصق به من دنيا يسوقه سوقاً إلى النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿ (المدثر : ٤٢ - ٤٧) .

أما الذين تكلفوا مشاق التهذيب والتنزيه ، ونفوا أنفسهم من أدران الشر ونوازع الإثم فإنهم يأخذون طريقهم إلى الجنة ممهداً ويقال لهم : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة : ٢٤) .

الدين إذن صلة بالله رفعت أصحابها ، وزكت أنفسهم وصفت معادهم وتلك هى حقيقة الكمال الإنسانى .

ولسنا نتصور كمالات إنسانيا مع انقطاع الصلة بالله ، وإضممار الكره لشرائه . إن الجهل بالله ، والوحشة من طريقه جذام يجتاح النفوس ويدعها لا تساوى شيئا . إن كنود المنعم الأكبر وإنكار وجوده أو إنكار حقوقه هو الخيانة العظمى التى لا يقبل معها خير يقدم ، أو يكثرث معها بميزة قائمة .

ونحن نحب أن نعرف هذه الحقائق بجلاء ، هناك من يظن الدين صلة بالله لا تورث النفوس أدبا ولا شرفا ، وهؤلاء كذبة على الإسلام يجب إبعادهم عن حظيرته .

وهناك من يظن الاكتمال النفسى يتوصل إليه دون الإيمان بالله ، وإقام للصلاة وإيتاء للزكاة ، وهؤلاء أذعياء مغرورون لا يجوز أن تكون لهم حرمة ، ولا أن تحفظ لهم مكانة فإن الدعامة الأولى لما تصبوا إليه الإنسانية من كرامة ومجد هى الاعتراف بالله والخضوع له والاستمداد منه والاحتكام إليه . . .

لقد شاعت فى أوساط كثيرة فكرة أن المرء يقاطع الدين ، أو يجامله بكلمات باهتة ، ثم يخطط لنفسه طريقا فى الحياة لا تعرف المسجد ، ولا تقيم وزنا لموارث السماء جملة وتفصيلا .

وهو مع إقفار حياته من الدين ؛ وفراغ قلبه من الله يزعم أنه استكمل أسباب الكرامة واستجمع خصال الخير . . .

أما مقاييس الخير والشر فقد انقلبت فى وعيه رأسا على عقب ، وما تظن بامرئ لا يستهدى بوحى ، ولا يستيقن بآخرة؟
إن حكمه على الأمور ينبع من نفسه وحدها .

وما نفسه؟ كائن إن ضبطه العقل الخفيف حينما اجتريته الشهوات والأهواء أحيانا كثيرة فحسنت له ما يريد ، وقبحت له ما يكره . . .

وقد رأينا الشيوعيين والوجوديين يرسلون أحكامهم على الأشخاص والأشياء فرأينا الأعاجيب .

بل سمعنا من إخوانهم الإباحيين أن هذه الأمة لن تنهض إلا إذا قلدت أوروبا فى «قاذوراتها» ونحن بعد ما بلونا القوم ما نظن أحدهم يتحرج عن إثيان أمه دون حياء ، وتقديم زوجته للآخرين دون مبالاة .

والغريب بعد هذا الكفر والفسوق أن يزعم هؤلاء أن لهم نصيبا من الكمال الخلقى والسلامة النفسية ، وأن يرموا الدين وأهله بالإفك والبهتان .

ولنتجاوز هؤلاء وسيرهم الخاصة والعامة ولنتساءل : هل قضية الإيمان بالله من التفاهة والهوان بحيث يستوى فيها النفى والإثبات والشرك والتوحيد؟

هل هذه القضية من خفة الوزن بحيث لا يفترق فيها مؤمن وكافر ومصدق ومرتاب؟ .

إننا لو عرفنا عن رجل ما أنه يتصور الأرض مربعا لا كرة ، أو يتصور مياه المحيطات عذبة لا ملحاً فإننا نزرى بعقله ، ونسخر من علمه .

فإذا كان الخطأ فى فهم بعض الحقائق الدنيا له هذه القيمة ، فكيف لا نكثرث للخطأ الجسيم المتصل بالحقائق العليا؟

إننا إذا عرفنا عن رجل ما أنه جحد جميلاً أسدى إليه أكننا له الضيق والاحتقار ، فكيف بمن جحد نعماء الخلاق الرزاق وهو يتقلب فيها على أحيانه كلها من المهد إلى اللحد؟

والواقع أن القول - بكمال نفسى عند أى شخص ملحد أكذوبة كبيرة لا تعنى إلا واحداً من أمرين فى نفس هذا القائل!

إما أن الله غير موجود بالفعل ، وبذلك لم يرتكب هذا الملحد شيئاً يلام عليه . وإما أنه موجود حقاً ولكن الجهالة والجحود ليسا رذائل تسقط المكانة .

ونحن معشر المؤمنين نزدري هذه الأفكار والأحكام ، ونرى الإلحاد أس الدنيا ، ونعد أهله شرار الخلق وجراثيم الفساد . . .

وهناك صنف ناعم مائع يبدو كأنه محايد بإزاء هذه القضية الخطيرة ، إنه لا ينجح لا إلى السلب ولا إلى الإيجاب .

بما قال لك - إذا سألته : هل الله حق - ولم هذا السؤال؟ وما جدوى الإجابة عليه؟ إن حياة الجماهير غير مرتبطة بهذه الإجابة .

وربما استتلى يقول : إن هناك قوة وراء المادة لها أثرها الكبير أو يقول : من الخير الاعتراف بألوهية قائمة فلو لم يكن هناك إله لوجب التصريح بأن الله موجود!!

هذا الصنف من الناس يشبه المنافقين بالنسبة إلى الكافرين ، وإن اختلف لون التكذيب حسب الطباع التى تسير أصحابها .

والملحدون والمحايدون سواء فى أنهم يريدون أن يحياوا على ظهر هذه الأرض وفق ما يشرعون لأنفسهم ، دون التزام بأى توجيه سماوى .

ونحب أن نزيد الموضوع وضوحا ، فليس الإيمان إقرارا بقوة غامضة أشبه بالصفات التى لا تمسكها ذات معينة . كلا إن الإيمان اعتراف بالله المريد القادر المهيمن الذى أمر ونهى ، وأعطى الناس فرصة محددة لتنفيذ أمره ونهيه ، وهو رقيب عليهم ، وسائلهم يوما عن كل صغيرة وكبيرة كلفوا بها .

فليس يؤمن هذا الذى يقول : إن فى العالم أو وراء قوة لا ندرى عنها شيئا ، لا صلة لها بنا أو لا صلة لنا بها فى سلوكنا الخاص والعام .

ثم القول بأنه لو لم يكن هناك إله لوجب أن نشيع الإيمان به - لمصلحة الأمن العام طبعاً - قول سخيف سمج . فإن إشاعة الكذب جريمة ، ولا معنى للإيمان بالوهم .

وهذا الكلام لا هدف له إلا أن الدين يمكن استغلاله فى تسكين الدهماء بقطع النظر عن قيمته الحقيقية .

وهذا كفر لا يقل عن الجحود الصريح .

الإيمان اعتراف بالله الذى تكلم فأبان عن نفسه وعن مراده من خلقه ، وبعث إلينا من يشرح لنا كيف نعيش وفق هذه التوصيات العليا ﴿ كِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (هود : ١ - ٤) .

من أجل هذا كله نحن نحكم حكما بينا حاسما بأن الكفران بالله والتمرد عليه ورفض توجيهاته خيانة عظمى ، وأن أبعد شئ عن الاحترام أناس من هذا

القبيل ، وأن الأساس الأول للتكامل النفسى اليقين فى الله والاستكانة لحكمه والاتباع التام لهده .

وأداء العبادات ركن ركين فى بناء الكمال النفسى .

ومع أن الأثر الخلقى والاجتماعى لهذه العبادات بعيد المدى إلا أنه ثانوى فى تشريعها ، والغاية الأولى من أدائها الوفاء بحق الله ، والانتقياد لأمره وإعلان التبعية المطلقة لذاته جل شأنه .

بل إن من صلى وصام دون أن تكون هذه المعانى مسطورة فى نفسه فلا صلاة له ولا صيام ؛ ذلك أن النية المنظورة إليها فى هذا المجال الاستسلام لأمر الله تحرى مرضاته والفرغ من سخطه والشعور بأن المرء ما خلق إلا ليمدح ربه ويثنى عليه بما هو أهله ، وينفى عنه كل نقيصة ، وينزهه من كل عيب .

وهو بهذا التمجيد يحقق الغاية من محياه قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه : ١٣٠) .

وقد جاء فى الحديث «ليس أحد أحب إليه أن يمدح من الله . من أجل ذلك مدح نفسه»^(١) .

ومن حق الله الذى خلق أن يُعرف ويُعبد .

ومن حق الله الذى رزق أن يُذكر ويُشكر .

ومن حق الله الذى يعلم السر وأخفى أن يُراقب وأن يُستحى من مخالفته .

ومن حق الله الذى يرث الأرض ومن عليها أن يستعد الخلاق للقاءه .

وكل تفريط فى هذه الحقوق رذيلة كبيرة ، فمن عاش مقطوع الصلة بالله ، فارغ القلب من شكره ، خالى البال من مراقبته ، عديم الاستعداد للقاءه فهو مهما ارتقى من نواح أخرى حيوان غادر خبيث ، وكفره هذا خيانة عظمى تُزهد سوءتها بكل ما ينسب إليه من كمال .

(١) مسلم .

مقاله والحضارة المادية عندنا

رأيتة لامع الشعر والنعل ، حسن الهندام ، يتأنق فى الحديث ، ويتلطف مع الآخرين ويفرق البسمات والتحيات بأدب جم . . .

فقال لى صاحبى : ما رأيك فيه ؟ إنه من أولئك الذين صنعتهم الحضارة الحديثة على نحو معين .

قلت : ما تعنى ؟

قال : أعنى أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر !

قلت : إذن فهو حيوان مستأنس !

قال : أبعد هذا الارتقاء تصفه بأنه حيوان مستأنس ؟

قلت : إن الاستئناس هو الوصف الذى أضفته عليه الحضارة ، وسيبقى حيوانا ما بقى كافراً بالله ، فإذا آمن فهو عندئذ إنسان .

إنه لطيف الشمائل ، حلو المنظر ، ولذلك قلت : إنه مستأنس كهذه القطط والكلاب التى نألفها ونسمح لها بالتطواف علينا ، ولا نلقاها بالرصاص ، كما نلقى الذئاب والضباع . . .

واستتليت : أترى الخائن لوطنه عندما يُجر إلى حبل المشنقة ؟

إنه قد يكون وسيم التقاطيع ، وربما كانت له أم يبرها ، أو زوجة يحبها ، أو رحم يصلها .

لكن شيئاً من هذا لا يذكر أبداً عند اقتياده إلى ساحة الموت .

إن الجرم الذى ارتكبه أقطع ، وأشنع من أن تذكر بجانبه حسنة !! ألم يخن وطنه ؟

إن خيانة قطعة من الأرض تسمى الوطن ، جريمة أهون من خيانة رب الأرض كلها . أهون من الكفر بالله رب العالمين .

إن الحضارة المادية التى صدعت اليقين فى القلوب هونت من شأن الإيمان وجعلت الناس ينحنون لأقوام حاربوا الله والمرسلين ، وربما أعجبوا بهم .

بيد أننا لا نفقد عقلنا ، ولا وزننا للأمور إذا اختلت موازين الناس وطاشت ألبابهم .
إن إنكار الألوهية جريمة كبرى ، وإذا تلطخ بهذه الرذيلة أحد فهو فى نظرنا
شخص نجس .

ونحن نعامل الأحياء والأموات على ضوء هذا الحكم الحاسم .
نعم نحن فى ميادين الدعوة إلى الله نعذر الجاهلين ، وتلطف مع غير المسلمين ،
بل إننا مأمورون أن نبرأ أهل الذمة ، ونقسط إليهم لكن تقرير الحقائق شئ والنظر
فى أحوال الجاهلين بها ، والصادين عنها ، والخارجين عليها شئ آخر .
فى ميدان التعليم والتربية لا خلط بين الإيمان والإلحاد ، ولا بين الشرك والتوحيد .
يجب إحقاق الحق ، وإبطال الباطل بصرامة .

يجب أن يقال : إن الصدق فضيلة ، وإن الكذب رذيلة دون مواربة ، ويجب أن
يحترم الصادقون ، ويزدرى الكاذبون .
وقد يحدث أن نلقى فى ساحات الحياة أقواماً مرضى يحتاج علاجهم إلى أناة
وسياسة وحكمة ، حتى نسوق لهم الشفاء الذى حرّموا منه .
بل قد نحتاج إلى أمد بعيد حتى نقنعهم بما فى أبدانهم من مرض وما فى
كيانهم من جرائم .
وإدارة الأمر مع هؤلاء لا يعنى بتأثراً أن تنقلب الحقائق ، وتعوج المقاييس فالمؤمن
مؤمن والكافر كافر .
وعقبى هؤلاء الجنة وعقبى أولئك النار ، ولا كلام .

وترسيخاً لهذه المعانى فى النفوس أمر الله أن نذكر الضالين بعاقبتهم التى لا محيص
عنها فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمران : ٢١) .
وقال : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء : ١٣٨) .
ولهذا التبشير أحيانه ومناسباته التى يساق فيها ، ولكن روى الطبرانى عن
رسول الله ﷺ أنه قال : «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار» .

وقد صحح المحدث الكبير الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني هذا الحديث .
ويبدو أن في عصرنا هذا ما يستدعى التذكير به ، إنك ترى رجالا كبارا وصغارا
يزورون أوروبا مثلا فيقصدون أول ما يقصدون إلى قبر الجندي المجهول .
ونحن لا نعرف من هذا الجندي ، ولا نحزم بمسيره فربما كان ممن لم تبلغهم الدعوة
فمات جاهلا .

ولكنه على كل حال يمثل قومه الذين دفن بينهم ، فإن كان في شرق أوروبا فهناك
يقولون : لا إله ، وإن كان في غربها فالآلهة ثلاثة!!!
وهؤلاء الجنود - في أغلب الظن معادين لنا - نحن المستضعفين في الشرق - لولا
أن شغل الله بعضهم ببعض .

ترى ما الذي يجعل رجالنا يقدسون هؤلاء؟ أهو تقديس للجحود أو للتثليث
أو للاعتداء الذي لولا القدر لكنا ضحاياهم .

لندع هذه الفروض ، ولننقل هنا كلام الشيخ ناصر في شرح الحديث السابق قال :
«وفي هذا الحديث فائدة مهمة أغفلتها كل كتب الفقه ، ألا وهي مشروعية
تبشير الكافر بالنار إذا مر بقبره ، ولا يخفى ما في هذا التشريع من إيقاظ المؤمن
وتذكيره بخطورة جرم هذا الكافر حيث ارتكب ذنبا عظيما تهون ذنوب الدنيا كلها
تجاهه ولو اجتمعت ، وهو الكفر بالله عز وجل والإشراك به الذي أبان الله تعالى
عن شدة مقتته إياه حين استثناه من المغفرة فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء : ١١٦) » .

ولهذا قال - ﷺ - : «أكبر الكبائر أن تجعل لله ندا وقد خلقك» متفق عليه .
إن الجهل بهذه الفائدة أودى ببعض المسلمين إلى الوقوع في خلاف ما أراد
الشارع الحكيم منهم ، فإننا نعلم أن كثيرا من المسلمين يأتون بلاد الكفر لقضاء
بعض المصالح الخاصة أو العامة ، فلا يكتفون بذلك حتى يقصدوا زيارة بعض قبور
من يسمونهم بعضمهم الرجال من الكفار ويضعون على قبورهم الأزهار والأكاليل
ويقفون أمامها خاشعين محزونين ، مما يشعر برضاهم عنهم وعدم مقتهم إياهم ، مع
أن الأسوة الحسنة بالأنبياء عليهم السلام تقضى بخلاف ذلك كما ثبت في هذا

الحديث الصحيح ، واسمع قول الله عز وجل : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا
بَكُمْ وَبِذَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ (المتحنة : ٤) .

هذا موقفهم منهم وهم أحياء ، فكيف وهم أموات؟

عن ابن عمر أنه رضي الله عنه قال لما مر بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم
المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين . فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن
يصيبكم ما أصابهم »^(١) .

(١) البخارى .

جهاد النفس

السمة الملحوظة لأهل زماننا أنهم راضون عن أنفسهم مسارعون فى أهوائها ، وهم يرون أن رغباتهم المادية والمعنوية ينبغى أن تحجب ، وأن تزال من أمامها العوائق . وعلى ضوء هذا رأى يرسلون أحكامهم على الأشخاص والأشياء ، وتكون مذاهبهم الاجتماعية والسياسية .

وقد أسهمت بحوث علم النفس فى سوق الجماهير إلى هذا الاتجاه خشية ما يسمونه « بالعقد » .

فشاع تدليل الطفولة فى ميدان التربية ، وشاع بعد ذلك ترك الغرائز المختلفة تتلمس طريقها فى الحياة دون حرج أو دون رهبة .

ولانت الشرائع أمام هذا السلوك المقتحم الماضى فى طريقه لا يلوى على شىء . . !

وتغيرت مفاهيم الأدب وضوابط الخلق فى أرجاء شتى كى تتجاوب مع لون هذه الحياة الجديدة .

ولسنا بصدد البحث عن أسباب هذا الاضطراب العام ، وكل ما نبغى هنا أن نجدد حدود الحق التى درست ونقف الناس عندها .

نريد تحسين الحسن وتقبيح القبيح وفق منطق الدين وهدى الوحي ، ثم نسوس النفوس لتألف ما هو حسن وتذر ما هو قبيح ، وتعلم أن اكتمالها ومرضاة الله عنها فى التزام هذا وحده .

فى مقدمة ما يكفل للنفوس صلاحها أداء العبادات التى افترض الله عليها مهما شقت .

فالصلاة مثلاً عمل رتيب موصول متجدد ما بقى الليل والنهار ، وهو عمل ينبغى له قهر كل عذر ، وترك كل شغل .

وهذا يتقل على أحلاس اللهو وعشاق الحياة ، فإن الصلاة بين الحين والحين تنزعهم انتزاعاً ما يأنسون إليه من متاع ومرح ؛ أو مما يغرقون فيه من كدح واحتراف .
ولذلك قال الله في وصفها : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ (البقرة : ٤٥ ، ٤٦)

ومجاهدة النفس لأداء هذه الصلوات الموقوتة أساس متين للكمال المنشود وكذلك القيام بجميع الطاعات التي أمر الإسلام بها ، فإن هذه الطاعات مدارج الكمال المنشود ، ومراحل الطريق إلى سمو الروح ، ورضوان الله .
حاجة النفس الإنسانية إلى التهذيب والتزكية مثل أو أشد من حاجة العقل إلى الصقل والتثقيف .

ونحن فى هذا العصر ننظم مراحل التعليم فنقدر سننى الدراسة من عشرة إلى عشرين سنة كى نحصل على عقل مستنير مزود بقدر محترم من المعارف التى تجعله يحسن الإدراك والحكم .

أفتظن النفس تفتقر إلى أقل من هذا الأمد كى تستقيم طباعها وتعتدل ميولها ، وتضبط شهواتها وتتكون لديها القدرة على التسامى ومحبة الفضيلة والشرف ؟ .
إن تغليب العفة على الشره يحتاج إلى جهاد طويل .

فإذا كان المراد أن تبلغ النفس درجة تحب فيها الخير وتستلذه ، وتكره فيها الشر وتزدرئه فالأمر بحاجة إلى مران أطول ، مران يلتقى فيه كفاح الإنسان نحو الكمال ، والتوفيق الإلهى لبلوغ الشاؤ المقصود .

وبذلك يكون الإنسان ممن عنتهم الآية الكريمة : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (٧)
فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ (الحجرات : ٧ ، ٨) .

ونحن نلاحظ فى كثير من الأحيان أن بعض الناس تفسد نفسه فساداً لا تستطيع معه أن تستبين الحق ، بله أن تتبعه ، وربما استمرأت العيش فى الأباطيل والجهالات كما يستمرئ جامعو القمامة العيش بين الفضلات والأقذار ما تركهم روائحها ولا تؤذيهم مقابحها . . !!

وهذا الانتكاس قاتل للضمائر والأخلاق ، موغل بأصحابه فى ليل ليس له فجر .

وكم يدعو المرء - وهو يرقب هؤلاء الشاردين فى بيداء الحياة - : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه . . .

والشهوات التى تحتاج إلى رقابة وضبط زمام كثيرة ، وهى متفاوتة الحدة فى أحاد الناس ، ولكن أصولها ناشبة فى حياتهم على العموم .

هناك حب النفس ، وحب النساء ، وحب المال ، وحب الظهور ، هذه مثلاً غرائز ما يخلو البشر من مبادئها .

وقد تجدد البعض فى حبه لنفسه لا يبصر غيرها ، ولا يتحرك إلا بهواجس الأثرة وحدها .

وقد تجدد آخر مقتوناً بالثراء ، يدأب ليله ونهاره فى جمع المال ، يعشقه لذاته دون رغبة فى بذله مهما تطلبت الحقوق .

وقد تجدد امرأة على حاجته إلى المال يبذله كى يذكر اسمه ويذيع صيته ، أو هو فى سبيل سمعته يتسلق الوعر ويتوسد الجمر .

ومن الناس من يهيم وراء الغيد كأنه ظمآن لا يجد الرى أبداً .

وعلى مبادئ هذه الغرائز تعتمد الحياة الإنسانية فى بقائها ونشاطها ، ومن طيش هذه الغرائز تفسد الأرض ، وينتشر الهرج والمرج ، وتصاب الأعراض ، وتسفك الدماء .

ألا ترى القليل من الماء يتناوله الإنسان فيذهب الظمأ وتبتل العروق ، فإذا صار لجة ووقع الإنسان فى مدها كتمت أنفاسه ، وزحمت أمعاءه ، وأزهقت روحه ؟ .
وعلى طول الخط الطويل الممتد من المهد إلى اللحد يواجه الإنسان أموراً شتى تحتاج إلى فؤاد صاح وبصيرة نيرة ، فإن اشتباك النفس بهموم الرزق ، وفتون الناس ، وتلقيها ألوان الوسواس ، وتأرجحها بين جواذب اليمين واليسار ، وفقرها إلى استجماع قوى كثيرة كى تحقق الخير ، وكى تصد الشر ، ذلك كله يستدعى جهاداً متصل الحلقات .

ولن ينجح الإنسان في هذا الجهاد إلا إذا مرّن على عصيان هواه ومضى قدما على الصراط المستقيم جلدا مثابرا لا يقعه إعياء ولا يرده استرخاء . . .
وقد حذر الله خيرة خلقه من الهوى ، وبين أن اتباعه حجاب عن الله ، ومزقة عن الحق .

انظر ما قال لداود عليه السلام : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص : ٢٦) .

ويقول الله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة : ١٢٠) .

ويقول : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية : ١٨) .

ويقول : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة : ٤٨)

ويصف الكافرين بأن أهواءهم هي التي سولت لهم الزور وزينت لهم الجهل : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (الروم : ٢٩) .

بل يكشف أن كثيراً من الناس يرين على قلوبهم الهوى ، ويكمن وراء أقوالهم وأعمالهم وأحكامهم ، وينسج على حواسهم غشاوة محكمة فلا يرون ولا يسمعون إلا ما ينبع من طواياهم ، أى أنهم لا يرون الحياة الخارجية على حقيقتها ، بل يرونها من خلال تفكيرهم الخاص ، كما ترى الجو أزرق من خلال زجاجة زرقاء .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ (الفرقان : ٤٣ ، ٤٤) .

إن البهيمية مذهب معروف عند كثير من الخلق ، وهو أقصر طريق إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

إنه لا يكلف أصحابه إلا حب الراحة ، وطلب اللذة ، والاحتفاء بالنزوات العابرة والاهتياج مع الشهوات الفائرة ، وإبداء الرأى دون عقل ، وإرسال الحكم دون عدل ، وتفضيل عاجل رخيص على أجل غال .

وقد حدد القرآن مصير هذا السلوك بجلاء ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿ (النازعات : ٣٧ - ٤١) .

وتقوم جهاد ما لا ينظر فيه إلى مقدار ما يبذل من تعب ، وإنما ينظر فيه قبل كل شىء إلى نية المقارنة والغاية المقصودة .

فإن اللص يسهر الليل ليختل النائمين ، والشرطى يسهر الليل يحرس الأمن لقاء راتب معهود ، والمتهجد يهجر فراشه ويدع لذيد الرقاد لا لشىء إلا ليعبد ربه فى هدوء وصفاء ، ويتدبر آياته فى خشوع ورجاء ، مرتقبا فى الآخرة ثمار ما يغرس فى الدنيا : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٦٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (السجدة : ١٦ ، ١٧) .

إن سهر هؤلاء الثلاثة واحد والفرق بينهم شاسع .
فأما الأول فمجرم يستحق العقوبة بما بيت من إثم .
وأما الثانى فأجير يؤدى واجبه بثمن لو تأخر عنه قليلا لسخط وترك ما كلف به .
وأما الأخير فرجل مؤمن بالغيب والشهادة . يعرف ما يعمل ، ولمن يعمل ؟ .
ومن هنا فنحن لا نكثر لكل جهاد نفسى ، ولا لكل عناء يتجشمه البشر ، ما لم يكن جهادا رشيدا محكوما بإطار من هدى السماء وصحة الأداء .
إنك تسمع عن فقراء الهنود ، وعن ساستهم ، قصص الصيام الطويل المضى .
وهذا من غير شك إرهاب للبدن تسانده عزيمة شديدة ، وإرادة غالبة .
ومع تقديرنا المجرد لقوة العزم وتماسك الإرادة لا نرى فى هذا المسلك ما يستحق التنويه والحمد .

ولو أن أحدهم دفن نفسه فى الرغام شهورا - كما يروون - ما أبهنا كثيرا ولا قليلا لهذه الحكايات .

وهى عندنا تساوى استعراض العضلات الذى يقوم به فتیان الرياضة البدنية غاية ما هنالك من فرق أن هذا بالزائد . وذاك بالناقص .

هذا استعراض شعب ، وذاك استعراض جوع ، وفى كلا الفريقين استعداد طبيعى لما برع فيه .

وهذا وذاك ليسا الجهاد النفسى الذى أقره الإسلام .

ومن الرهبان من يحيا أمادا طويلة وهو محروم من طيبات الحياة ، ومن يجاهد نفسه جهادا شاقا وهو يحملها على ما تكره .

ولكن ضلاله عن الحق ، وجهله بالله الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، يجعل كل متاعبه تذهب سدى .

ولن يزيد فيما يعانى ، عن فقراء الهند الذين شرحنا حالتهم آنفا .

ولكى يكون الجهاد النفسى صادقا لابد أن يجرى تنفيذا لخطه رسمتها الشريعة ، وبينت معاملها بوضوح . ومن هنا فالجهاد المقبول لا موضع له إلا إذا كان انتهاء عن حرام أو انتهاضا إلى واجب .

الجهاد المقبول هو الذى يسبك النفس فى بوتقته لتصفو من درنها ثم تصاغ وفق القلب الذى أراده الله لها .

الجهاد المقبول هو الذى يستهدف وجه الله فى كل حركة ويتحرى حكمه فى كل وجه . وكل جهاد نهى صلته بالله فهو مردود على أصحابه . . .

إشباع الشهوات

لقد كان من أثر انتشار المذاهب المادية فى عصرنا الحاضر أن تغيرت القيم الخلقية تغيراً كبيراً وأصبحت الفضائل النفسية عند كثير من الناس عبثاً لا ضرورة له ، بل عبثاً ينبغى الخلاص منه ، وترك النفوس تسترسل مع هواها دون معاناة لكبته . . . واستوعر الشباب ارتقاء المعالى وتسئم الكمال ، وليتهم - لما أخلدت بهم أهواؤهم إلى الأرض - اعترفوا بالقصور ، وتواروا بخزيهم .

لا ، إنهم شرعوا يهونون من شأن الخلال الكريمة التى عجزوا عن تحصيلها ، وراحوا يصفونها بأنها قيود على الطبيعة البشرية تورث الضرر والاكتئاب . . !! ومن هنا كانت السمة البارزة فى عصرنا المسارعة فى إشباع الهوى ، واسترضاء الغرائز الدنيا حتى تروى .

ورى هذه الغرائز- عن طريق الحرام - لا يزيدها إلا ضراوة ، فهى تطلب المزيد دون أن تدرك الشبع .

والمجتمع البشرى الذى تدور حركاته على هذا المحور مجتمع طافح الإثم سىء العقبى ، تطيش به نوازع الشره والأثرة ، وتتولد فيه مشاعر الحسد والبغضاء ، وقلما ينجو من إثارة الفساد وسفك الدماء .

وتلك آفة الحضارة بعدما زهدت فى الدين ، وتبرمت بتعاليمه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿ (محمد : ٢٢ ، ٢٣) .

والحق أن اتباع الهوى إن كان يطمس على حواس الأفراد ، فهو على المجتمعات الضالة - يضرب ليلاً طويل الظلام ، بارد الأنفاس ، بعيد الفجر . . .

ونريد أن نسارع إلى نفى شبهة تروج عند الجاهلين بالإسلام ، هى أنه يحرم الناس أموراً كثيرة ، ما تطيب الحياة إلا بها ، ويعترض رغبات شتى ما يستريح الخلق إلا بإشباعها . . .

وهذا خطأ فإن الإسلام ما حرم طيبا ولا حظر خيرا ، وكل ما تعتدل به الطبيعة البشرية وتستقيم فهو مباح لها .

إن الله ما حرم على الناس إلا ما علم أنه يزيغ بهم عن الصراط ، ويتسارع بهم إلى الشر .

والإسلام لم ينكر قط الطبيعة المادية للإنسان ، ولا حقوق الفترة التي يقضيها على ظهر هذه الأرض .

غاية ما صنع أنه ذكر الإنسان بأنه مادة وروح ، وأن صلته بالسماء أعرق من صلته بالأرض ، ولذلك ينبغي أن يربها ، وأن يلتزم مطالبتها . . . !!

وفى أثناء وفاته بحقوق هذه الصلة العليا سوف تنازعه نفسه أن يتنكر لها ، وأن يتمرد عليها ، وهنا يجب أن يكبح جماحها ، وأن يكرهها على قبول ما يضايقها . ومجاهدة النفس فى هذا المضمار خلق لا ينفك عن مؤمن ، ولا يسوغ استئثار أمره أو الترخص فيه .

وإنما ترتفع منازل المؤمنين ويتألق جبين أهل التقوى ، بمقدار انتصارهم على شهواتهم وامتلاكهم لزمام رغباتهم . . .

إن العراك الباطنى لا ضجيج له ، ولا سلاح فيه ، ولكن هذا العراك أخطر فى نتائجه من المعارك التى تنتثر فيها الأشلاء ، وتبدل فيها الدماء .

ذلك ، لأن جهاد النفس هو الطريق الحقيقى لبلوغ القمم التى تجعل الإنسان يحتضن المثل العليا ، ويبذل دونها النفس والنفيس ، وقد جاء فى الأثر أن الرسول ﷺ قال عقب العودة من إحدى غزواته : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١) .

قال عمر بن الخطاب : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم قبل يوم القيامة ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾»

(الحاقة : ١٨) .

وعن الحسن قال : «إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

(١) لم أجده حديثا صحيحا فوضعت بأنه أثر . . . وحسب .

إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات ، حيل بينى وبينك .
ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى ولهذا ،
والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم .
إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقى
الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ، ولسانه وجوارحه» .
وعن الحسن ، فى وصية لقمان لابنه : «يا بنى إن الإيمان قائد ، والعمل سائق ،
والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرنت ، فإذا
اجتمعا استقامتا .

إن النفس إذا أُطِمِعَتْ طمعت ، وإذا فَوَّضَتْ إليها أساءت ، وإذا حملتها
على أمر الله صلحت ، وإذا تركت الأمر إليها فسدت .
واحذر نفسك واتهمها على دينك ، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها ،
ولا بد له منها .

وإن الحكيم يذل نفسه بالمكاره ، حتى تعترف بالحق ، وإن الأحقق يخير نفسه
فى الأخلاق ، فما أحببت منها أحب ، وما كرهت منها كره» .

وحدثنا أبو عبيد الناجى أنه سمع الحسن يقول : حادثوا هذه القلوب فإنها
سريعة الدثور ، وأقرعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شر غاية .

وإنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئا ، فتصبروا وتشددوا ، فإنما
هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف ، ويوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا
يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم :

إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم وإنما صبر على هذا
الحق من عرف فضله ، ورجا عاقبته . . .

من تجارب المربين

فى تراثنا الثقافى القديم دراسات جيدة للنفس الإنسانية ، وكيف تخلص من أدوائها ، وكيف تمضى فى طريقها إلى الله منقاة مشرقة .

وعيب هذه الدراسات أنها كعروق الذهب فى باطن الصخور ، لا تحصل عليها إلا بعد عناء ، وتدبير ، وإعمال حيلة !

وقد تراكم عليها فى عصور الضعف العلمى والسياسى ما جعل أمرها يزداد تعقيداً ، حتى ليخيل للبعض أن النتائج التى يعود بها الباحث أقل قيمة من مخاطر الطلب ، بل إن هذه النتائج نفسها قد تفهم على غير طبيعتها ، ومن ثم فالزهد فيها أولى . ونحن لا نريد إطراح ثقافتنا التقليدية ، أو جزء منها للمتاعب والظنون المتوقعة .

ومن أجل ذلك رأينا أن ننظر فى كتب التصوف ، وأن ننتقى من كلمات القوم ما نظنه مصدر نفع كريم .

وفى هذا الفصل نضع بين يدى القارئ كلمات لابن عطاء الله السكندرى مجردة من الشروح التى أحاطت بها ، إذ أن هذه الشروح للأسف فيها باطل كثير .

وسأتولى شرحها بإيجاز ، فى حدود ما توحى به الكلمات ، وعلى ضوء المعروف من تعاليم الإسلام . راجياً أن تكون هذه الكلمات الحكيمة إيناساً لمن يأخذون أنفسهم بضروب التربية ، ووصفاً لمعالم الطريق من أناس خبراء بها مهرة فيها .

التعب الضائع

«اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصير» .
لك حقوق وعليك واجبات ، وكثير من الناس يطلب بإلحاح ما له من حقوق ، بل يطلب بإلحاح ما يرى أنه حق له . أما الواجبات التي عليه يقينا فهو يماري فيها حيناً ، ويؤديها بكسل واسترخاء وينحس حيناً آخر ، وربما جحدها . . .
وهذا الطراز من الناس – وما أكثره بيننا – أدنى إلى الدواب التي لا تحس إلا ما تحتاج إليه ، فأما ما تكلف به فهي لا تعرفه إلا من لدع السياط . . .
فإذا تجاوزت ما يتعامل به الناس من حقوق وواجبات إلى العلاقة بين الناس ورب الناس وجدت الأمر أنكى .

الناس وراء لقمة الخبز يكاد يصيبهم مس ، مع أن الله لو وكل رزق الخلائق إلى قواها لبادت .
إنه ضمن الأرزاق لعباده ، وأجرى مصادرها بين أيديهم رخاء .
ومع هذا فهم مكروبون في طلب العيش الذي كفل لهم ، أما إحسان الصلة بالله وتوجيه الفكرة إليه ، والتعاون مع الآخرين على إقامة دينه والتزام حدوده فهو ما يقصرون فيه ، أو ينصرفون عنه .

إن الله أراحهم من هموم الرزق ، وكلفهم بشئون العبادة ، فتكلفوا هم هموم الرزق واستراحوا من شئون العبادة .

الله يقول : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه : ١٣٢) .

وهؤلاء يصيحبون ، وأهلوم معهم الخبز ، الخبز . . !! ، ناسين الله وناسين وعده بالإغناء والتيسير ، لا شغل لهم إلا طلب الدنيا .

وهذه الدنيا نفسها لا تحيى إلا من لدن الله الذي تركوه . . !!

ما تقول في امرئ يتقاعس عندما يحتاج الأمر إلى همة ونشاط ، ويهتم وينشط عندما يكون الأمر قريبا من أصابعه؟ .

إن هذا المسلك مع الله دليل انطماس في البصيرة .

استعمال الشهرة

«ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه» .

هذه الكلمة أفضل توجيه لمن يريدون الظهور على عجل ، ومن يتوهمون أن نصيبا قليلا من المعرفة والخبرة كاف فى الترشيح لقيادة الجماهير ، والصدارة بين الناس ، وهؤلاء فى الحياة لا حصر لهم .

إن منصب الإمامة فى آفاق الدنيا أو فى آفاق الدين يتطلب صبر السنين ، وتغصين الجبين .

فليصنع المرء نفسه أولا فى عزلة وفى صمت وفى تؤدة ، كالشجرة التى يختفى أصلها فى ظلمة التراب أمدًا تتكون فيه التكون الصحيح ، ثم تبدأ تنشق طريقها إلى الهواء والضوء .

ما ضر الشباب أن يتواروا قليلا أو كثيرا فلا يطلعوا على الناس إلا بعد أن تكتمل ملكاتهم؟ .

إنك ترى الواحد يكتب عدة مقالات فيحسب نفسه من قادة الفكر ، أو يحسن بضعة أعمال فيزعم نفسه من ساسة العالم ، ولو أثر «الخمول» فترة ينضج فيها لكان خيرا له .

ثم من الإيمان - إذا استويت - أن تقوم بما عليك لله - لا للظهور ، فإن الذى يطلب وجوه الناس يسقط من عين الله .

فاحذر على نفسك أمرين : أن تنزع إلى البروز قبل استكمال المؤهلات المطلوبة ، وأن تستكمل هذه المؤهلات لتلفت بها أنظار الناس إليك .

تسليم لله

«ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه» .
لا تحسبن القدر يجرى وفق هواك : إن وراء الواقع الذى نهش له أو نضيق به
حكما عليا تجعل الحوادث تسير ، وهى لا صلة لها برضانا أو سخطنا . . .
فمن أراد تغيير قدر غالب ، وأحب تقديم شىء أخره الله ، أو تأخير شىء قدمه
الله ، فهو ينطح الصخر ، ولن يستفيد من ذلك إلا تصديع رأسه .
والعاقل يرسم خطته على أن ما حدث حقيقة لا مناص من الاعتراف بها ثم
يبنى سلوكه بعد ذلك وفق ما يشير به الحزم ، ويوحى به السداد . . .
وخير للمرء أن يتهم هواه من أن يسخط على الزمن .
وأستطيع - على ضوء تجاربى - أن أؤكد لغيرى هذه الخلاصة ، وهى أن أكثر ما
نفعنى كان مما ضقت به بآدى رأى ، وأن الآلام المزعجة والشدائد الباهظة هى التى
فتقت العقل ونمت المواهب وأمأطت النقاب عما تجهل من شئون وشجون وصدق
الله العظيم ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

من خداع الشيطان

«إحالتك لتلك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس» .
التسويق خدعة النفس العاجزة والهمة القاعدة . ومن عجز عن امتلاك يومه فهو عن امتلاك غده أعجز .

والتسويق يجيء غالبا من امتداد الأفكار البالية التي يجب الفكاك منها على عجل ، ومن طغيان الشهوات التي لا يجوز لمسلم أن يستسلم لها ، ويتراخى معها .
إن إرجاء المعركة مع الهوى الغالب ، اعتراف بالعجز عن مقاومته .

ومن الرجولة أن يبدأ المرء - اليوم قبل الغد ، والصباح قبل الأصيل - هجومه على المثبطات والعوائق ، وأن يكتسحها من طريقه اكتساحا ، دون إبطاء أو تهيب ، وكل تسويق لا نتيجة له إلا إطالة عمر الشر وتقصير عمر الخير في حياة الإنسان ، فانظر المصير مع قول الله : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾
(آل عمران : ٣٠)

﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة : ١٣) .

وفى الحديث : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ»^(١) .

ثَقَفِي رِبِكَ

«ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك . . .» .

عندما خاض المسلمون معركة بدر كانوا يحسون أن القتال فرض عليهم دون أن يأخذوا له أهفته الواجبة ، فكان اعتمادهم على الله شديدا ، والتماسهم عونَه بالغا .

وتضاءل شعورهم بأنفسهم حتى استخفى ، وتضاعف ذكرهم لله حتى لكان الله هو الذى يدير المعركة ، وكأن خيلهم ورجلهم أدوات المشيئة العليا .

من أجل ذلك جاءت نتيجة المعركة نصرا باهرا للذين خاضوها باسم الله ، وجاء فى وصف أدوارها ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال : ١٧)

والحق أن المرء يكون قوة غالبية عندما يعمل ، وهو يستمد من الله العزم والجهد والتوفيق والنجاح .

وقد كان رسول الله يلقي الأعداء بهذا الروح المستظهر ببأس الله وحده ، فكان يقول : « اللهم بك أصول وبك أجول وبك أقاتل . اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم »^(١) .

أما إذا شمع الإنسان بحوله وطوله ، وأنس بما أعد ، وذهل عن الله الذى تصير إليه الأمور ، المهيمن على زمام الحياة ، فإن النتائج تفجؤه بما لا يتوقع .

استراح المسلمون لكثرتهم فى معركة حنين وقالوا : لن نغلب اليوم عن قلة ونظر بعضهم إلى بعض فلم يروا إلا كتائب معبأة لا يثبت لسلطوتها أحد .

فتبخر اعتمادهم على السماء ، ولم يرتقبوا النصر إلا من عند أنفسهم .

(١) أبو داود .

شتان بين هذا الشعور الذاهل الكليل وبين الشعور الذى غمر سرائرهم فى معركة بدر . فماذا كانت النتيجة ؟ .

يقول الله فى كتابه : ﴿... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة : ٢٥) .
هذه عقبة الاغترار بالنفس والذهول عن الله .

وهى العقبة التى ذاق المسلمون مرارتها عند جبل أحد : ﴿أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّنِىْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .
إن التعويل على النفس مهما أحكمت الأمور واستكملت الأسباب لا يفتح أبواب الخير فما أكثر الثغرات فى جهد الإنسان ورأيه إذا أراد القدر خذلانه .
والواجب أن يستعين بالله فى كل شىء . فإن عونه إذا تخلف لم يغن عنه شىء .

بل سيكون الأمر على حد قول القائل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجنى عليه اجتهاده...

ومعنى طلبك الشىء بالله أن تضم «سببه القوى» إلى ما بيدك من أسباب ،
لا أن تكسل أو تفرط ، فإن الكسل والتفريط ليسا طلبا من الله ، بل هما عصيان لله
وخروج على سننه الكونية المقررة .

اليأس من الناس

«ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع» .

الإنسان يكون فى أشرف أحواله عندما يتبتل إلى الله ، فلا يرجو إلا جداه ولا يؤمل فيما سواه .

هذه الحالة تقوم على إدراك عقلى سديد لطبائع الأمور .

فماذا يرجو الفقير من فقير مثله ، وماذا يبغي العاجز من عاجز مثله .

إن المسلك الرشيد الوحيد ألا يقف المرء سائلا إلا بباب الله القوى الغنى ، أما أن يتولد فى نفسه رجاء عند ذى جاه من الخلق ، فهذا هو الحمق ، وما أحسن قول الشاعر :

ولس بالله إيمان وثيق فمن لكم بإيمان وثيق؟
قويت به فما أعيا بعبء ولا أشكو عثارا فى طريق
ولا أخشى المضرة من عدو ولا أرجو المبرة من صديق

وما طمعك فى بشر لو اعتدت عليه ذبابة لم يستطع الانتصار منها؟ .

إن جرثومة مرض ما - وهى أقل وأضال من الذبابة - تسلب الجبار من الخلق صحته ، فيحار كيف يستردها منها؟ .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج : ٧٣) .

والغريب أن الطمع فى العبيد خالط ألوف القلوب فأفسدها .

هذا عالم يتكلم بصوت خفيض وطرف كسير مع الحكام الجائرين .

ولو شاء لرفع صوته كالرعد ، ولكنه يهمس حيناً ويخرس أحيانا لأن بذور الطمع نمت فى نفسه فأذلته ...

إن تطلعه إلى ما يملك فلان من مال ، وإلى ما يهب فلان من جاه جعله يلين وينكسر وينكمش .

ولو أنه يش من عطاء الخلق ، وأنس بعطاء الخالق ، لكان أعز نفساً وأعلى رأساً .
وكم من أناس أزرى بهم طمع فى هذا وأمل فى ذاك .

وكم من حقوق طمست ، ومصالح عطلت؟ وأوضاع اعوجت بسبب أطماع نفسية محقورة .

والياس من الناس يحتاج إلى تدريب النفس على العفة والأنفة ، وعلى اكتفاء ذاتى يصدها عن التطلع إلى ما بأيدي الآخرين ، والاستغناء بالقليل الموجود عن الكثير المشتتهى .

قال محمد بن بشير :

وَأَجْتَرَى مِنْ كَثِيرِ الزَّادِ بِالْعُلُقِ	لأن أَرْجَى عِنْدَ الْعُرَى بِالْخُلُقِ
مَعْقُودَةً لِلنَّاسِ فِي عُنُقِي	خَيْرٌ وَأَكْرَمُ لِي مِنْ أَنْ أَرَى مِنْهُ
وَكُنْ مَالِي لَا يَقْوَى عَلَى خُلُقِي	إِنِّي وَإِنْ قَصُرَتْ عَنْ هِمَّتِي جِدَّتِي
عَارًا وَيُشْرِعُنِي فِي الْمَنَهْلِ الرَّيَقِ	لَتَارِكٍ كُلِّ أَمْرٍ كَانَ يَلْزِمُنِي

نقص القادرين على التمام

«ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك لمن هو أسوأ حالا منك» .
الأعور أحسن حالا من العميان ، ولكن العور ليسى كمالا فى الأجسام أو صحة فى الحواس .
ومن الناس من يقارن جهده المحدود بأعمال أهل البلادة ، أو علمه القليل بأفكار أهل الجهالة فيظن نفسه على شىء طائل ، وهو فى الحقيقة فقير إلى ما يكمل مواهبه ولكنه مخدوع .
إن النظر إلى أدنى حجاب قاطع ، أو هو عائق عن الرفعة المنشودة .
وإذا أحببت أن تقارن نفسك بغيرك فلا تنظر إلى الدهماء ثم تقول : أنا أفضل حالا ، بل انظر إلى العلية ثم قل : لماذا أقصر عنهم؟ يجب أن أمضى فى الطريق ، ومن سار على الدرب وصل ...
كثير من الأذكياء وقفهم فى منتصف الطريق أو فى مبادئه أنهم صحبوا نفرا من القاصرين والعجزة ، فغرههم ذلك بأنفسهم وستر عنهم ما كمن فيهم من نقص أو أخفى عنهم ما يطيقونه من درجات الكمال لو نشطوا .
وهذه الصحة وبال على الإنسان ، لأنها قيدت الهمة وثلت الطموح .
ولذلك ينصح ابن عطاء الله قبل ذلك فيقول : « لا تصاحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ... » .

أحذرك نفسك

«أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة وبقظة وعفة عدم الرضا عنها ، لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟»

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض ، أما من أصيب بعلّة فلم يشعر بها ولم يستشف منها ، فإن جراثيمها تستشري فى أوصاله حتى تأتى عليه . وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء والشعور بالنقص أول مراحل الكمال .

وقد قال الله تعالى على لسان أحد أنبيائه المطهرين : ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف : ٥٣) .

فإذا وجدت امرأة راضياً عن نفسه فافقد فيه الأمل ، لأنه ينطوى على ركام من العيوب والنقائص وهو لا يلتصق بالخلوص منها بل إنه فاقد الشعور بوضاعتها . وهيهات لمثل هذا اكتمال أو نجاة .

والعلم النظرى لا يرفع قدر أصحابه ، فأى قيمة لشخص يختزن فى رأسه قدرًا من المعلومات ولكن نفسه طافحة بأثام لم تعالج وخشونة لم تهذب ، ثم هو - مع ما يختزن من معرفة - لا يدرك أنه عليل .

مثل هؤلاء يكون علمهم آفة ، لأنه يقوى جهالاتهم ولا يزيلها ، ويغرمهم بما أوتوا بدلاً من أن يزيل من أنفسهم ما يسوءها .

وأفضل من هؤلاء رجل قليل المعرفة عميق الإخلاص كثير التفتيش عن عيوبه مجتهد فى تركية نفسه وترقية أحواله ، وإن هذا أرجى عاقبة وأرقى عاجلة من العلماء الكبار إذا رضوا عن أنفسهم ، وغفلوا عن إصلاحها . . .

الاستكانة لله

«ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك الذنب فكان سبب الوصول . معصية أورثت ذلا وانكسارا خيرا من طاعة أورثت عزاء واستكبارا» .

قدما وحديثا ضاق العلماء الراسخون بنفر من أهل العبادة يحسنون الشكل ولا يحسنون الموضوع ، يكثرلون التصويب ولا يصيبون الهدف ، يقيمون الظواهر بدقة ولا يدركون من الحقائق شيئا ...

هؤلاء الناس كانوا قدما وحديثا حجة على الدين لا سنادا له وعوائق تصد عن العبادات لا شواهد تدعو لها وتغري بها .

يصلون ، أفندري كيف خرجت صلاتهم منهم؟ .

«خرجت - كما يقول الرسول ﷺ في وصف صاحبها - وهى سوداء مظلمة ، تقول ضيعك الله كما ضيعتنى ، حتى إذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ، ثم ضرب بها وجهه»^(١) .

ويصومون ، أفندري ما قيمة صيامهم؟ .

هى كما قال الرسول ﷺ : «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»^(٢) .

إن العبادة جسم وروح ، والقبول الإلهي يكون لمن قدمها حية لا ميتة .

ولذلك روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه»^(٣) .

وعن ابن عباس مرفوعا : «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان . من أوفى استوفى»^(٤) .

(٢) ابن ماجه .

(٤) البيهقي .

(١) الطبراني .

(٣) مسند الفردوسي .

وإحسان الشكل قليل الغناء على صاحبه وعلى الناس .
أعرف بعض الفلاحين تصيبه الجنابة فيذهب إلى إحدى الترع فيغمر جسمه
فى الماء ثم يخرج منه وقد طهر! .
فإذا ما اقترب منك شممت منه رائحة منفرة لما تراكم على جسمه من
درن وعرق .

ما جدوى هذا الغسل الذى لم يذهب وسخا ، ولم يصف على صاحبه وضاءة ،
ولم يمهده بين الناس قبولا ؟ .

كذلك الطاعات التى يؤديها بعض الناس بهذا الأسلوب ، ربما استكملت
المراسيم الشكلية ، ولكنها فقدت حقيقتها وثمرتها ، ومن ثم لا تحظى بشيء طائل
عند الله .

والأساس فى الطاعة أنها تجعل الإنسان يتحقق بأوصاف عبوديته بين يدي ربه ،
ومع صنوف الخلق .

والعبودية تنافى الصلف والغطرسة والجفوة ، لأنها تواضع ولين جانب
وسهولة خلق .

وقد تجد ناسا من الموسمين بالعبادة يتذرعون بما يؤدون من طاعات للاستعلاء
على الخلق ، والغض من الآخرين ، على حين تجد ناسا ليسوا على غرارهم أسلس
قيادا ، وألين عريكة .

وربما ارتكب أحدهم الذنب فيفزع لارتكابه ، وينكسر فؤاده مع الله لما فرط
فى جنبه .

ولعل استشعاره الخزي على فعلته ، وإكثانه الألم فى أوبته يجعلانه أدنى إلى
الحق وأقرب إلى مشوبة الله - بهذا الذنب - من أولئك الذين لم يستفيدوا من
طاعتهم إلا الجلافة والقسوة .

وغريب أن يقع فى السلوك الإنسانى هذا التفاوت ولكنه موقف الناس مما أمروا
به ونهوا عنه !! .

إن الله شرع العبادات ليتواضع العباد بها لا ليستكبروا ، وليستقبلوا بها رحمة ،

ثم يلقوا بها سائر الخلق وفي قلوبهم رقة ، وفي نفوسهم وداعة ، وفي سيرتهم طيبة .
فإذا وجدت من العابدين من ينقطع دون هذه الغاية ، فهو لم يعبد حقاً ، ولم يدرك قبولاً .

وقد كره الله المعاصي وحرمها على الناس ، وسعر جهنم لمقترفيها .
ومع ذلك فإن بعض الناس تكون المعصية وخزاً لضميره النائم وحزناً ينقذف في قلبه فإذا هو دافع العين متهيب لبطش الله به .

إن تهيب هذا العاصي أفضل من كبرياء ذلكم العابد .
وعلى ضوء هذا الكلام تفهم ما حدث به رسول الله ﷺ : «قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان! فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى على ألا أغفر لفلان؟ إنى قد غفرت له وأحببت عملك»^(١)!!!

ولا يذهبن أحد إلى أن هذا تهوين من شأن العبادة ، كلا إنه حماية للعبادة الحقيقية ، وزرابة على العبادة المزيفة ، وتعليم للعباد ألا يغتروا بأنفسهم وبما قدموا .
وتحريض لهم أن يتعلقوا بذات الله ، وأن يكونوا كما وصف الصالحين من عباده : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون : ٦٠)

كما أن الذنوب لا يمكن أن تكون موضع رضا ، بل هي سبب حقيقى لخزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ولكن الذنوب التى تؤرق أصحابها ، وتقض مضاجعهم ، وتسرع بهم إلى المتاب ، لا تعد ذنوباً بعد ما غسلها الندم ، وتحولت إلى حاد يحث الركاب إلى رب الأرباب .

المحبوسون في سجن المادة

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذى ارحل إليه هو الذى ارحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المَكُونِ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم : ٤٢) ، وانظر إلى قوله ﷺ : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» ^(١) . فافهم قوله عليه الصلاة والسلام ، وتأمل فى هذا الأمر إن كنت ذا فهم» .

قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات : ٤٧ - ٥٠)

هذه آيات خمس ، الثلاثة الأولى منها وصفت الأكوان علوها وسفلها وما انبت فيها من حياة وأحياء .

والاثنتان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى الملكوت فتحدثت عن وجوده ثم توحيده . ولفتُ الناس هنا إلى الله ، جاء بصيغة عجيبة «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ . . .» . وهذا الفرار إنما يكون بما يحذر ويعاب .

والحق أن الانحصار فى الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية لا يرضاها أريب .

إن من له أدنى مسكة يعرف - من العالمين - من رب العالمين ، ويعرف - من الأكوان - صاحب هذه الأكوان!! .

إن هذا الملكوت الضخم الفخم من ودائع ذراته إلى روائع مجراته شاهد غير مكذوب على أن له خالقا أكبر وأجل . . .

(١) البخارى .

إنها لجهالة أن يغمط هذا الإله العظيم حقه ، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويسفه عليه .

ولكن ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (النحل : ٤)

والعاقل ينظر فى الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده ، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى ، وصفات عظمى ... والناس صنفان ، صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها ، ولا نتحدث الآن عن هؤلاء ...

وصنف مؤمن بالله مصدق بلفائه ، ولكنه هائم فى ببداء الحياة ، ذاهل وراء مطالب العيش ، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر ، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود ، أو يتمحض لرب العالمين .

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث ...

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم ، بل هى مشوبة بحفظ النفس ورغبات العاجلة ، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنتهم ما بقيت نياتهم مدخولة ، حتى إذا شرعت أفئدتهم تصفو بدءوا المسير إلى الأمام .

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه أو بمطالبهم منه عن الذى ينبغى له منهم ، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق أخرى . إنهم مقيدون بسلاسل متينة مع أنانيتهم فهم يسرون ولكن حولها ، لو حسنت معرفتهم لله ما حجبته عنهم رغبات مادية ولا معنوية ، بل لطفى عليهم الشعور به ، وبما يجب له ، وتحطوا كل شىء دونه ، فلم يهدءوا إلا فى ساحته ، ولم يطمئنا إلا لما يرضيه هو جل شأنه ، على حد قول أبى فراس :

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر	وبينى وبين العالمين خراب
إذا صبح منك الود فالكل هين	وكل الذى فوق التراب تراب

وابن عطاء الله يرى أن العامة يترددون بين مأربهم ، كحركة بندول الساعة لا تتجاوز موضعها على طول السعى ، أو هم على حد تعبيره كحمار الرحى ينتقل من كون إلى كون ، والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه .

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصداً ، وأن يتفصّى تفصّياً عن أُلوف الأربطة التى تشده إلى الدنيا ، وتخلد إلى الأرض !! .

ومن خدع الحياة أن المرء قد يعمل لنفسه وهو يحسب أنه يعمل لله ، ولو وضعت بواعثه الكامنة تحت مجهر مكبر لاستبان أن كثيراً من دواعى غضبه وسروره ، وتعبه وراحته ، يصلها بوجه الله خيط واه ، على حين تصلها بحظوظ النفس حبال شداد .

وهنا الخطر المخوف ، إن الهجرة إذا كانت لله فقد مضت وقبلت ، وإلا فالأمر كما قال الرسول ﷺ : «ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

والشعور بوجود الله ليس أمراً يتكلف له الإنسان شيئاً ، إنه شعور بالواقع ؟ .
قد يكون لك حبيب مسافر مثلاً فأنت إذا اشتقت إليه تتخيل صورته ، وتحاول الأنس بالوهم عن الحقيقة .

ولكن الشعور بالله ليس تقريباً لبعيد ولا تجسيدا لوهم ، إنه شعور بالواقع الذى بعد تجاهله باطلاً ، كشعورك مثلاً - وأنت فى البيت - بأنك فى البيت ، أو شعورك - وأنت فى القطار - بأنك فى القطار . . .

إنه الواقع الذى لا معدى عن الاعتراف به ، وبناء كل تصرف على أساسه .
إن الألوهية لا تفارق العباد لحظة من ليل أو نهار ، ومن ثم فإن الغفلة عن الله غفلة عن الحق المبين .

وإذا كان الأعْمى يعجز عن رؤية الأشياء فإن الأشياء لم تزل من مكانها لأن عينا كليله لم تتبينها .

وإذا كان الناس مذهبولين عن الحق المصاحب لهم المحيط بهم ، فذلك عمى تعود عليهم وحدهم معرفته .

وقد كثر القرآن الكريم من إشعار الناس بهذه المعانى ، وصاح بهم وهم يفرون عنها ، إلى أين ؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ (التكوير : ٢٦) أين المذهب ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج : ٢٠) .

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٣، ٤) .

هو بصير بما نعمل ، وهو معنا حيثما كنا ! ألا تعين هذه الحقائق على صدق المعرفة ووحدة الشعور بوجوده وإشرافه؟ .

ثم ألا يدل ذلك على أن ذكر الله ليس استحضارا لغائب؟ إنما هو حضورك أنت من غيبة ، وإفاقتك أنت من غفلة!!

ولابد هنا من تأكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالم ، فإن بعض الناس يستغلون المعانى التى شرحناها للبس الحق بالباطل .

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات وهذا العالم منفصل عن ذاته جل شأنه انفصالا تاما .

قد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول : إنه يرى الله فى كل شىء .

وهذا التعبير صحيح إن كان يعنى أنه يرى آثاره وشواهدة .
أما إن كان يعنى وحدة الخالق والمخلوق ، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة ،
فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه ، والقول بهذا كفر بالله والمرسلين . . .

ووصف الإحاطة الإلهية فى هذا المجال وسيلة لا غاية ، وسيلة لتصحيح النية والجهد والهدف ، وإهابة الإنسان أن يدير نشاطه البدنى والعقلى على مرضاة الله وحده .

وليت الناس يسعون فى هذا الطريق بنصف قواهم! لو أن امرا حاول استرضاء الله بنصف الجهد الذى يبذله فى كسب المال ، أو التمكين فى الأرض لقطع مرحلة رحبة فى طريق الارتقاء الروحى والخلقى ، ولو أن امرا كره الشيطان ووساوسه بنصف الشعور الذى يكره به الآلام ، والخصوم لنال من طهر الملائكة حظا . . .

إن الله قد يقبل نصف الجهد فى سبيله ، ولكنه لا يقبل نصف النية .
إما أن يخلص القلب له ، وإما أن يرفضه كله .

وقد أسلفنا القول أن الإنسان قد تحتل قلبه مقاصد شتى هى التى تبعته على الحركة والسكون ، وعلى الرضا والسخط ، وأن هذه المقاصد تنبعث عن أنانيته لا عن إيمانه بربه ، وابتغائه ما عنده .

والعلماء الربون يطاردون هذه المقاصد المتسللة إلى القلب ، ويمنعونها أن تثوى فيه ، ولا يتوانون فى مطاردتها حتى تخفى ويظهر القلب منها .

ذلك أن الإسلام دقيق جدا فى تقويم العمل بالنية الباعثة عليه والغاية المصاحبة له ، فمن لم يكن الله وجهته فى هجرته فلا عمل له ولا خير فيه .

وفى الحياة الآن ألوف من المدرسين والأطباء والمهندسين والضباط والعمال والتجار والموظفين . . . إلى آخره يزحمون ظهر الأرض بحركة واسعة المدى ، فأما ما كان للتكاثر والتظاهر فسوف يلصق بالتراب ، وربمابقى لصاحبه طول حياته ، وربما افتقده قبل أن يموت وأما ما كان لله فهو مبارك الثمر عمتد الأثر ، إن البقاء لما قصد به رب السماء ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (الشورى : ٢٠) .

ونعود إلى الصنف المسجون بين عناصر المادة لا يعرف غيرها ، إنه ينتقل من عنصر إلى عنصر ، وينسب مادة إلى مادة ، ويجحد ما بعد ذلك .

وقد ناقشنا هؤلاء فى مكان آخر ، ودحضنا ما ساقوا من شبه ، ونريد هنا كشف الستر عن بعض دعاوى القوم .

إن وصف الإيمان بأنه حركة رجعية ، والإلحاد بأنه حركة تقدمية وصف كاذب ، فالكفر قديم قدم الغرائز الخسيسة ، والأفكار السفيفية ، وتاريخ الحياة يتجاور فيه الخير والشر ، والصالح والفساد ، فمن قال : إن الإيمان طبيعة أيام مضت وانتهى دورها ، وإن الكفر يجب أن يفسح له الطريق فهو دجال . . .

كذلك وصف الإيمان بأنه حركة فكر محدود ، والإلحاد بأنه حركة عقل ذكى ، أو وصف الإيمان بأنه منطق الدراسة النظرية ، والإلحاد بأنه منطق الدراسة العلمية

والبحوث الكونية ، هذا كلام خرافى لا حرمة له ، فإن جمهرة كبرى من قادة العلم الكونى والدراسات الحيوية يؤمنون بالله ، ويرفضون الزعم بأن الكون خلق من غير شئ .

والواقع أن الإلحاد يعتمد على الظنون والشائعات ، لا على اليقين والبراهين ، وأنه لم يثبت فى معمل أو مختبر بأن الله غير موجود ، وكل ما هنالك أن الماديين نسبوا لغير الله من النظام والإبداع ما لا تصح نسبته إلا لله .

كما وصف القرآن الكريم ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس : ٣٦) .

أما الدلائل التى تغرس الإيمان فى القلوب ، عن طريق التفكير السليم فى هذا الكون الكبير فهى قائمة ناهضة .

من؟ إلا الله...!!

ذكر الطيار الروسى «تيتوف» مشاهدته وهو فى الفضاء يدور بسفينته العجيبة حول الأرض ، لقد رأى مظاهر كونية شتى كلها ساحر رائع ، ثم قال :

«ولكن أروع من هذا كله منظر الأرض وهى معلقة فى الفضاء ، إنه منظر لا يستطيع الإنسان أن ينساه ولا أن يضيعه من خياله ، كرة تشبه الصور المرسومة لها فى الخرائط ، معلقة فى الفضاء ليس هناك من يحملها ، كل ما حولها فراغ ... فراغ ... فراغ .

وقد أصبت بالذهول مدة لحظات ، وسألت نفسى فى دهشة : ترى ما الذى يبقياها معلقة هكذا هناك ... ؟» .

والجواب : من؟ إلا الله؟ إن هذا السؤال الذى توحى به الفطرة البريئة ، لا نرى أيسر ولا أصح ولا أخصر من إجابة القرآن الكريم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (فاطر : ٤١) .

إنه هو الذى أبقاها معلقة هكذا فى مكانها ، كما أبقى القمر والشمس اللذين

نراهما ليلا ونهارا ، لا ركيـزة لأحد هذه الكواكب إلا أعمدة القدرة العليا . قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (لقمان : ١٠)

إن سفينة الفضاء التى قيع فى داخلها تيتوف ، لم تنطلق من تلقاء نفسها ولم تتجمع آلاتها ، وأجهزتها خبط عشواء ، ولم تقم برحلتها السماوية دون نظام محكم رسمه لها أذكى العلماء .

فهل يا ترى انطلقت الأرض فى فضائها من تلقاء نفسها ، ودون مشرف على حركتها ، ودون تقدير دقيق لصلتها بغيرها من شتى الكواكب ، ودون رعاية لحاجات الألوف المؤلفة من الأحياء المحتشدة فوق سطحها ... إن هذا ما ينفيه العلم نفسه ، وما تشهد بغيره سفينة الفضاء التى ركبها الرائد الروسى .
إننا نسأل مع الطيار الروسى : من الذى يستبقى الأرض ، وجميع الكواكب القريبة والبعيدة فى مداراتها الرحبة ، تسبح دون إعياء ، ودون اضطراب فى فضاء الكون العظيم ، ومن ينسق لها حركاتها ، فلا تصطدم ، ولا تنحرف !! :

إننا لا نسأل نحن بل القرآن نفسه يسأل ، ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ ٨٦ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ ٨٧ ﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ٨٨ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون : ٨٤ - ٨٩)

إن الإيمان ليس حالة تنشأ من ركود النشاط الفكرى ، وتأثر العقل بالأوهام والخرافات ، وإيمان من هذا القبيل لا وزن له .
ولعلماء المسلمين كلام فى قيمة إيمان المقلد ، لقد رفضه فريق منهم ، ورأى أنه لا يفيد صاحبه !

لماذا؟ لأن الله يقول : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (النجم : ٣٩) ، وإيمان المقلد ليس من سعيه ، وإنما هو من سعى غيره له .
أجل إنه من سعى الأذكى الذين فكروا ووصلوا ، أما هو فلم تعتمل فى نفسه

فكرة ، ولم تتحرك فى كيانه همة ، بل تتبع الآخرين دون وعى ، وهذا لا يعد جهدا محترماً حقيقاً بالثبوتية .

ومن ثم فنحن نحب أن يسأل «تيتوف» وأن يسأل غيره من الناس عن مظاهر الكون كلها ، وأن يبحثوا بحماسة عن الخالق الكبير ، وأن يتحروا الحقيقة فى تقرير الإجابة ، وألا يكتفوا بالتساؤل المبتور ، أو ينطقوا بالسؤال ثم تغلبهم تيارات مجنونة دون انتظار الجواب ...

إننا سمعنا من فهم الوحى - قبل أن نسمع من الطيار الروسى المبهور- هذا السؤال عن الأرض ومن فيها ، قال تعالى : ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . وسمعنا الجواب الحتم عقب هذا السؤال الواجب ﴿... قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفُّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام : ١٢)

إن الإسلام دين فجر الطاقة العقلية فى البشر ، وجعل اليقين فى الله نتيجة لا بد منها لتجوال الفكر الإنسانى المستيقظ النابه فى آفاق السموات والأرض .
ولذلك لا يوجل الإسلام من البحوث العلمية ولا الكشوف الكونية ، بل على العكس يدفع إليها دفعا ويحض عليها حضاً .

وكل خطوة يخطوها العلم الكونى تؤكد أن الله من وراء كل حركة وسكنة ، وأن المادة يستحيل أن تتخلق من غير شئ ، وأن هذا الاطراد والاتساق فى القوانين التى تربط بين أجزاء المادة يستحيل أن يتولد من الهباء ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل : ٩٣)

والعقل الإنسانى كفر بما ينبغى الكفر به على الإجمال!!
تقول : كيف هذا؟ والجواب : أن الناس مع إطباقهم على ضرورة الألوهية ونفرتهم من التعطيل ، وإنكار رب العالمين ، مع هذا فقد أبوا إلا تصور الألوهية على أنحاء منكرة ، وارتسمت لها فى أذهانهم صور أغلبها باطل .
والعقل الذى يرفض عبادة حيوان أو جماد معذور فى كفره بهذه الآلهة .

والعقل الذى يأبى التسليم بالهة شركاء ، وأب وأبناء ، معذور فى إباطه هذا ولأمر ما كانت كلمة « لا إله إلا الله » مكونة من شقين ، أولهما نفى والآخر إثبات .

لا إله ... هذا الشق الأول من الكلمة يعنى نفى ما صنعه الخيال البشرى من آهة أرضية وهى آهة شاع الإيمان بها - ولا يزال - فى أقطار كثيرة ، وبين جماهير غفيرة .

ونحن المسلمين نكفر بهذه الآهة المختلفة ، ونقول مقالة القرآن الكريم ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ .
(يوسف : ٤٠)

والشيوعيون اكتفوا بهذا الشق ، ولو عقلوا لأدركوا أن بعد الكفر بالآهة التى صنعها الناس لابد من الإيمان بالله الذى صنع كل شىء ، وليس كمثل شىء ، وهو السميع البصير .

لابد بعد كلمة لا إله - التى تنفى كل ألوهية باطلة أن يجيء بعدها الإثبات العظيم الحق ، وهو ... إلا الله .

الله الذى أحس الطيار الشيوعى بعض آثاره عندما رأى الأرض معلقة فى الفضاء يكتنفها الفراغ من كل ناحية ، فهتف دهشاً من يحملها؟ .
ونحن نجيب : من؟ إلا الله .

من حقيقة العبودية

«لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبدًا ولكن ، إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول» .

أدلة الشريعة متضافرة على أن العمل الصالح طريق الجنة ، وأن العمل الطالح طريق النار ، وقد وعد الله المؤمنين بالنعيم وتوعد الفجار بالجحيم ، ورفض أن يسوى بينهما في الجزاء ، وعد ذلك سوء حكم ، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم : ٣٤ - ٣٦) .
وقد أخبر الله أن النعيم الذى يصير إليه أهل الإيمان والصالح لا يتغير .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ (لقمان : ٨ ، ٩)

كما أخبر أن أهل الفسق والكفران لا بد أن يذوقوا أليم العذاب ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٣٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٣٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٣٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٣٨) مَا يُبْدِلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق : ٢٤ - ٢٩)

وفى هذه الآيات - وهى نماذج لمئات غيرها - ما يدل بوضوح على أن الإنسان صانع مصيره ، وأنه يشق بيده طريق مستقبله ، وأن القدر لا يسوق الناس إلى دار الجزاء خبط عشواء .

كلا ، إنهم يجنون فى الدار الآخرة ثمار ما غرسوا فى الدار الدنيا . . .

وكل كلام غير هذا فهو إما جهل بالإسلام أو افتراء عليه .
بيد أن من تمام العمل الصالح أن نقدره قدره ، وألا نتجاوز به حدوده .
فإن من ظن أن عبادة عدد سنين فى الأرض هى الثمن الحقيقى لخلود غير متناه
فى السماء رجل مجازف .

ومن ظن أن الطاعات التى تقدم بها ، سليمة الأداء نقيّة اللبّاب تثبت على
النقد والتمحيص فهو رجل مخدوع .
ومن ظن أن ما نهض إليه من - واجبات وما تطوع به من نوافل أرجح من النعم
التي عجلت إليه فى الدنيا فهو هازل .

الواقع أن الله جل شأنه ينظر إلى نيات الخير فى قلوب أهل الإيمان فيعفو عن
كثير من زللهم ، ويتجاوز عن كثير من تقصيرهم ، ويكثر قليلا من الأعمال التى
يقومون بها . كما يكثر للفلاح حصاد زرعه ، وإن كان ما بذر يسيرا .

ولولا هذا ما شعر بلذة الفوز أحد ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا
مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ (النور : ٢١) .

إن الاغترار بالعلم رذيلة تسقط قيمة العمل ، ولو أن أحدا طالب الله أن يقربه
إليه ، أو أن يجزل له المثوبة ، ناظرا فى ذلك إلى ما بذل من جهد ما استحق عند
الله شيئا طائلا .

والواجب أن يتقدم الإنسان إلى الله وهو شاعر بتقصيره ، موفق بأن حق الله
عليه أربى من أن يقوم بذرة منه ، وأنه إذا لم يتغمده الله برحمته هلك .
هبك بذلت نفسك ، ومالك له . . .

أليس هو خالق هذه النفس؟ أليس هو واهب هذا المال . . ؟
فإذا أدخلك الجنة - بعد - ألا يكون متفضلا؟

وانظر إلى سلسلة الأعمال التى تؤديها خلال فترة الحيا على هذه الأرض ، كم
يكتنفها من علل النفس وأفات التقصير؟

إنها لو كانت أعمال غيرك تعرضت عليك أنت ما قبلتها إلا على إغماض طويل
وتجاوز خطير!!

إن المؤمن يعمل ، ولكنه لا يتناول بعمله أبدا .

وهذا يفسر الحديث المشهور عن النبي ﷺ : «لن يدخل الجنة أحد بعمله!» : قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١) والغريب أن ناسا فهموا من النهي عن الاعتراض بالعمل أنه إسقاط لقيمة العمل جملة!

وسار الأمر في أدمغتهم على هذا النحو ، والعمل لا يدخل الجنة ، فلا ينبغي أن تتعلق الهمم به ، فلا ضرورة لبذل المجهود فيه!!! ثم قرروا بعد ذلك أن العمل الصالح ليس طريق الجنة وأن الجنة هبة من الله يمنحها من يشاء ولو لم يعمل خيرا قط . بل ذهبت الغفلة ببعض المتكلمين إلى الزعم بأنه يجوز أن يدخل الأشرار الجنة وأن يدخل الأخيار النار .

وهذا لغو من القول ، وغباء في الفكر ، واقتراء على الله والمرسلين .

وليت شعري ما يكون موقف هؤلاء عندما يقول الله للمؤمنين يوم الحساب ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٣) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (الزخرف : ٧٢ ، ٧٣)

ثم يستتلى الكلام الإلهي ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف : ٧٤ - ٧٦)

(١) البخارى .

من أخطاء العابدين

«من علامة اتباع الهوى ، المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات» .

الفروض التى يجب أدائها كثيرة ومنوعة ، وهى فى العبادات محدودة كمّا وكيفا ولكنها فى العادات مفتوحة الدائرة متطورة الأداء .

والمسلم مطالب بكل الواجبات التى ارتبطت بعنقه ، ولا يجوز أن يوجه نشاطه إلى نافلة ما قبل أن يستكمل هذه الواجبات أولا .

إن الواجبات والنوافل أشبه بالضرورات والمرفهات ، والمرء لا يشتري لنفسه عدة زجاجات من العطور وهو وأهله بحاجة إلى أرغفة من الخبز ، سد الجوع أولى من هذه الزينات .

وقد رأيت ناسا من أهل الدين يذهلون عن هذه الحقيقة ، وحكى لى أحدهم أنه حج عدة مرات وهو بسبيله إلى حجة جديدة ، لن تكون الأخيرة . . .

وهذا خطأ . فلو أنه بعد حجة الفريضة تأمل فيما عليه من فروض أخرى ، ولو أنه تتبع الثغرات التى شاعت فى مجتمعنا وعمل على سداها لكان أدنى إلى الصواب ، وأقرب إلى مرضاة الله ، وأبعد عن أهواء النفس . . .

إن نفقات حجة واحدة من هذه النوافل تكفى لدفع نفقات الدراسة لنفر من الطلاب الفقراء ، وهم أولى ، وتكفى لرفع الحجز عن أمتعة نفر من الغارمين المعسرين وهم أولى ، وتكفى لطبع بعض الكتب الدينية وتوزيعها بالجمان وذالك أجدى . . . الخ .

إن إنقاذ أمتنا من الجهل والفقر أوجب من إشباع رغبة نفسية فى متابعة الحج والعمرة ، هذه فريضة وتلك نافلة .

بل لو أن الحاج كان تاجرا ، واستغل المال فى توسيع تجارته لدعم الاقتصاد الإسلامى ، وإغلاق الأبواب أمام الاقتصاد الأجنبى لكان ذلك أحق من بذل المال فى التطوع بحج أو عمرة .

ذلك أن الجهاد الاقتصادي صنو الجهاد الحربى ، بل إن لقاء العدو فى ميدان الدم يجيء مرحلة أخيرة بعد كفاح طويل فى عالم المال والمعرفة والدعاية والبذل .

وتنظيما للعلاقة بين الفرائض والنوافل روى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «حجة خير من أربعين غزوة ، وغزوة خير من أربعين حجة يقول إذا حج الرجل حجة الإسلام فغزوة خير له من أربعين حجة وحجة الإسلام خير من أربعين غزوة»^(١) .

وفى رواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «حجة لمن لم يحج خير من عشر غزوات وغزوة لمن قد حج خير من عشر حجج»^(٢) .

وقد أبنا فيما كتبنا أن الجهاد الحربى ، حلقة من سلسلة بها حلقات أخرى من غزو اقتصادى وثقافى . لا تقل خطراً عن نظائرها .

إن أصحاب البصر السديد من العلماء يضعون الحدود مكبرة بين الفروض والنوافل حتى لا يقع المسلم فى تقصير مخل وهو يحاول إرضاء الله بعمل لم يوجهه عليه . وابن عطاء الله يعد من اتباع الهوى إثثار نافلة خير على واجب قائم .

وقد رأيت بعض الصالحين يصومون يومى الإثنين والخميس ويجتهدون فى التقرب إلى الله بهذا العمل الكريم .

والصيام قرينة لا ريب فيها وجهاد نفس نبيل ، ولكنى أحب أن أنظر إلى الموضوع على ضوء الموازنة بين الفرض والنفل .

فمن صام رمضان فقد أدى الفريضة ، فإن كان صيام أيام أخرى سيوهن قواه عن العمل فى المدرسة ، إن كان مدرسا ، أو العمل فى الديوان إن كان موظفا ، فالفطر أولى به .

لأن هذا التنفل سيعجزه عن القيام بفريضة تعليم التلامذة ، أو يعجزه عن القيام برعاية مصالح الجمهور ، وكلا العاملين فريضة بالنسبة له .

ولماذا يجهل بعض الناس أن ما وكل إلى ذمهم من أعمال عامة أو خاصة هو مجال خصب لكسب رضوان الله وغفرانه ؟ .

(٢) الطبرانى .

(١) رواه البزار .

لقد كنت ألحظ - بأسى - أن بعض الأطباء يجب أن يعظ الناس فى المساجد! لماذا؟ .
إن الكشف الدقيق على مريضه هو العبادة الأولى المطلوبة منه ، ولا يغنى عن هذه
العبادة أن يجيد بعض خطب أو يطيل بعض ركعات - عدا الصلوات المكتوبات .
إن صلاته بعد الأوقات الخمس هى علاجه المرضى واستكشاف عللهم ،
وتيسير الشفاء لهم بكل ما هنالك من وسائل . . .
لقد قلت : إن الفروض كثيرة ، وإذا كانت محدودة فى ميدان العبادات فهى
مطلقة فى الميادين الأخرى ، وأمتنا فقيرة إلى الجذ فى الميادين كلها وإلا جثت على
ركبتها أمام أعدائها .
ولذلك يجب أن تنظم جهود العابدين ، حتى لا تقل فى ناحية وتكثر فى
ناحية أخرى .
ويجب إبراز الفروض أولا حتى لا تضطرب الأوضاع وتختل الموازين وتتبدد
الجهود هباء .

المنة لله وحده

«من أكرمك إنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك» .

الله ولى النعمة ، وأهل الشناء أولا وآخرها ، ظاهرا وباطنا .
قد تكون ذكى العقل بادی المواهب يشنى عليك الناس لما امتنزت به من فكر
ثاقب وعمل بارز .

فمن الذى صاغ معدنك وأنت جنين على هذا النحو المرموق؟ .
إن المعدن الذى يصاغ منه الإنسان هو الذى يحدد رزقه وأجله ، فإن كان معدنا
هشا كان سريع الكسر ، وإن كان معدنا رديئا كان رخيص القيمة .

من الذى خلق العباقرة ممتازين من طفولتهم؟ هو الله!! ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي
الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران : ٦) .

فإذا رأيت الناس يعلون من قدرك ، فالحمد لمن أنشأك جديرا بالرفعة .
وكم يخطئ المرء؟ وكم يقع منه ما لو عرف به لخدش مقداره وسقط شعاره؟ .
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح .

فإذا المستور منا بين ثوبه فضوح .
لكن الله يصبر ويبقيك بين الناس كأن لم يبدر منك شيء ويظل لك ما تحب
من كرامة ومنزلة .

فلمن الحمد؟ لمن يشنى عليك بلسانه؟ أم لله الذى أنعم أولا وستر آخر؟ .

لا تتخدع عن حقيقتك

«الناس يمدحونك لما يظنونهم فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها» .
هل أغش نفسي لأن الله سترني فانطلقت ألسنة الناس تمدحني؟ ما يفعل هذا عاقل .

واجب أن يكون موقفى من نفسى ثابتا ، أفتش عن عيوبها لأنقيها منها وأستحضر باستمرار ما بها من أخطاء كى أصوبها ، وما فيها من نقائص كى أكملها .

فإذا قال الناس : هو كامل ، فلا أنخدع بمقالتهم عن حقيقة ما أعرف من نفسى «فأجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس» .

والعجب أن ناسا يكذبون ثم يصدقون هم أنفسهم ما اختلقوه على الناس ، كما روى عن أشعب أن الأطفال تبعوه يوما بزياطهم ، فأراد أن يصرفهم عنه فزعم لهم أن عرسا بمكان كذا توزع فيه الحلوى!!

فلما جروا إلى العرس المزعوم تبعهم أشعب هو الآخر يجرى!!
لقد صدق الأكذوبة التى ألفها . . .

إن ذلك مثل من يسمع المدائح فيه فيصدقها ، وهو يدري من باطن أمره أنه غير ما قيل فيه .

كان الرجل من الصالحين إذا مدح قال : «اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى فوق ما يظنون» .
وهذا دعاء من ينصف نفسه ويخشى ربه .

اعرف حقوق سيدك

«تحقق بأوصافك بمدك بأوصافه! تحقق بذلُّك بمدك بعزه ، تحقق بعجزك بمدك بقدرته ، تحقق بضعفك بمدك بحوله وقوته» .

ماذا تكون عليه العلاقات بين المخلوق والمخلوق والمرزوق والرازق ، والخطيئ المعثر ، والتواب الغفور ، والبائس الفقير والمنعم الكريم؟
إن الصورة الوحيدة المعقولة أن يعترف الأدنى بالأعلى اعترافا ماديا ومعنويا يظهر في النفس وعلى الجوارح!!!

خصوصا إذا كانت هذه العلاقات ممتدة لا انقطاع لها ، فقد يظن ظان أن الصلة بين العبد وربّه يمكن أن تشبه الصلة بين الولد وأبويه ، يحتاج الطفل إليهما صغيرا ، فإذا كبر استغنى ، وربما دفعه استغناؤه إلى العقوق ، وجحد ما مضى!!

كلا ، إن حاجة العبد إلى الله خالدة . أمس من حاجة الرضيع إلى أمه ، مهما تراخت الأيام وأمسى في حاجة النبت إلى الشعاع والماء كي يزدهر وينمو ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء : ٤٣) .

وربما توهم العبد أنه يزل ثم يستطيع الفرار من تبعات الله ، عند ذى منعة هنا أو هناك ، لا ، ليس في الكون من تتحصن به أو يدخلك في جواره ، أو يبسط عليك منعته : الملجأ أوهى من الهارب ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ﴾ (الأنبياء : ٤٣) .

إن فقر البشر إلى الله شديد ، وما يستمتعون به من سمع وبصر وأفئدة مواهب معارة منه . لو يشاء استردها في أية لحظة ، ووقف أعتى العتاة صفر اليدين لا يجد الهباء ، بل تلفظه كل ذرة في الأرض والسماء ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ (الأنعام : ٤٦) .

العبادة الصحيحة أن تقوم بين يدي الله وأنت أنت وهو هو .
أنت أنت بحقيقتك العارية من غير دعوى ولا تزيد .
وهو هو بذاته القدس من غير انتقاص ولا إفك .
أنت أنت بحقيقتك التي يتمثل فيها الافتقار والنقص وهو هو بحقيقته التي
ينبغي لها كل تنزيه وتمجيد .

ولكن النفس الإنسانية قد تلجأ إلى الخداع والتمويه ، فترى الإنسان يؤثر
الكبرياء على التواضع ويزعم أنه مستغن بنفسه عن عناية السماء ، ويحاول إيهام
الآخرين أنه - من ذاته لا من مصدر آخر - قد نشأ وتول وصاد .
ويوغل في ادعائه فيرفض كل نصح يذكره بأنه أحد عبيد الله المنتشرين على
ظهر هذه الغبراء ، يتعرضون للسراء والضراء فتنة وتحيصا ، لا فضلا وتخصيصا . . .
إنه في نظر نفسه ليس ثمرة المن الإلهي ، إنه ابن نفسه فما لديه ثبت له لأنه
حقه!! ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ (فصلت : ٥٠) .
لماذا تكون الحسنى لك إذا رجعت إليه وقد كنت به كفورا؟

إنه شعور غبي ، إنه يظن نفسه هي التي سودته في الدنيا ، وستسوده كذلك في
الأخرى ، لأنه أهل السيادة ورثها كابرا عن كابر .
أجل هو عريق النسب - ولو كان ابن الصعاليك - فهكذا يتصور الأغرار الأمور ،
وهكذا تفسد النفس تفسد أحكامها على كل شيء . . .
والله عز وجل يمقت من عبادة أولئك الصنف الذين يعمون عن أنفسهم وعن ربهم .
لقد خلق الناس ليعرفوه ويحمدوه لا ليجهلوه ويجهدوه .
فإذا شردت الأم عن الجادة صب عليها سوط عذابه لتعترف بعبوديتها وتثوب
إلى رشدها .

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا ﴾ (الأنعام : ٤٣) .
فإذا أبت إلا المضي في غوايتها ولم تعتبر بما مسها أمضى فيها عقوبته كاملة

ورفض أن يذيقها رحمة : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُورِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ (المؤمنون : ٧٥ - ٧٧) .

إن الله يقترب برحمته من يقفون عند منازلهم الإنسانية ويوقرون ربهم سرا وعلاية .

اعترف فى ساحتہ بعجزك يمنحك القوة .

اعترف فى ساحتہ بذلك ينصر وجهك بالكرامة .

إِبْرَأْ مِنْ حَوْلِكَ وَطَوَّلِكَ إِلَى حَوْلِهِ وَطَوَّلِهِ يَهْبِكْ سُلْطَانًا فِي الْأَرْضِ وَيَكْفُلْ لَكَ التَّوْفِيقَ وَالنَّصْرَ وَالنَّجَاحَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (الحديد : ٢٨) .

والناس - فى العصر المغتر - زاهدون فى السماء عاكفون على الأرض ، واثقون من عالم الشهادة ساخرون من عالم الغيب ، مؤمنون بأنفسهم قليلو الاكتراث بربهم الذى خلقهم لغاية أشرف مما يألّفون .

وهم محرمون حقا من أمداد الفضل الإلهى ما بقوا على هذا الزيف ، بل هم معرضون حتما لنكال فى أعقاب نكال ، وحرب فى أعقاب حرب .

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (الرعد : ٣١) .

فضول العيش أشغال

«من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك ، ليقل ما تفرح به ويقل ما تحزن عليه» .

إذا قرر المؤمن الجهاد فى سبيل الله ، والاشتباك مع قوى الباطل فى حرب موصولة الكر والفر فيجب أن يحدد صلته بما فى الدنيا من متع وما تهواه النفس من لذات .
ذلك أن التمشى مع مغريات الحياة يفتح الشهية للمزيد ، ويعلق القلب بمطامع تشغله عما يجب أن يخلص له .

وصدق المتنبى إذ يقول :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته مآقاته وفضول العيش أشغال
وترضية النفس بمستوى من العيش يضمن الكفاية ، وينفى الفضول ، أعون شىء على رفع الجبهة ، وتوفير العزة وإرضاء الله .

قيل يوما لأحد شيوخ الأزهر : افعل كذا وإلا أصابك ما لا تحمد عقبا!

فقال : هل سأمنع من التردد بين بيتى والمسجد!

قيل : لا ... قال فافعلوا ما بدا لكم .

ولما سجن الشيخ عlish فى أعقاب الثورة العرابية قيل له :

تملق الخديو ليعفو عنك .

فقال قصيدته التى مطلعها :

الـزم بـاب رـبك	وأتـرك كـل دون
واسألـه السـلامـة	من دار الفـتـون
لا تكـثر لـهـمـك	مـا قـد رـيـكون

وأساس هذا السلوك توطين النفس على أسلوب من العيش خفيف المؤنة قليل التكلفة والإنسان فى هذا المجال يمكن أن يمتد ويمكن أن ينكمش .

والنفس طامعة إذا أطعمتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ونحن لا نحرم حلالا ، ولا نحجر واسعا ، وإنما نصف الطريق التى لا بد من سلوكها لأصحاب الرسالات وحملة الدعوات .

فإنه لا يتفق طمع فى الدنيا وانتصار للمثل العليا .

ولا ينسجمان الحرص على إعلاء كلمة الله ، والحرص على تكثير المغام واسترضاء الخلائق ، وفى الحديث : «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»^(١) .

وضوابط الكفاية ليست لها خطوط معينة ، بل هى تختلف باختلاف الطبائع والأحوال والبيئات .

ومن العبث تحديد مستوى معين من النفقات لرجل ، أو لأسرة ، يقال إن ما وراءه إسراف .

فرب ضرورة لشخص تعتبر ترفا لشخص آخر ...

إن الحالة النفسية هى الحكم الفذ فى هذه الظروف ، ولذلك يوصى ابن عطاء الله بتقليل ما نفرح به إجراء لمطالب المرء فى أضيق نطاق ، حتى إذا مسته وعكات الجهاد لم يكن هناك ما يستدعى الأسى ...

والواقع أن الفقر والغنى أخلاق نفسية قبل أن يكونا أعراضا دنيوية .

فكم من ذى مال يبيت مؤرقا وراء المزيد ، شاعرا بالفقر ، لأن كل ما يطلب لم يتحقق له .

وكم من مقل بات قريبر العين لأنه يرى ما لديه كافيا شافيا ، ولذلك يقول الشاعر :

غنى النفس ما يكفيك من سدخلة فإن زدت شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

وفى تجاربنا مع الناس رأينا نقائص تستدعى التأمل ...

هذا رجل له مال وبنون ، طال أجله ، وأدبر شبابه ، وكان يجب أن يتهيأ للآخرة بزاد الحسن .

(١) الطبرانى .

إنه لو قتل فى سبيل الله ما ترك وراءه شيئا يخاف عليه ، لا الزوجة العجوز ولا الأولاد الكبار .

ومع هذا فإنه شيطان أخرس ، يفرق من كلمة حق ، ويوجل من موقف شرف ، ويتشبث بأذيال الحياة طالبا المزيد!!

على حين رأينا شبابا لهم آمال وعليهم أعباء ، ومثلهم لو توثقت علاقته بالدنيا ما كان فى سيرتهم عجب .

ومع هذا يذهلون عن الدنيا المقبلة ، ويتركون الذرية الضعاف لكفالة الله ، ويقبلون على مواقف الاستشهاد بنبل وجلال .

إن الأحوال النفسية ، لا مستويات المعيشة ، هى التى تصنع الناس .

وإذا كان لهذه المستويات عمل فهو أنها عنصر مساعد ، أو لعل هذه المستويات هى التربة التى تنضج شتى البذور ، فتبلغ بالورد تمامه ، وبالشوك منتهاه من غير أن تخرج بعنصر عن طبيعته . . .

إننا نسمع صراخا طويلا لرفع مستوى المعيشة ، وأنا بين الذين رفعوا عقائدهم بقوة لمحاربة البؤس والمسكنة .

ولكن يجب أن يفهم الماديون أن الحياة الإنسانية الآن أفقر إلى الأخلاق منها إلى الأرزاق ، وأفقر إلى تقدير قيمها الروحية منها إلى تقدير قيمها المادية ، وأفقر إلى ذكر الله منها إلى ذكر ما سواه .

فى محاسبة النفس

«متى أملك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم» :

صلة المؤمن بالله هى أساس أمنه أو قلقه ، وفرحه أو أساه ، أما صلته بالناس فهى تحيىء فى المرتبة الأخرى ، وتحبىء محكومة ببواعث الصلة الأولى وغايتها .
إن رأى الناس فى أمر ما ليس حكما مبرما بالتخطئة والتصويب ، ورأيهم فى شخص ما ليس حكما بالرفعة والضعفة .

والذى يحدث غالبا أن آراء الناس هذه ترسل إرسالا يحتاج إلى الضبط والتحصيص ، وقلما يكتنفها الرشد والسداد . ولذلك يقول أبو تمام :

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله فى هذا السواد الأعظم !

بل إنه فى الأزمات التى تحتاج إلى النجدة ، والشدائد التى تحتاج إلى البطولة ، تبحث فى الزحام الكثيف عن الرجال الذين يلقون هذه المواقف . . . فتروعك ندرتهم .

ما أكثر الناس ، لا ، بل ما أقلهم الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

ومن ثم كان عزاء المصلحين حين يلقون الصدود والغمط ، ويشعرون بالإنكار والعزلة قول الله جل شأنه : ﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ (الأنعام : ١١٦ ، ١١٧) .

ولما كان انبعاث المؤمن من ضميره وحده ، ومبتغاه أن يرضى الله عنه ، فهو لا يكثر ، أوقع الناس فيه ، أم كانوا إلى جانبه . . . !!
بيد أن الإنسان شديد الروابط بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ونفسه - طوعا أو كرها - لا بد أن تتأثر بتيارات المدح والذم التى تهب عليه .

ومن حق الرجل الفاضل ألا يعرضه فضله لهوان ، إذا لم يكسب له ما يجب من احترام .
ومن حقه أن يدفع عن نفسه قالة السوء ، وأن يتخذ من ضروب الحيلة ما يعقل
ألسنة الشر عن مناله .

ومن حقه وهو مصدر إشعاع ألا يكشف نوره ، وأن تؤخذ عنه الأسوة الحسنة وأن
تأوى إليه عناصر الخير في الدنيا لتحتفى به . . .

ومن ثم فصلته بالناس يجب أن تشرح بشيء من التفصيل .
إن ظهوره بالبر بينهم ، ومعالنته بفرائض الإسلام وشعائره شيء طبيعي لا حرج
فيه : ﴿ إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾
(البقرة : ٢٧١)

وحرصه على صيانة سمعته من أى غبار شيء طبيعي ، وقد استوقف رسول الله
ﷺ نفرا رأوه مع إحدى زوجاته ، وأفهمهم أنه مع فلانة زوجته حتى لا يظنوا به
السوء ، مع أنه فوق التهم .

وسروره بما يعرف عنه من خير شيء طبيعي ، بعد أن أدى هذا الخير بنية خالصة
وقلب سليم .

وقد تحدث الصحابة إلى رسول الله ﷺ في هذا الشعور الذى يخالج أنفسهم عندما
يذكروهم الناس بخير على عمل قاموا به لله . فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن »^(١) .

وتلا قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (يونس : ٦٣ ، ٦٤) .

إن التمكين فى الأرض من رحمة الله ، ونباهة الشأن جزء من التمكين فى
الأرض ، ولذلك امتن الله على نبيه محمد ﷺ ، فقال :
﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الانشراح : ٤) .

وطلب إبراهيم من ربه أن يخلد له حسن الثناء على امتداد الزمن فقال : ﴿ رَبِّ
هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٨٣) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾
(الشعراء : ٨٣ ، ٨٤)

والمهم أن يصدر الإنسان فى عمله عن إخلاص لله ، وألا يبتغى بأدائه عرض الدنيا ولا وجوه الخلق .

وأن تكون رغبته فى الله راجحة أى باعث آخر ، فلو خاصم الناس طرا من أجل مولاه لم يجزع ولم يفزع .

وأن تكون علاقته بالناس - إن أحبهم - تعاوناً على الحق ، لا تناصراً على الأغراض ، أو تجمعاً على الشهوات والحظوظ النفسية . . .

فإذا أحس الإنسان بالتواء العامة عليه أو بنفرة الآخرين منه ، فليُنظر : كيف صلته بالله؟ فإن كان طيب النفس بها ، قير العين بتوطدها ، فلا عليه لو ماتت الدنيا تحت قدميه .

فما سخط العبيد بجنب رضا السيد؟ وما أحرأه أن يتدبر جواب هود لقومه :

﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ (هود : ٥٤ - ٥٦)

أما إذا كانت علاقته بالله غامضة واهنة ، فليست مصيبتة فى اضطراب حبله مع العباد وانصراف قلوبهم عنه وحزنه على ذلك ، بل مصيبتة التى تجل عن العزاء فى أنه ليس له مع الله ما يهدئ حاله ، ويقر باله . . . وذلك أصل الداء .

شارات الطريق

لابد لكل مسلم من تأهيل عال يجعله حقيقاً بالانتساب إلى الله ، والخلود في رحمته .

ونفسه التي بين جنبيه هي موضع التزكية والترقية وهو يستطيع رياضتها بما شرع الله من طاعات وحدود ، وبما رسم من آداب ومعالم حتى تبلغ الشأو والمراد .

وليس لطريق الكمال نهاية يقف لديها المسلم ، فهو ما بقى حيا مكلف بالأمر والنهي ، مطالب بالنظر في نفسه ، فلعل فضلة شر بقيت يجب استئصالها ، أو نشأت من جديد يجب أن يحوها .

ولو أنه أمن تسرب الكبائر والصغائر إلى نفسه ، ووثق من ارتداد الوسواس الآثمة عنه فإن حقوق الله عليه - من تعبد محض - تبقى في عنقه ما بقى فيه نفس يتردد حتى يلقى الله ، وهو ذاكر شاكر ، مستسلم الفؤاد والجوارح ، يتضح على روحه هذا التوجيه العالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) .

والطريق إلى الله تعبير لطيف عن جهود المسلم في تصفية نفسه ، وترضية ربه ، والتحول عن مواطن الغفلة والركود إلى مواطن الذكر والحركة .

ومراحل الطريق تتمثل فيما يحزره المرء من نجاح ، وهو يتخلص من خلة رديئة ، أو مسلك عابث ، ويتحلى بخلق كريم وسيرة جادة .

إن هذه النقلة النفسية خطوة متميزة فيما يخلفه المرء وراءه من أحوال لا تليق ، وفيما يستقبله من صحو ، واستحكام رأى ، ودقة تصرف ، على حد قول الشاعر :

صحوت وزايلنى باطلى لعمري أريك زبلا طويلا
فأصبحت ، لأنزقا ليلحاء^(١) ولا حموم صديقى أكولا

الطريق سير في ميادين النفوس ، وجهته الله ، وعدته صالح الأخلاق والأعمال .

ومع هذه العدة التي يقوم المسلم بها ، رجاء حار في التوفيق الإلهي الذي يسد الخطأ ويبارك في القليل .

(١) اللحاء والملاءة الجدال .

ذلك أن الله وعد المقبلين عليه بإقبال أعظم ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾
(النمل : ٨٩)

والسائر لو وكل إلى جهده وحده غلبته وعثاء الطريق فمشى ببطء أو انقطع بعد
لأى ، ومن ثم فإن تعويل السائرين ينبغي أن يكون على الإمداد الإلهي أضعاف ما
يكون على الجهد المبذول .

ألا ترى الفلاح يبذر الحب ويروى الأرض ، وينظر - بعد ذلك - إلى بركات
السماء ، وهو مدرك أن جهده المحدود لا قيمة له ، ما لم يلحظه الله بعنايته .
إن هذه العناية قد تفاوتت بين جهدين متساويين فتجعل نتاج هذا عشرة عشرة
أضعاف ذاك .

التوبة

وهي أول مراحل الطريق ، بل هي المدخل المفضى إليه ، والقرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية .

والتوبة كلمة شائعة على الألسنة ، حتى لكأن شيوعها ابتذلها وأطفأ سناها الكريم ، ومع أن دلالة الكلمة تجعلها أخطر من أن يجازف بها .
هل يلغو إنسان فيقول : بنيت قصرا ، أو يلغو فيقول : ألفت كتابا !! .

إن بناء قصر شاهق أهون من بناء نفس خربة ، وإن تأليف كتاب ثمين أرخص من تأليف نفس فرق الهوى أقطارها .

والتوبة هي هذا البناء والتأليف ، فمن الهزل العجائب أن تدور على الألسنة دون تيقظ وإدراك .

وجمهور البشر محتاج إلى التوبة ، فقلما ينجون في حياتهم من العثار والتخليط ، وما أكثر الذين يرددهم طيش الغرائز ، وضعف الرأي ، وقلة التجربة ، واضطراب اليقين .

وإذا استثنينا الأنبياء فأغلب بنى آدم تعرضوا لخطايا سيئة ، وأخطار لا حصر لها .
أما الأنبياء فإنهم قيادات روحية وفكرية اصطفاها الله من النشأة الأولى وتخيرها من معادن أرقى ، فهم ليسوا على غرارنا ، وإن كانوا من تراب الأرض مثلنا على حد قول الشاعر :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقد قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ (هود: ١١٢)
أى : إن الذين تبعوه جاءوا إليه تائبين .

والتوبة - في نظر الإسلام - جهد لا بد أن يقوم كل إنسان به ، ولن يغنى عنك أحد أبداً في أدائه .

إذا اتسخ ثوبك فلن ينظفه أن يغسل جيرانك ثيابهم .

وإذا زاغ فكرك ، فلن يصلحه إلا أن يهتدى هو إلى الصواب .
واستحقاق الرضوان الأعلى لا يجيء إلا من هذه السبيل ، فلا قرابين ،
ولا شفعاء .

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء : ١٥) .

والخطأ فى حق الله لا يداويه إلا اعتذار المخطئ نفسه .
فلو اعتذر عنه أهل الأرض جميعا ، وفى مقدمتهم النبيون ، وبقي هو على عوج
نفسه فلن يقبل عنه اعتذار ، ولن ينفعه استغفار .

لا بد أن يجتو المذنب فى ساحة الرحمن ثم يهتف من أعماق قلبه :
(رب اغفر وارحم ، وأنت خير الراحمين) ليؤمل - بعد - فى مغفرة الله ورحمته .
وعلى كل إنسان ساء فعله ، واضطربت حاله أن يسارع إلى ربه ، متعهدا نفسه بالرعاية
والتأديب ، مقبلا على شأنه بالترتيب والتهديب ، حتى يستطيع النجاة بما وقع فيه .
وانتهاز اليوم أفضل من انتظار الغد ، بل إن كنت فى الصباح فلا ترقب الأصيل .
لا مكان^(١) لتريث ، إن الزمن قد يفد بعون يشد به أعصاب السائرين فى طريق
الحق ، أما أن يهب للمقعد طاقة على الخطو أو الجرى فذاك مستحيل .

لا تعلق ببناء حياتك على أمنية يلدها الغيب ، فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير .
الحاضر القريب المائل بين يديك ، ونفسك هذه التى بين جنبيك ، والظروف
الباسمة أو الكالحة التى تلتفت حوالبك ، هى وحدها الدعائم التى يتمخض عنها
مستقبلك ، فلا مكان لإبطاء أو انتظار ، قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبسط يده
بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»^(٢) .

ثم إن كل تأخير لإنفاذ منهاج تجد به حياتك ، وتصلح به أعمالك لا يعنى إلا
إطالة الفترة الكابية التى تبغى الخلاص منها ، وبقاءك مهزوما أمام نوازع الهوى
والتفريط . بل قد يكون ذلك طريقا إلى انحدار أشد ، وهنا الطامة .

(١) هذه الصفحات من كتابنا «جدد حياتك» وفيها شرح لمعنى التوبة رأينا نقله لوفائه بما نريد ، نعقبه بما
ينطلبه هذا الكتاب من مزيد .

(٢) مسلم .

وفى ذلك قال رسول الله ﷺ : «النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر الموت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بالخواتيم .
والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة .
واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتى بغتة .

ولا يغترون أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدهم من شراك نعله ثم قرأ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

ما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين ، وأن يرسل نظرات ناقدة فى جوانبها ليتعرف عيوبها وأفاتها ، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى ، والطويلة المدى ، ليتخلص من هذه الهنات التى تزرى به .

فى كل بضعة أيام أنظر إلى أدراج مكتبى لأذهب الفوضى التى حلت به من قصاصات متناثرة ، وسجلات مبعثرة ، وأوراق أدت الغرض منها .
يجب أن أرتب كل شىء فى وضعه الصحيح ، وأن يستقر فى سلة المهملات ما لا معنى للاحتفاظ به !

وفى البيت : إن غرفه وصلاته تصبح مشبعة مرتبكة عقب أعمال يوم كامل ، فإذا الأيدى الدائبة تجول هنا وهنا لتنظف الأثاث المغبر وتطرد القمامة الزائدة وتعيد إلى كل شىء رواءه ونظامه .

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد؟ ألا تستحق نفسك أن تتعهد شئونها بين الحين والحين لترى ما عراها من اضطراب فتزيله ، وما لحقها من إثم فتنتفيه عنها مثلما تنفى القمامة من الساحات الطهور؟ .

ألا تستحق النفس بعد كل مرحلة تقطعها من الحياة أن نعيد النظر فيما أصابها من غنم أو غرم؟ وأن نرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رجتها الأزمات ، وهزها العراك الدائب على ظهر الأرض فى تلك الدنيا المائجة ؟ .

إن الإنسان أحوج الخلق إلى التنقيب فى أرجاء نفسه ، وتعهد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك .

ذلك أن الكيان العاطفى والعقلى للإنسان قلما يبقى متماسك اللبنة مع حدة الاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات . . . فإذا ترك لعوامل الهدم تنال منه فهى آتية عليه لا محالة ، وعندئذ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سلكه . . . وهذا شأن ﴿... مِنْ أَغْلَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف : ٢٨) ، كما يقول الله عز وجل .

وكلمة «فرط» هذه ينبغى أن نتأمل فيها ، فالعامة عندنا يسمون حبات العنب الساقطة من عنقودها أو حبات البلح الساقطة من عرجونها «فرطا» .
وانتزاع حبات الأذرة من كيزانها المتراصة تمهيدا لطحنها تشتق تسميته من المادة نفسها .

والنفس الإنسانية إذا تقطعت أو اصرها ولم يربطها نظام ينسق شئونها ، ويركز قواها أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حركة لها .

ومن ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس وإحكام الرقابة عليها . .
والله عز وجل يهيب بالبشر- قبيل كل صباح - أن يجددوا حياتهم مع كل نهار مقبل .
فبعد أن يستريح الأنام من عناء الأمس الذاهب ، وعندما يتحركون فى فراشهم ليواجهوا- مع تحرك الفلك - يومهم الجديد .

فى هذه الآونة الفاصلة تستطيع أن تسأل : كم تعثر العالم فى سيره؟ كم مال مع الأثرة؟ كم اقترب من دنية؟ كم أضلته حيرته فبات محتاجا إلى المحبة والحنان؟
فى هذه اللحظة يستطيع كل امرئ أن يجدد حياته ، وأن يعيد بناء نفسه على أشعة من الأمل والتوفيق واليقظة .

رغبة إلى الله

إن صوت الحق يهتف فى كل مكان ليهتدى الحائرُونَ ويتجدد البالون .
قال رسول الله - ﷺ - : «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فيعطى؟ هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الفجر»^(١) .
وفى رواية : «أقرب ما يكون العبد من الرب فى جوف الليل»^(٢) فإن استطعت أن تكون بمن يذكر الله فى تلك الساعات فكُن . . !
إنها لحظة إدبار الليل وإقبال النهار ، وعلى أطلال الماضى القريب أو البعيد يمكنك أن تنهض لتبنى مستقبلك .
تأمل فى هذه الآيات التى أضعها بين يديك تهيب بالغافى أن يصحو ، وأن يدع دفء الفراش ، وأن يتخلص من استرخاء البدن ، وأن يذلف إلى بيت الله ليقف فى محرابه مناجيا يؤمل الخير ويرجو الرشاد .

قال الشاعر :

قم فى الدجى يا أيها المتعبّد	قم وادع مولاك الذى خلق الدجى
واستغفر الله العظيم بذلة	واندم على مافات، واندب مامضى
واضرع، وقل: يارب عفوك إننى	أسفأعلى عمرى الذى ضيعته
يارب لم أحسب مرارة مصدر	يارب قد ثقلت على كباثر
يارب إن أبعدت عنك فإن لى	يارب مالى غير لطفك ملجأ
يارب هب لى توبة أقضى بها	

(٢) الترمذى .

(١) مسلم .

أنت الخبير بحال عبدك إنه . بسلاسل الوزر الثقيل . مقيد
أنت المجيب لكل داع يلتجئ أنت المجير لكل من يستجد
من أى بحر غير بحرك نستقى؟ ولاى باب غير بابك نقصد؟

ولا تؤودنك كثرة الخطايا ، فلو كانت ركاما أسود كزبد البحر ما بالى الله عز وجل بالتعفية عليها إن أنت اتجهت إليه قصدا وانطلقت إليه ركضا .

«إن الكوند القديم لا يجوز أن يكون عائقا أمام أوبة صادقة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ (الزمر : ٥٣ ، ٥٤) .

وفى حديث قدسى^(١) عن الله عز وجل : «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» .

وهذا الحديث وأمثاله جرة تحيى الأمل فى الإرادة المخدرة ، وتنهض العزيمة الغافية وهى خجلى لتستأنف السير إلى الله ، ولتجدد حياتها بعد ماض ملئو مستكين . لا أدرى لماذا لا يطير العباد إلى ربهم على أجنحة من الشوق بدل أن يساقوا إليه بسياط من الرهبة؟ .

إن الجهل بالله ، وبدينه ، هو علة هذا الشعور البارد أو هذا الشعور النافر . بالتعبير الصحيح - مع أن البشر لن يجدوا أبر بهم ولا أحنى عليهم من الله عز وجل . وبره وحنه غير مشوبين بغرض ما ، بل هما آثار كماله الأعلى ، وذاته المنزهة .

وقصة الإنسان تشير إلى أن الله خلقه ليكرمه لا ليهينه ، وليسوده فى العالمين لا ليؤخر منزلته أو يضع مقداره ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿ (الأعراف : ١٠ ، ١١)

(١) الترمذى .

ووظيفة الدين بين الناس أن يضبط مسالكهم وعلائقهم على أسس من الحق والقسط حتى يحيا في هذه الدنيا حياة لا جور فيها ولا جهل ...
فالدين للإنسان - كالغذاء لبدنه - ضرورة لوجوده ومتعة لحواسه .

والله عز وجل - بشريته - مع الوالد ضد عقوق الولد ، ومع المظلوم ضد سطوة الظالم ، ومع أى امرئ ضد أن يصاب فى عرضه أو ماله أو دمه! .

فهل فى هذه التعاليم قسوة على البشر ونكال بهم؟ أليست محض الرحمة والخير؟ .

وإذا كلف الله أبناء آدم بعد ذلك ببعض العبادات اليسيرة ، ليحمدوا فيها آلاءه ويذكروا له حقه ، فهل هذه العبادات المفروضة هى التى يتألم الناس من أدائها ، ويتبرمون من إيجابها؟ .

الحق أن الله لم يرد للناس قاطبة إلا اليسر والسماحة والكرامة ، ولكن الناس أبوا أن يستجيبوا لله وأن يسيروا وفق ما رسم لهم فزاغت بهم الأهواء فى كل فج وطفحت الأقطار بتظالمهم وتناكرهم .

ومع هذا الضلال الذى خبطوا فيه ، فإن منادى الإيمان ما يزال يهتف بهم أن عودوا إلى بارئكم .

إن فرحته بعودتكم إليه فوق كل وصف . قال رسول الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ ، وقد ذهبت راحلته؟ فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت . !! فوضع رأسه على ساعده ليموت ، . فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»^(١) .

ألا يبهرك هذا الترحاب الغامر؟ أترى سرورا يعدل هذه البهجة الخالصة؟ .

إن أنبل الناس عرفا ، وأطهرهم نفسا ، قلما يجد فؤادا يتلهف على لقائه بمثل هذا الحنين ، فكيف بخطاء أسرف على نفسه ، وأساء إلى غيره؟ إنه لو وجد استقبالا يستر عليه ما مضى لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر .

(١) البخارى .

أما أن يفاجأ بهذه الفرحة ، وذلك الاستبشار ، فذاك ما يثير الدهشة .
 لكن الله أير بالناس وأسر بأوبة العائدين إليه مما يظن القاصرون!! .
 وطبيعى أن تكون هذه التوبة نقلة كاملة من حياة إلى حياة ، وفاصلا قائما بين
 عهدين متمايزين كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء .
 فليست هذه العودة زورة خاطفة ، يرتد المرء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف .
 وليست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم ، وقوة التحمل ، وطول الجلد ، كلا ،
 كلا ، إن هذه العودة الظافرة التى يفرح الله بها ، هى انتصار الإنسان على أسباب
 الضعف والحمول ، وسحقه لجراثيم الوضاعة والمعصية ، وانطلاقه من قيود الهوى
 والجحود ، ثم استقراره فى مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان والنضج والاهتداء .
 هذه هى العودة التى يقول الله فى صاحبها : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّنَّاسٍ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه : ٨٢) .

إنها حياة تجددت بعد بلى ، ونقطة حاسمة غيرت معالم النفس كما تتغير
 الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخصبات .
 إن تجديد الحياة لا يعنى إدخال بعض الأعمال الصالحة أو النيات الحسنة وسط
 جملة ضخمة من العادات الذميمة ، والأخلاق السيئة ، فهذا الخلط لا ينشئ به
 المرء مستقبلا حميدا ولا مسلكا مجيدا .
 بل إنه لا يدل على كمال أو قبول ، فإن القلوب المتحجرة قد ترشح بالخير ،
 والأصابع الكزة قد تتحرك بالعطاء .

والله عز وجل يصف بعض المطرودين من ساحته فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى
 (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ (النجم : ٣٣ ، ٣٤) ، ويقول فى المكذبين بكتابه : ﴿ وَمَا
 هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِّنْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحاقة : ٤١ - ٤٣) .

فالأشرار قد تمر بضمائهم فترات صحو قليل ، ثم تعود بعد ذلك إلى سباتها .
 ولا يسمى ذلك اهتداء ، إن الاهتداء هو الطور الأخير للتوبة النصوح!!

إن البعد عن الله لن يثمر إلا علقماً ، ومواهب الذكاء والقوة ، والجمال والمعرفة
تتحول كلها إلى نقم ومصائب عندما تعرى عن توفيق الله وتحرم من بركرته .

ولذلك يخوف الله الناس عقبي هذا الاستيحاش منه ، والذهول عنه .

قد تكون سائراً في طريقك فتقبل عليك سيارة تنهب الأرض نهباً ، وتشعر
كأنها موشكة على حطم بدنك وإتلاف حياتك ، فلا ترى بداً من التماس النجاة
وسرعة الهرب . . . إن الله يريد إشعار عباده تعرضهم لمثل هذه المعاطب والحتوف
إذا هم صدفوا عنه ، ويوصيهم أن يلتمسوا النجاة - على عجل - عنده وحده :
﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ
مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الذاريات : ٥٠ ، ٥١) .

وهي عودة تتطلب - كما رأيت - أن يجدد الإنسان نفسه ، وأن يعيد تنظيم
حياته ، وأن يستأنف مع ربه علاقة أفضل وعملاً أكمل وعهداً يجرى على فمه هذا
الدعاء ، « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك
ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء
بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »^(١) أ . هـ .

قال الدكتور زكى مبارك - نقلاً عن قوت القلوب - .

"ولا تنظر أيها التائب إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت .

فقد كانت الصغائر عند الخائفين كبائر ، وكان من الصحابة من يقول : إنكم
لتعملون أعمالاً هي أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدّها فى زمن النّبى ﷺ من
الموبقات . وليس معنى ذلك أن الكبائر التى كانت على عهد النّبى ﷺ صارت
بعده صغائر ، ولكن معناه أنهم كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى فى
قلوبهم ، ولم يكن ذلك الوجدان فى قلوب من بعدهم من المؤمنين .

واختلقت الصوفية فى نسيان ما سلف من الذنوب ، فقال بعضهم : حقيقة
التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك ،
وهذان طريقان لطائفتين ، وحالان لأهل مقامين ، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين
وحال الخائفين ، وأما نسيان الذنوب فطريق العارفين وحال المحبين .

(١) البخارى .

قال زكى مبارك ونحن نرجح الرأى الثانى ونريد الأخذ به فى جميع الأحوال فإن تذكر الذنوب الماضية يشل العزيمة ويقت فى عضد الثائب ، ويخلق جواً جديداً للتعرف على ما سلف من الذنوب ، وهو فوق ذلك جهد ضائع وشغل للقلب بما لا يفيد .

وإقامة المناحات على الهفوات الماضية علالة سخيفة يتوهم فريق من الناس أنها تزيد فى طهر القلوب ، وهى فى عالم الأخلاق تشبه بعض ما يقع فى عالم القضاء ، فلو كان يصح للقضاة أن يتعقبوا ماضى الناس ليأخذوهم بهفوات قدم عليها العهد لاختل الميزان ، وذهب جمال الحاضر ، وزهد الناس فى فضل المتاب ، فإن الأصل فى التوبة أن تكون حجازاً بين عهدين ، وأن يصبح التائب وكأنه مولود جديد ، ولا تنسى أن اجترار الذكريات الماضية سيىء الأثر فى نظام الأعصاب ، وهو خليق بأن تنهت العافية ويضيع جمال الساعة الحاضرة ، وهى العدة الخلقية فى نظام الأعمال» أ . هـ .

والدكتور زكى مبارك مخطئ فى تعصبه للرأى الثانى ، ونحن لا نتعصب للرأى الأول بل نختار ما هو أصلح لدعم التوبة ، وهجر الآثام ، وإلف الطاعات والفضائل . فإن كان استصحاب الماضى يحرس الإنسان من الانزلاق ويقيه العودة إلى مساخط الله فيجب استصحاب ذلك الماضى .

إنه يشبه التجربة التى تفيد صاحبها دربة على السير ، وقدرة على تخطى العوائق . والنسيان هنا ذريعة إلى الجهل والانحراف .

أما إذا كان الإنسان يكره استعادة صور انقضى عهدها ، وانمحي أثرها ، ويشعر بأنه قد استأنف عهداً حافلاً بثمار الخير ، ويرى أن نقل الماضى للحاضر تعكير لصفوه وشل لامتداده ، فالواجب أن ينسى ما كان ، وأن يقبل على حاضره وحده لينمي ويقويه .

إن النفوس مختلفات فى هذا المضمار ، وأحسب أن الذين تسوقهم سياد الرهبة أكثر من الذين يحدوهم نداء الرغبة : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٤) .

ممتوب الناس؟

أما من عدا المؤمنين بالله الأحد ، من مشركين ومعتلين ، فتوبتهم لا تصح إلا إذا آمنوا بالله جل شأنه ، وتركوا المعاصي التي كان يؤزم عليها جحدهم للألوهية ، أو اعتقادهم في شركاء مع الله .

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١) .

قال العلماء : إنما خص اليهود والنصارى بالذكر - مع أن الدعوة عامة للملأ كلها - لأن هؤلاء أحسن من غيرهم حالا فهم أصحاب كتب سماوية ، وإذا ثبت هذا الحكم فيهم ، فهو فى من دونهم أوجب .

ولا شك أن الشيوعيين والوجوديين وأحزابهم أنزل رتبة من أهل الكتاب على ما فى عقائدهم من دخل .

ونحن نصم بالكفر من عرض عليه الإيمان ، واستمكن من الدخول فيه ، ثم أبى ، أما الذين ضلوا لعدم وجود المعلم الهادى ، فوصفهم بالكفر مجاز^(٢) وإلا فهم جهال .

وعلى كلتا الحالتين فصحة التوبة من هؤلاء أن يدعوا ما هم فيه ، وأن يعتنقوا ما أنزل الله فى الرسالة الخاتمة .

وفى حض المثلثين على التوبة يقول الله جل وعلا : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة : ٧٣ ، ٧٤)

(١) مسلم .

(٢) راجع هذا المبحث فى كتابينا : مع الله ، وكيف نفهم الإسلام .

وكذلك توبة سائر الملل الأخرى ، ما تصح إلا بعد الإيمان بالله الواحد ، والاستعداد للقاءه ، ونبذ ما كانوا عليه من جاهلية ، وإمضاء شرائع الإسلام جملة ، تمشياً مع مبدأ السمع والطاعة .

قال تعالى : ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود : ١ - ٣)

وتوبة المسلمين أنفسهم تكون من الذنوب التي لا يجمل بهم ارتكابها لأنها تنافي مقتضى الإيمان ، فإذا أزلهم الشيطان إلى إثم فإن ذلك يحسب عليهم ، ليؤاخذوا به وصلتهم بالله لا تحميهم من عدله إذا استحقوا العقوبة .

صحيح أن الله أعد النار للكافرين ، ولكن المسلمين يدخلونها إذا أسفوا وتهاووا في الذنوب ولذلك يقول لنا محذرا : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (آل عمران : ١٣١ - ١٣٣) .

فإذا لم يتقوا ، ويطيعوا ، ويسارعوا . . . فما بد من أن يلقوا وبال أمرهم . وفي حضن المسلمين على التوبة ، والبعد عن المعاصي يقول الله عز وجل : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور : ٣١) . ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (التحريم : ٨) .

وهذه التوبة تستهدف أن يكون المسلمون عنوانا صحيحا لدينهم ، ومجلى لفضائله وأدابه .

تدبر قوله ﷺ : «المؤمن مرآة المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه» (١) . والجمل الثلاث التي يتكون منها الحديث تبرز مجتمعا متناصحا متعاوناً ، يعمل المؤمن فيه على تنقية أخيه من العيوب ، وعلى ضمان معيشته

(١) أبو داود .

وصدق حمايته ، حاضرا كان أم غائبا . فإذا تمزقت هذه العرى ، ورأيت مجتمعا متناقضا تشيع فيه الأثرة والمظالم فأين يكون الإيمان؟ .

وهل يترك الله أمة تصنع ذلك بنفسها ورسالتها من غير عقوبة؟ .
والنصوص من الكتاب والسنة متضاربة على أن ناسا من أهل التوحيد يدخلون النار لعدم وفائهم بحقوقه ، ثم يخرجون منها بعد قضاء المدد المحكوم عليهم بها فى هذا السجن اللعين ويلقبون بالجهنميين .

عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ : «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل . ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية»^(١) .

وهذا الحديث - وأمثاله كثير فى الصحاح - قاطع بأن من أهل الإيمان من يعذب فى النار لسوء عمله ...

على أن سوء العمل يتفاوت ، وللناس عامة موازين تضبط الخير والشر ضبطا دقيقا . فمن كانت حسناته أرجح فهو على رجاء المغفرة : ﴿وَأَخْرَجُوا عَتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة : ١٠٢) .

أما من عبث وغش وأفسد ، ومرد على الشر ، فلن يدخل الجنة بأقذاره النفسية هذه حتى يلتهب فيها عذاب جهنم .

ونحن نرى أن المسلم يعذب على ذنوبه لأمرين :
أولهما أنه أساء فى خاصة نفسه ، فالجزاء المرصود له عدل .
والآخر أنه أساء للإسلام نفسه إذا تعاون مع غيره من الرعاع على إظهار الأمة فى صورة تحقر دينها وتصرف الناس عن الثقة فيه والطمأنينة إليه .
وهل كفرت أم شتى بالإسلام إلا من سلوك هؤلاء؟ .

مدارج التوبة

وأهل الطاعة محتاجون إلى التوبة كما يحتاج إليها أهل الذنوب .
ومن ظن منهم أنه ليس عنده ما يتوب منه ، أو ظن أنه مستغن عن المتاب فقد
زل . والتوبة يتطلبها هؤلاء من عدة جهات .
(أ) من الخلل الذى يقع فى الطاعات نفسها ، فإن أحدا قلما يأتى بالعبادات
المطلوبة مبرأة من كل عيب . وإن العبد لينظر فى صلاته ، أو فى تلاوته كتاب الله
مثلا ، فيرى أن ضبابا من الغفلة اعترضه فى آونات كثيرة وهو يصلى أو يقرأ .
ومن الممكن أن ترفض له هذه القربات بتهمة ثابتة ، وهى سوء الأدب ورداءة
التقدم بها بين يدى الله .
ومن أجل ذلك التقصير المستمر شرع الاستغفار فى أعقاب الصلوات ثلاث مرات .
(ب) من ظن بأن هذه الطاعات هى منتهى حق الله عليه ، وأنه بأدائها قد
فرغت ذمته ، ودفع لله ثمن نعمه ، وضمن جنته !!
وبقى على الله أن يبعث ملائكته لتسلم المغرور مفاتيح الجنة التى استحقتها
بعمله . . . !!!
وبعض ذوى الطاعات ينتابهم شيء من البلادة وتحجر القلب ارتكانا إلى أشكال
العبادات التى فعلوها .
وربما نزلوا بهذه الأوهام والأدواء إلى درك لم ينزل إليه بعض المخطئين ، كما
شرحنا ذلك فى موضعه من حكم ابن عطاء الله . . .
(ج) وصنوف العبادات التى طوّل المؤمنون بها كثيرة .
ومن الناس من يفتح له فى ناحية لا يستطيعها غيره لاستعداد زودته الأقدار به
من قبل ، وليس فى هذا حرج .
إنما الحرج فى أن يستكثر الإنسان من عبادة ما على حين يجب عليه التوسع فى
غيرها وتوجيه فضول نشاطه إليها .

فالغنى الذى يستكثر من الصلوات ويقتصد فى الصدقات والنفقات يجب أن يتوب من هذا المسلك .

والعالم البليغ الذى يصوم الاثنين والخميس ، ويلوذ بالصمت أو بالإيجاز فى مواطن الزجر والنصح يجب أن يتوب من هذا المسلك .

إن بعض الناس يؤثر عبادة على أخرى لأنها أدنى إلى هواه ، وأقرب إلى السلامة ، والدين أحكم فى تعاليمه وأدق فى موازينه مما يتوهم هؤلاء .

(د) وحراسة الطاعة بعد أدائها من شتى الآفات ضرورة ، كحراسة الزرع من الديدان والأعراض التى تحتاحه .

والرجل يعطى ثم يمتن ، أو يطلب بعطائه الصدارة بين الناس ، رجل يحبط - بهذا المسلك - عمله ، ويضيع أجره .

وقد رسم القرآن الكريم صورة هذا المحروم من أجره وهو أفقر الناس إليه فضرب له المثل بشيخ طاعن فى السن له أولاد ضعاف يرتزقون من حديقة لهم ، قد تعلقت بها آمالهم .

وبغته صوح نبتها إثر كارثة جوية أحرقتها . . . !!!

ذلك مثل العمل الصالح يهلك بسوء التعقيب عليه ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢٦٦) .



توبة الصفوة، واستغفار الرسول

والصفوة الذين نعيمهم هم قوم رسخت في مقام الإحسان أقدامهم ، فهم بين مراقبة وشهود . حياتهم يبرق عليها سنا من صدق المعرفة وتمام الاستسلام ، فلا يكاد يدرك نوره غروب .

وتوبة هؤلاء تجيء من هبوطهم عن المستوى الذى يجب أن يبقوا محلقيين فيه . ونحن - لكى نستبين منازل الناس - يجب أن نعرف أن الاختلاف شديد جدا بين قيم البشر ، وأن المسافة بين إنسان وإنسان تصل أحيانا إلى بعد ما بين الأرض والسماء . . .

تأمل قول رسول الله - ﷺ - يصف درجات المؤمنين فى الجنة : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق والمغرب - لتفاضل ما بينهم !!
قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .

قال : بلى والذى نفسى بيده ، هم رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١) .
إن الفروق القائمة بين أفراد الجنس البشرى واسعة ، والله عز وجل يكلف كل امرئ على مقدار ما أوتى من سعة روحية وعقلية .

وكما أن العطاء من صاحب القناطر المقنطرة يستقل إذا لم يكن غدقا ، فكذلك يستقل الجهد المحدود من ذوى الهمم الضخام .

وهذا معنى قولهم : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أجل إن العمل الذى يعتبر حسنا من إنسان يعتبر تقصيرا من إنسان آخر .
وذلك ما جعل أحدهم يقول :

ولو خطرت لى فى سواك إرادة على خاطرى يوما حكمت بردتى

(١) البخارى .

دوافع هذه المبالغة في الحكم معروفة ، وآفاق الكمال الدينى بعيدة المدى ،
﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين : ٢٦) .

والإحسان عليا منازل المؤمنين ، ولكنه أدنى درجات الأنبياء ، إنهم لا يهبطون
دونه مهما أخطئوا .

وصلتهم بالله الذى اصطفاهم لحمل رسالاته أزكى وأنقى من أن يلوموا بسيئة
على النحو الذى نعهد فى عامة المؤمنين .

إن الأخطاء التى يستغفرون منها أنماط من الكمال لا يطيقها أمثالنا ولا ساداتنا .
وانى أقرأ سورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر : ١ - ٣) ،
فأتساءل : م يستغفر الرسول ربه وهو يستعد للقاءه ؟ .

إن الصحابة فهموا من السورة أن الله يخبر رسوله باقتراب أجله بعد أن نجح أروع
نجاح فى أداء رسالته!! لقد محا الجاهلية ، وبنى الأمة التى صنعت أزهى حضارة
فى التاريخ ، وعليه أن يتهيأ للقاء ربه بعد ما أدى واجبه كاملا ، ويم يتهيأ ؟
بالتسبيح والاستغفار .

إن المغفلين من الخلق هم الذين يتصورون هذا الاستغفار من أخطاء تشابه أخطاءنا .
ولا عجب فالحمالون فى محطة القاهرة عندما يسمعون بيت المعرى :
تعب كلها الحياة فما أعجب
إلا من راغب فى ازدياد
لا يتصورون التعب إلا حمل قفف وحقائب ، وشد حبال وأحزمة ، ذلك مبلغهم
من العلم .

وذلك ما فهمه المستشرقون والمبشرون من أمر الله لرسوله أن يستغفروه!!
زعم بعض أولئك المبشرين أن آيات القرآن تشهد بأن عيسى أفضل من محمد؟
قالوا : إن الله ذكر محمداً فى القرآن بما يفيد أنه رجل مذهب! .
ألم يقل له : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح : ٢) .

أما عيسى فإن صفته فى القرآن أرفع : ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٥) .

ونحن نعرف أن موسى وعيسى ومحمد رجال عظام ، وأنهم من أصحاب العزمات الشداد فى إبلاغ رسالات الله ، وهداية الخلق بأنوار الوحي الأعلى .

ونعلم أنهم جميعا متواضعون كرام الخلق لا يفكر أحدهم فى الاستعلاء على غيره وانتزاع الصدارة منه ، وأن محمدا أبى على أمته أن تفضله على غيره من الأنبياء .

ونعلم أن ذنوب هؤلاء المنسوبة إليهم - وما منهم إلا نسب له ذنب - ليست بته على غرار ما تقترب من سيئات ، إنما هو ما ذكرنا أنفا من نزولهم أحيانا عن الأوج الذى يسبحون فيه مع الكواكب ، أما هبوطهم إلى مستوانا الأرضى فمستحيل .

ولكن ما دام الأمر قد غمض فى بعض الأذهان حتى تناولت على مقام النبى الخاتم صاحب الرسالة العظمى فيجب أن نلقى على الموضوع فضل بيان .

إن مكانة محمد بين إخوانه المرسلين تقررهما الوظيفة التى وكلت إليه ، وهى وظيفة تعرف ضخامتها عندما تعرف أن الله قسم تاريخ الحياة نصفين .

نصفا أول ، وزع عشرات ومئات الأنبياء فى أرجائه .

ونصفا آخر اكتفى فيه بنبوة واحدة لا معقب عليها!!

ونصف الحياة الأول يمثل الجانب الناشئ ، أما نصفها الآخر فهو يمثل الجانب الذكى المستحكم الرأى .

إن محمدا وحسب هو الرسول الذى صاحب العالم فى الفترة اليقظة النابهة من تاريخه .

فعلام يدل هذا؟ .

على أنه أخف كفة من أحد الأنبياء الذين زحموا العالم القديم!!

وشىء آخر ، إن كتاب محمد هو السجل الباقي المستوعب لتعاليم الله دون نقص ولا زيادة ، تلك التعاليم التى جمعت وصايا السماء من الأزل إلى الأبد ، وكتبت لها صيانة لم تؤثر عن كتاب فى الأولين والآخرين ، فهى محفوظة حرفا حرفا ، ولا نقول كلمة كلمة .

فعلام يدل هذا؟ .

على أن صاحب الكتاب الخالد أتفه حظا ، وأضال شأننا من أصحاب الكتب التى فقدت أصولها وعراها من التحريف ما عراها!

هل النبوات المحلية أنبه وأرقى من النبوة التى استطالت واستعرضت حتى وسعت الأمكنة والأزمنة؟ .

إن مكانة محمد بالنسبة لغيره من الأنبياء قد عرفت وتوطدت بعد ما استبانَت حدود رسالته ، وعرف المستقدمون والمستأخرون : أى مهمة أعدتها له الأقدار ، وزودته لاحتمالها بأنفس المواهب؟ .

نعم ، لقد استغنى بهذه الشهادة العلمية عن تزكية الكلام .

وأضحى فى المنصب الذى يمنح هو فيه الآخرين ما يدفع عنهم الشبه ويرد المفتریات . ولذلك أجرى الله على لسانه الآيات التى تعلی قدر ابن مريم ، وإنساق الأسلوب فيها أقرب إلى الإطناب منه إلى الإيجاز .

لماذا؟ لأن النبى الكرم عيسى تعرض لاتهم ساقط ، وقذفت أمه المحصنة بما هى منه براء ، فكان هدف القرآن تبرئة الرجل الشريف ، والإشادة بشخصه والثناء عليه بما هو أهله .

وكذلك كان موقف القرآن من موسى لما آذاه اليهود ونالوا منه : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (الأحزاب : ٦٩) .

وبديهى أن موقف الدفاع عن شخص ما إنما يقوم على إعظامه وتكرمه وذلك هو السر فى التنويه بعيسى على النحو الذى حفل به القرآن
ولا مجال لعقد مقارنة بين الرسولين عيسى ومحمد ، لأن ذلك لا باعث عليه ولا محل له ولا فائدة فيه .

وإنه لما تعلی قدر محمد أن يكون كتابه مقتضبا فى مدحه ، ومرسلا فى مدح غيره .
لقد تدبرت هذه وأنا أقرأ آيات من سورة الدخان ، ووجدت أن الله جل شأنه أعظم محمدا بهذه المعاملة .

قال يصف موقف العرب من الرسالة وصاحبها : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ^(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ ^(١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ^(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ (الدخان : ١٣ - ١٦) .

كل الذى وصف به محمد هنا هو الإبانة .

فلننظر ما جاء بعد فى موسى ورسالته : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (الدخان : ١٧ - ١٩) .

إن موسى هنا وصف بالكرم والأمانة وبأنه أت بسطان مبین!!
هذا السياق المختلف هو الآية على عظمة محمد ، وعلى أن الله جعله إمام الأنبياء طرا .

إن الله أجرى على لسان الأخ الأكبر ما يليق بمكانته من دفاع عن إخوته وتنويه بجهدهم وإبراز لما خفى منه ...

أما هو فحسبه أصل الاصطفاء لإبلاغ أضخم رسالة سماوية .
رسالة أنقذت من العدم تراث من قبله ، وردت إليه الحياة ، ثم نهدت لقوى الشر التى هزمت الوحي وحملته فى الأعصار السالفة فدمرتها تدميرا .
إن إمامة محمد تشهد بها دلائل كثيرة ، فإذا أنكرها البعض فلا ضير .
لقد قال عن نفسه - إخبارا بالواقع فقط - : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» .
إنه لا يذكر ذلك فخراً ، بل كما يذكر ترتيب الناجحين فى امتحان أو مباراة .
لتقرير حقيقة علمية ينبغى أن تعرف ولا معنى لسترها .

الوَرع

ترك المعاصى واجب يقينا ، ومن الخير ترك ما يقرب منها حذرا من الوقوع فيها ، وهذه حيلة يتذرع بها أولو العزم من الناس ، فإن الذى يكره الرذيلة . يجعل بينه وبينها حجابا ، ويختط منهجا لحياته بعيدا عن مظانها وعن أصحابها ، وبذلك يؤمن الانزلاق إليها ويتحصن من أسباب الإغراء التى تكثر قريبا منها .

والأصل فى ذلك ما رواه النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشابهاة ، لا يعلمها كثير من الناس .

فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعه .

ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه .

ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب»^(١) .

والحديث يضرب المثل للبعد عن الشبهات بما نألفه فى حياتنا من أحوال الرؤساء .

فإن لكل منهم مقرا يتربع فيه وحول هذا المقر ساحة واسعة يحظر الاقتراب منها ، وينتشر الحراس حولها .

هذه المساحة المجاورة للمقر هى الحمى ، وكأنها استحكامات خارجية للمقر نفسه ، ولذلك أعطيت حكمه ، ومنع اعتداؤها .

وقد جرت العادة أن يضى الناس لشأنهم بعيدا عن هذه الأسوار وما وراءها ، إذ لا غرض لهم فى القرب منها .

ولماذا يتسكعون حولها فيتعرضون للعنت .

والله عز وجل - وله المثل الأعلى - بين أن له فى أرضه حمى يجب تهيبه ، وهذا

(١) البخارى .

الحمى يتمثل فى المحرمات ، التى نهى عنها ، والكيس من باعد بين نفسه وبين هذه المحرمات ، ضنا بشرفه عن التلوث ، وسيرته عن الاعوجاج .

ثم إن الحلال المحض والحرام المحض قد بينت أدلتهم ، واتضحت حكمة التحليل والتحریم فيهما : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . (النحل : ٩٠)

بيد أن هناك أموراً أخذت من جانب الحلال شيئاً ومن جانب الحرام شيئاً ، فإذا تأملها الناظر وجد لها الوجهين المتضارين ، وتساءل : أى الناحيتين يسلك ؟ .
والمؤمن الصالح يرجع هنا الحظر على الإباحة ضماناً لبراءة عرضه ودينه .
وسيره مع الحزم فى هذه الميادين يرسخ قدمه فى طريق الحق ويجعله قصياً عن أسباب الإغواء والإغراء .

أما التهاون فربما بدأ خفيف الأثر لكنه قد يجرب بعد إلى ما لا يليق .

والروايات الأخرى لحديث الحلال والحرام تدل على ذلك .

فلأبى داود أن الرسول قال : «إنه من يرتع حول الحمى يوشك أن يخالطه وإن من يخالط الرية يوشك أن يجسر» وفى رواية النسائى « فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجتراً على ما شك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان » وفى رواية الطبرانى « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك شبهات ، فمن أوقع بهن ، فهو قمن أن يأثم ، ومن اجتنبن فهو أوفر لدينه . . . » .

فى الأمور المعتادة : ما خير رسول الله - ﷺ - بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه ، وذلك جرى على منهج الإسلام فى التيسير لا التعسير ، ولا عجب فرسول الله ﷺ يقول : «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» (١) .

أما فيما يتصل بالخير والشر والجمال والقبح ، وما يرضى الله وما يسخطه ، فإن مقتضى الحزم أن يحصن المرء نفسه بمزيد من الحيلة فيتترك شيئاً من الحلال القريب من الحرام كراهية للحرام وما يتصل به ، وعن عطية السعدى « لا يبلغ العبد أن يكون فى المتقين حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً لما به بأس » (٢) .

وعن حذيفة قال رسول الله ﷺ : «فضل العلم خير من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع» (٣) .

(١) أحمد .

(٢) الترمذى .

(٣) الطبرانى .

والورع ليس معناه التزمت أو العجز عن مواجهة المشكلات المتجددة بحكم الله فيها ، كلا ، فالمسلم يتحرى الحق جهده وينظر ما يلقاه من القضايا والأحكام ببصر نير ، فإذا اطمأن قلبه إلى ما يقنعه استقر عليه . دون وجل ، وإن نفر قلبه من مسلك أو رأى هجره واستراح .

عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قلت يا رسول الله أخبرنى . ما يحل فى وما يحرم على؟ قال : «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون»^(١) .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : اكثروا على عبد الله ذات يوم . فقال عبد الله : إنه قد أتى علينا زمان ولسنا هنالك!! ثم إن الله عز وجل قدر علينا أن بلغنا ما ترون . فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقض بما فى كتاب الله .

فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه - ﷺ - .

فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه فليقض بما قضى به الصالحون .

فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولا قضى به نبيه ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه . لا يقل : إنى أخاف إنى أخاف!!

فإن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتهات . فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك^(٢) .

التورع عن الشبهات كما رأيت ، سواء كانت هذه الشبهات رأى العين وحكم العلم ، أم كانت قلق النفس وريبة الفؤاد .

ونحن فى عصر ماضى مغرق يستمع إلى هذا الكلام وكأنه يستمع إلى لغة الجان أو سكان المريخ . إنه يطلب ما يشتهى غير دار بحديث الحلال والحرام وما بينهما من شبهات ، ولقد أعطى الرذائل اسما غير اسمها ليتناولها وهى حبيبة إليه شكلا و موضوعا .

والأجيال التى تخوض الحياة بهذه النية أقرب إلى طباع البهائم منها إلى خلائق الإنسان .

(٢) النسائى .

(١) أحمد .

أما أهل التقوى فهم وقافون عند حدود الله ، هيابون أن يلموا بشيء يسقط مروءتهم ويغضب عليهم مولا هم .

وقد ترقى بهم هذا الإيمان إلى ضرب آخر من الورع يستحق الإشارة . قال أبو سليمان الداراني : كل ما شغلك عن الله فهو شؤم عليك .

وقال سهل بن عبد الله حين سئل عن الحلال الصافي :

الحلال هو الذى لا يعصى الله فيه .

والحلال الصافي الذى لا ينسى الله فيه .

فالورع الذى لا ينسى الله فيه ، هو الذى سئل عنه الشبلى رحمه الله ، ف قيل له :

يا أبا بكر ما الورع؟ قال أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طريقة عين^(١) .

وهذا اللون من التفكير يقتضى نمطا حازما من السلوك لا يطيقه إلا الأقلون ، منهم عمر بن الخطاب الذى كان ينظر إلى الرجلين المتساويين فإن كان أحدهما قريبا له أقصاه .

كأن قرابته من أمير المؤمنين عائق له عن الصدارة والوجاهة!!

ولم ذلك؟ لأن عمر شديد الحساسية بما تفعله الأسر الحاكمة فهو لا يريد أن تنتظم له أسرة فى هذا السلك ، وهو يحتاط لذلك من أول الأمر .

ومنهم أبو حنيفة الذى كان يتاجر فى الملابس محددا لنفسه ربحا يكفل حاجاته فحسب ، رافضا ما زاد على ذلك ، وإن طابت نفوس المشتريين بدفعه! .

وأساس هذه الخطة - التى لا تلزم بها الشريعة - أن هؤلاء الرجال شغلتهم فى حياتهم وظيفة أعلى ، فهم يوجلون بما يصرفهم عنها ، أو يوهى عزائمهم فيها .

إن الرجل الذى يرى فى الله عوضا عن كل فائت ، ينظر إلى عرض الدنيا وشئون الأقربين والأبعدين نظرة خاصة ، نظرة من يحكم عليها من أعلى ، لا من تتحكم فيه وهو دونها أو وراءها . . !!

العفة والتقناعة

وهذا العنوان أحب إليّ وأقرب إلى لسان الشريعة من عنوان «الزهد والفقر» الذى أجرى على لسان نفر من الكاتبيين .

فالعفة مثلاً تعنى قدرة الواجد على ضبط نفسه ، أو قدرة المحروم على حكم إرادته ، فهى فضيلة إيجابية حية ، أما الزهد فربما اقترب فى مدلوله ، وفى نتيجته من هذا المعنى ، إلا أنه أدنى إلى السلبية والاستكانة .

وقد رأيت الشارع استعمل كلمة العفة فى نصوص كثيرة صحيحة ، أما كلمة الزهد فترى أنها لم تحبب فى حديث صحيح .

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أربع إذا كن فىك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ الأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن الخليفة ، وعفة فى طعمة»^(١) .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «من أكل طيباً ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة ، قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير . قال : وسيكون فى قرون بعدى قليلاً»^(٢) . وفى الحديث «من يستعفف يعفه الله»^(٣) .

وقد قال تعالى لأولياء اليتامى : ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء : ٦)

وقال للعزاب : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور : ٣٣) .

وفى الرضا بالواقع ، وحسن استغلاله ، ورد السخط على الأقدار يقول رسول الله ﷺ : «خير الذكر الخفى ، وخير العيش ما يكفى»^(٤) .

(١) أحمد . (٢) الترمذى . (٣) البخارى . (٤) ابن حبان .

وفى الحديث «يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»^(١).

وعن عبد الله بن الشخير: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر...﴾ قال: يقول ابن آدم مالى مالى!! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنينت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأضيت»^(٢).

وظاهر من التأمل فى الآثار الأخيرة أنها تحارب رذائل الشره والطمع، والتبرم بالميسور، والبخل فى وجوه الحق.

إن اشتهاه الدنيا يجنون وطغيان يكاد يختلط بدماء الناس ولحومهم، ويخرج بهم عن جادة الاعتدال والحكمة.

والإنسان مجادل طويل اللسان فى تسويق شهواته، ووسط حاجاته، وتحقير ما عنده، وإعلان التمرد عليه، ونعته بأقبح النعوت!!

وماذا يصنع الدين إن لم يهذب هذه الطباع، ويدرب البشر على فضائل العفة والقناعة؟

وبديهى أن العفاف لا يتنافى الإثراء من وجوه الخير، وأن القناعة لا تنافى السعى إلى حالة أفضل، وسنشرح ذلك على ضوء ما نورد من نصوص.

وقبل أن نتناول الموضوع كله بالشرح نحب أن نثبت رأى العلماء الحفاظ فى بعض أحاديث الزهد المشهورة.

ذكر الحفاظ المنذرى عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال: يا رسول الله: دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس!». الله وأحبنى الناس!

فقال: «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس»!! قال: رواه ابن ماجه وقد حسن بعض مشايخنا إسناده.

وفيه بعد، لأنه من رواية خالد بن عمرو القرشى الأموى السعيدى عن سفيان الثورى عن أبى حازم عن سهل.

وخالد هذا قد ترك، واتهم، ولم أر من وثقه.

قال الحافظ المنذرى - بعد ما زيف سند الحديث : لكن على هذا الحديث لامة
من أنوار النبوة ، ولا يمنع كونه راويه ضعيفا أن يكون النبى قاله - أى بسند آخر!!
وقد تابعه - يعنى خالدا - محمد بن كثير الصنعائى عن سفيان .
ومحمد هذا وقد وثق على ضعفه وهو أصلح حالا من خالد ، والله أعلم .
هذا وقد ذكر المنذرى جملة أحاديث أخرى فى الزهد ، لم يبلغ أحدها مرتبة
الصحيح ، وإن كانت هذه الأحاديث مقبولة المعنى من حيث دلالتها على العفة
والقناعة والرغبة فى الله والاكتراث بالدار الآخرة .
وذلك ما جعل المنذرى رحمه الله يشرح قيمتها العلمية بالحكم الصائب على
أسانيدها ، ثم يروج للمعانى النبيلة التى احتوتها ، وهى معان تستحق الحفاوة .
بيد أننا - نحن المسلمين - الآن فى وضع دقيق يفرض علينا أن نسير بحذر فى
تربية أمتنا ، وعلاج العلل المتناقضة التى استشرت فى كيانها .
إن حب الدنيا وكراهية الموت من أسباب الانهيار العسكرى الذى أصاب
المسلمين فى الأعصار الأخيرة .
والجهل بالدنيا ، والعجز فى ساحاتها هما كذلك من أسباب الانهيار العام الذى
استغله خصومنا فى النيل منا والإنحاء علينا .
وقادة الفكر الإسلامى مسئولون عن أمرين :
أولهما : تعزيز عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتذكير الإنسانية بمصيرها الخالد
بعد أن ترحل عن أرجاء هذه الأرض .
والآخر : البراعة فى هذه الحياة وإحراز قصب السبق فى علوم الأرض ، وتوجيه
القوى المادية المختلفة - بعد فقهاها وإجادتها - إلى خدمة المثل العليا للإيمان الصحيح .
وقد بلى المسلمون بمن جهلهم فى الحياة باسم الزهد فيها ، ومن صرفهم عن
العمل لها بزعم أن ذلك صارف عن عمل الآخرة!!
ونسى الغافلون الذين بلوا أمتنا بهذه المحنة أن أخصر الطرق لخسارة الآخرة ،
وضياع الحقيقة ، وسيطرة الضلال ، وانتشار الإثم ، هو هذا التجهيل والتعطيل . .
من أجل ذلك أثرتنا - ونحن بصدد تربية النفوس - أن نؤثر عنواناً على عنوان ،
وإن كان هذا لتغيير فى الشكل لا يغنى من الإفاضة فى شرح الموضوع نفسه .

تتسع أقطار الأرض لأعداد كثيفة من الناس ، فيهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وفيهم من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر .

وكلا الفريقين يسعى وراء رزقه ، يبغى أولاً أن يوفر الضرورات التى لابد منها لنفسه ولأهله ، فإذا اطمأن إلى تحصيلها اجتهد أن ينعم عيشه بالمرفهات ، وأن يقطع مرحلة العمر ، وهو طاعم كاس آمن مسرور . . .

يكاد البشر مؤمنهم وكافرهم يتفقون على هذا المنهج ، بيد أن هناك خلافا عميق القرار فى تفكير الفريقين ، ولون شعورهما .

فالكافر يعبد الحياة لذاتها ، ويطلبها على أنها الهدف الفذ ، والفرصة التى إن ضاعت ضاع كل شيء . .

إنه لا يعرف الحياة إلا هذه الفترة المتاحة له على ظهر الأرض ! ولا يصدق أن وراء هذا العيش عيشاً ! أو أن بعد هذه الدار الدنيا داراً أخرى . . !!

أما المؤمن فإنسان على النقيض فى فهمه وحكمه ، إنه واثق من أن هناك حياة أكد وأعظم ، ينتقل البشر إليها ويخلدون فيها .

وأن المحيا على ظهر الأرض وسيلة لا غاية ، أجل ، هو وسيلة لما بعده ، فهنا الغرس ، وهناك الحصاد ؛ هنا السباق ، وهناك النتيجة .

والدنيا إذا لم تكن مطية للآخرة كانت دار غرور ، وميدان باطل .

البون بعيد كما ترى بين الفريقين ، وإن تجاوزا فى المقام ، وكدحا وراء الطعام .

هذا يأكل ليعيش ، وذاك يعيش ليأكل . . .

إلا أن سحر الدنيا شديد الفتنة ، ومعارك الأقوات تستنفد طاقات ضخمة وتقيد بإزائها مشاعر وأفكارا كثيرة .

ثم هناك تعويل الألوף المؤلفة على النتائج العاجلة فى هذه الدنيا ، وتأثرهم بها . .

هذا كله جعل الدين يبرز فى تعاليمه ناحيتين خطيرتين .

الأولى : الإلحاح فى إفهام الناس أن الدنيا لا تطلب لذاتها ، وأنها لا تستحق أن يتفانى الناس فيها ، إنها إذا لم تكن وسيلة للآخرة ، وإذا لم تصنع منها جسراً تعبر منه إلى رضوان الله فلا خير فيها . . .

اطلبها ، وامتلكها كلها إن استطعت ، لكن على هذا الأساس!
إن الله لم يقل لقارون صاحب الكنوز الهائلة : انخلع من مالك كى أرض عنك
لا ، ابق فيه ولكن ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾
(القصص : ٧٧)

الإسلام يحتقر الدنيا أشد الاحتقار عندما تكون الأمل الذى لا أمل معه ،
وعندما يركض البشر فى طلبها لا لشيء إلا للحصول عليها ، والاستكثار منها .
ثم الموت فى أطوائها ، كما تموت دودة القز داخل ما تنسج ، وليست تنسج لنفسها
شيئا .

إنه يحتقرها هدفا ، ولكنه يحتفى بها وسيلة! .
وفى الإجزاء على الحياة الدنيا ، عندما تكون غاية مجردة جاءت آيات كثيرة ،
وأحاديث شتى ، ثبت هنا بعضها :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا ﴾ (الكهف : ٤٥)

والمثل واضح فى أن الدنيا تتبخر بين أيدي عبادها ، كما يتبخر الماء من الهشيم ،
فإذا هم يقبضون أيديهم على وهم .
ماذا كسب خزان المال عن وجوه الخير؟ وماذا ربحوا من نسيان رازقه ، ورفض
وصاياه فيه؟ .

ماذا نال عباد الأثرة والجاه والاستعلاء عندما يسلون من الحياة الدنيا سلا ،
مخلفين بعدهم أملاكاً ، ذهب اسمهم عنها ، وأثارا كحركة الريح فى صفحة الماء ،
لا استقرار لها ولا بقاء ...

وماذا يكون موقفهم عندما يقول الله لهم : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (الأنعام : ٩٤) .

إن عبادة الحياة ، واعتداها كل شيء ، خطأ شائع ، ولذلك صوب الإسلام إليه
سهامه وأوهر أركانه ، وقد جاءت على لسان رسول الله نصائح عالية نوردها هنا

بعدها رسمنا لها الإطار الذى يحدد المقصود منها ، حتى لا يفهم غر أنها هجوم على الحياة مطلقا . إنها هجوم على نشدان الحياة للحياة ، دون فكر فى رب ، أو ثقة فى جزاء .

عن ابن عباس : مر رسول الله - ﷺ - بشاة ميتة قد ألقاها أهلها ، فقال : «والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»^(١) .

وفى رواية عن أبى الدرداء : مر النبى - ﷺ - بدمنة قوم - كوم سبخ - فيها سخلة ميتة . فقال : ما لأهلها فيها حاجة ؟

قالوا : يا رسول الله لو كان لأهلها فيها حاجة ما نبذوها !

فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها .

فلا ألفيتها أهلكت أحدا منكم^(٢) .

وعن الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ قال له : «يا ضحاك ما طعامك ؟ قال :

يا رسول الله . اللحم واللبن ! قال . ثم يصير إلى ماذا . . . ؟ .

قال : إلى ما قد علمت . . .

قال : فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا^(٣) .

وهذه الآثار جميعا تنعى على عشاق اللذة ، وطلاب المتعة ما ينغمسون فيه إلى الأذقان ، ذاهلين على الله ، وعن الآخرة . . .

وإن كانت الدنيا إنما تطلب وتستحب ، وسيلة لما بعدها ، وقنطرة لمثوبة الله جل وعلا ، فإن طالبها يجب أن يلتزم القوانين التى شرعها من تطلب الدنيا لأجله .

وقد روى عبد الله بن عمر وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ورب متخوض فيما اشتتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار»^(٤) .

إن هناك أديبا لا يمتلك الحياة يجب أن تدرس بدقة . . .

وذاك سر حديثنا عن العفة والقناعة ، والحل والحرم . . .

(١) أحمد .

(٢) أحمد .

(٣) الطبرانى .

(٤) الطبرانى .

إن الناس قد ترتكس أخلاقهم ، فيرون أن ما تيسر أخذه ، لا يصح أن يتركوه
مهما كانت وسائله ، وهذه بهيمية مقبوحة . . . !
فالرجل الشريف لا يبني كيانه إلا بالطرق الشريفة .
وإذا أته الدنيا عن طريق الختل ، أو الغش ، أو الجور أبى أن يقبلها ، ورأى فراغ
يده منها أرضى وأزكى لنفسه .

وفى عفة المؤمن عن الحرام يقول رسول الله ﷺ : «ولأن يأخذ ترابا فيجعله في
فيه خير له من أن يجعل فيه ما حرم الله عليه»^(١) .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله - ﷺ - : «إنه لا
يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت ، النار أولى به . يا كعب بن عجرة .
الناس غاديان فغاد فى فكاك نفسه فمعتقها ، وغاد موبقها»^(٢) .

وانظر كم ترى الفرق شاسعا بين رجل يصيره طعامه خطبا للنار ، وآخر يتكسب
الحلال ، ويتملك الكثير منه والقليل ، فإذا ما ينفقه منه على نفسه وولده يحتسب
زكاة له ، ويوزن فى عمله مع الباقيات الصالحات .

فعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «أما رجل كسب مالا من
حلال ، فأطعم نفسه ، أو كساها ، فمن دونه من خلق الله فإن له به زكاة»^(٣) .

ونزول الإنسان على قانون الاكتفاء الذاتى هو العون الأكبر على ما يأمره به
الإسلام من قنوع وعفاف ، فإن أكثر متاعب الناس تأتيهم من السرف فوق ما
يطيقون والتطلع إلى حياة لا يملكون أسبابها .

وربما لجأوا إلى الاستدانة والمطال ، أو إلى المسألة والضراعة ، أو إلى الرشوة
والسرقة ، أو إلى النهب والسطو ، كى يسدوا أبوابا من النفقة فتحوها على أنفسهم
تزييدا وطمعا .

ولو أنهم عاشوا فى حدود ما يملكون لاستراحوا وأراحوا .
والاكتفاء الذاتى يلزم الإنسان أن يعرف موارده جيدا ، ثم يضغط شهواته
ورغائبه حتى لا تعدو به حدود ما يملك .

(٣) ابن حبان .

(٢) الترمذى .

(١) أحمد .

وأن يغمض عينيه عن حياة الآخرين فلا يحاول المقارنة المثيرة .
وأن يوقن بأن سقوطه رهن بمد يديه إلى هذا وذاك .
وأنه كلما ترفع ، واستعف ملك نفسه وثبت كرامته ، وعاش وجيهاً في الدنيا والآخرة .

روى جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : «إياكم والطمع فإنه هو الفقر وإياكم وما يعتذر منه»^(١) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه . أتى النبی ﷺ رجل فقال : يا رسول الله أوصنى وأوجز ، فقال النبي ﷺ : «عليك بالإياس مما فى أيدى الناس ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وإياك وما يعتذر منه»^(٢) .

إن القناعة قدرة على ضبط النفس إذا تطلعت إلى ما يذلها فى العقبى ، وإن حلالها أول الأمر .

وفى الحديث : «إن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس»^(٣) .
إنك لا تعدم أن ترى فى كل مجتمع أناسا يسهل على أنفسهم الوقوف بالأبواب وتعليق الآمال بذى جاه أو سلطان .

قد يرقبون العطاء لأن حبههم للمال عودهم التكفف .
وقد ينشدون الخطوة أو المنصب ، لأن عوزهم النفسى زين لهم أن العزة فى المنصب الذى يملك فلان أمره ، فهم يزدلفون إليه حتى ينالوا ما يشتهون .
وإنى لأعرف أناسا لهم ذكاء وباع يؤجرون مواهبهم إلى كل من يدفع لهم الثمن .
وما الثمن؟ شئ من حطام هذه الحياة الهالكة ، أو من وجاهاتها الخادعة .
وقحط العقائد والأخلاق لا يجد بيئة يأوى إليها ويستقر فيها ، مثل هذه النفوس المتعلقة الهابطة .

لذلك لا تعجب إذا كان سيد الرجال محمد - ﷺ - يأخذ أصحابه بدروس الكرامة التى تقصصهم عن هذه المواطن السوء ، ويغرس فى لحمهم ودمهم معانى العفة والقناعة التى تجعلهم ملوكا فى أنفسهم ، لأنه ليست لهم حاجة تدنيهم إلى بشر .

(٣) الطبرانى .

(٢) البيهقى .

(١) الطبرانى .

عن عوف بن مالك الأشجعي رضى الله عنه قال : كنا حديثى عهد بببيعة فقال لنا رسول الله ﷺ : «ألا تباعونى؟ فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك؟ . قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية ، لا تسألوا الناس . . .»

فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه^(١) .
وعن ابن أبى مليكة قال : ربما سقط الخطام من يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه .
قال : فقالوا له : أفلا أمرتنا فتناولكه؟ .

قال : إن حِيبى ﷺ أمرنى أن لا أسأل الناس شيئا^(٢) .
وأنت ترى أن الراكب إذا طلب سوطا وقع منه على الأرض فإنه لم يسأل عسرا ولم يقترب جرما ، ومع ذلك فإن التنزه عن طلب شيء من الناس وتعويد النفس الاستغناء المطلق ، كان من وراء هذا السلوك الحازم .

والمسلم ما دام يطلب الدنيا ليستعين بها على آخرته ، ويبتغى بها مرضاة ربه ، فهو غير مستعد لأن يضحي فى سبيلها بمروءته ، أو يفقد شيئا من دينه .
إنها إن جاءت من طريق الحلال الطيب قبلها ، وإلا رفضها ، ولم يتبعها نفسه .
وهو كذلك إذا حازها لم يسمح لها أن تشغله عن الله ، كيف ، وهو إنما رغب فيها ، لا لذاتها ، بل لأنها وسيلة لما هو أعظم منها وأخلد . . .؟

والحق أنه فى إبان الذهول عن الله ، والغفلة عن حقوقه تنطلق قوى البشر لاغتنام الحياة وانتهاب فرصها بقوى عارمة ، ورغبات عنيفة ، وتكاد معركة الخبز تنسى الناس أنهم بشر فيهم ودائع من السماء ، وأنفاس من روح الله .

إن الجانب الحيوانى هو الذى يطن فى أذانهم ، بل إن الأهداف التى تسعى إليها الدواب قريبة المرمى قليلة الكلفة ، أما البشر فهم يسخرّون عقولهم الذكية ومواهبهم العليا للاستكثار من هذا الخطام والاستثثار به عن الآخرين .

وكم يطوى الليل والنهار من جراحات وضحايا ومظالم فى أعقاب هذا العراك المادى السفيف .

(٢) مسلم .

(١) أحمد .

ترى لو فكر الناس بأناة ، وذكروا ربهم بدل نسيانهم ؛ وقدروا حقه بدل جحدته ؛ وفرغوا له من أفكارهم وأفئدتهم قسطا يصلهم به ، أما كان يحمل عنهم هذا العناء كله؟! .

إنه يستطيع أن يلهمهم رشدا يختصر لهم المتاعب ؛ ويجنّبهم الجرى وراء الأوهام . وما أكثر الذين يجرون وراء الأوهام الباطلة في الحياة وما أكثر الذين ييذلون الكثير ويجنّون القليل ، ولو أرادوا لكانوا أحسن ظنا . تأمل ما رواه معقل بن يسار عن رسول الله - ﷺ - في حديث قدسي يقول الله : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يديك رزقا ، يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقرا ، وأملأ يديك شغلا»^(١) .

وهذا الحديث ليس دعوة للعطل ، وكل دعوة للعطل فهي منقوضة من أساسها ، إنما هو دعوة لتغليب الله على هموم الرزق ومتاعب العيش .

والكد في الدنيا للاستغفاف والغنى من حقائق العبادة ، ومن معاني الجهاد . ولكن الملحوظ أن مطالب الدنيا قد تكتسح أحيانا الواجبات المفروضة ، وتصرف الناس عن الله والصلاة له ، والمآل إليه وذلك ما يعالجه الدين بشتى الأساليب .

ومن ترهيب الناس عن هذه الحال ما رواه زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له .

ومن كانت الآخرة نيته جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٢) .

وفي رواية «إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشئت عليه ضيعته»^(٣) ولا يأت منها إلا ما كتب له .

ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ويكفيه ضيعته وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤) .

والموضوع يحتاج إلى زيادة إيضاح ، وفي القرآن الكريم ما يجمع أطراف الحقيقة بإيجاز وحسم .

قال تعالى في طلاب الدنيا الذين كرسوا أوقاتهم ونشاطهم لها دون سواها :

(٢) ابن ماجه .

(١) الحاكم .

(٤) الطبراني .

(٣) الضيعة مصدر الرزق من وظيفة أو تجارة أو حرفة .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسِرُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿هود: ١٥، ١٦﴾ .

هذا الفريق من الناس لا يصدق بيوم آخر، ولا يستعد له بشيء، فطبعي ألا يكون له فيه نصيب، إنه لم يزرع له عوداً واحداً، فمن أين يأتي الجنى؟ .
أما عمله في الدنيا الذي توفر عليه وتفرغ له فهو محسوب له كله، لا ينقص ذرة من الجزاء المرصده له، ولا بد أن يقتطف ثمرته دون بخس أو جور .
لكن تسعير هذا العمل بما يساوى قيمته الحقيقية، ثم الزيادة عليه بما يشاء الله من فضل، أمر موكول لله وحده .

فقد يؤدي رجلان متساويان المواهب والجهد عملاً واحداً، فيعطى أحدهما حقه كاملاً، ويمنح الآخر نصيباً أكبر من صدارة أو عافية، أو ثراء ..
إنه لم يظلم الأول فليس له اعتراض .

ولما كان الله هو المريد المختار الماجد الذي لا يعوق قضاءه شيء، ولا يتحكم في عطائه أحد، فقد أعلن هذا التفاوت منسوباً إلى مشيئته، حتى يشعر البشر طراً بأنه القاهر فوق عباده فلا يقهر، الغالب على أمره فلا يغلب .

قال جل شأنه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هُوَلاًءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿(الإسراء: ١٨ - ٢٠)﴾ .

وهذه الآيات مبينة في أن أثمان ومنح الكافرين على ما يعملون موكولة للقدر الأعلى الذي لا يظلم، وإن فاوت في العطاء .

وأن هذه الدنيا يرح فيها الكافرون والمؤمنون بالإمداد الإلهي الرحب الغدق، ولكن الكافرين الذين ظفروا في عاجل أمرهم بالرحمة الإلهية على ما يعملون، وعلى ما لا يعملون، يحرسون يقينا من الدار الآخرة ...

فإن هذه الدار لا يكسبها إلا من أَرادها ، واستعد للحياة الباقية فيها ، وكان المهاد
الذى أثره لنيلها هو الإيمان الحق . . .

وفى معاملة طلاب الآخرة ، وما يتنزل عليهم من رحمات الله وأفضاله يقول
جل شأنه : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ (الشورى : ٢٠) .

أساس المعاملة هنا ليس العوض المكافئ ، بل العطاء الواسع ، وهو عطاء يشمل
الدنيا والآخرة ؛ وإن كانت الدنيا ليست دار جزاء ، إلا أن الابتلاء المفروض فى
فترتها لا ينافى أن تورق للمؤمن أغصان من عمله يسير فى ظلها حيناً إذا كان هناك
من يلفحه الحر ، ويثوده التعب .

وتوضيحا للمعاملة التى يلقاها المؤمن من ربه روى أبو هريرة أن رسول
الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : «إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا
تكتبوها عليه حتى يعملها .
فإن عملها فاكتبوها بمثلها .

وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة .

وإذا أراد عبدى أن يعمل حسنة فاكتبوها له حسنة .

فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة»^(١) .

وبعد هذا البيان يعالّن الله عباده بما عنده فيقول : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ١٣٤) .

فى أرجاء الشرق والغرب نسمع صياحا بعيد المدى متجاوب الصدى حول رفع
مستوى المعيشة ! ورفع مستوى المعيشة هدف إنسانى لا رب فيه .

إن الفقر عاهة مؤذية ، وعورة بادية ، وما يرضى بالفقر للناس رجل له قلب وخلق . .
ونحن نشد أزر المكافحين فى هذه السبيل ، ولا نستكثر جهودنا التى بذلناها
بالقلم واللسان والعمل كى نضع أصار البؤس عن البائسين .

(١) البخارى .

إلا أننا نتساءل : ثم ماذا بعد أن يغتنى الناس من فقر ، ويترفهوا من خشونة ؟ .
هل الغاية التى ينتهى إليها جهاد المصلحين ، أن يعيش الناس فوق هذا الثرى
يأكلون الطعام ، ويسمعون الأغاني ، ويطلبون المتع ، ويستخدمون آخر ما أنتجت
الحضارة من أدوات الترويح والتنعيم ؟ .

أما إعدادهم للدار الآخرة فصفر . أو قليل لا يذكر ، لأنهم بين مراتب فيها
أو مكذب لها ، أو غافل عنها !! .

إن انتهاء العالم إلى هذا المصير فى تفكيره وشعوره ، وإلى هذا الوضع فى يقظته
ومنامه ، معناه أن العالم صرعه الإلحاد وغطته غواشى الكفر والفسوق والعصيان .
وهذا ما لا يمكن أن يهادنه الدين أو يعيش بجواره هادئاً .

وهذه السكره الزائفة عن الحق وتبعاته ، هذه الدنيا التى اشتبهت لذاتها ولم
يحسب فيها حساب الآخرة ولم يعرف فيها حق الله ، هى التى لعنها الإسلام
وصب عليها جام غضبه ، وحقرها وحقر أصحابها معها .

﴿ وَيَوْمَ يَعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ
بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا
كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (الأحقاف : ٢٠)

والقرآن الكريم يتناول عشاق الحياة من هذا القبيل ؛ فيقرر أن مصيرهم إلى سقر ،
ويندد بما كانوا عليه فى الدنيا من شبع وطيش ... ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ ﴾ (١٠) ﴿ فَيَسُوفُ يَدْعُو تَبَوُّرًا ﴾ (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿ (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴾ (١٣)
إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ (الانشقاق : ١٠ - ١٤) .

والإسلام إنما يستنكر السرور الجاحد المستغرق فى العاجلة دون سواها .
وهو إذا كان قد نعى فى الآية السابقة على الكافرين إذهابهم طيباتهم فى
حياتهم الدنيا فليس معنى هذا أنه حرم الطيبات على المؤمنين !!

كيف ؟ وهو ما أحل لهم إلا هذه الطيبات !! ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ
لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ... ﴾ (المائدة : ٤) .

إن المآخذ على الكافرين أنهم لا يعرفون لله حقاً في هذه الحياة .
يطعمون رزقه ولا يشكرون فضله ، ويحيون في ملكه وينكرون وجوده ويظنون
الحياة على الأرض هي الوجود الأول والآخر ، ثم لا شيء بعد هذا إلا العدم
المطلق ...

وحياة تصطبغ بهذا اللون القائم تخالف من كل ناحية حياة المؤمنين الذين يردون
الفضل إلى صاحبه في كل خير يعرض لهم نحو ما قال أبو الأنبياء إبراهيم وهو يتبرأ
من الآلهة الباطلة : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ
(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿ (الشعراء : ٧٧ - ٨٠)
الحيوانية التي ينبعث عنها فريق كبير من الناس في مبادئهم الاجتماعية
والسياسية ، بل في سيرتهم النفسية والخلقية ، والتي تجعل الحياة لا تعدو الوجود
المادى وحده . هي التي عناها الإسلام ، وهو يصف الكافرين فيقول : ﴿ وَأَصْحَابُ
الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُومٍ (٤٣) لَا
بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ (الواقعة : ٤١ - ٤٥) .

وعندما يذيقهم العذاب الأليم ثم يقول : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (غافر : ٧٥) .
إن دنيا المؤمنين محكومة بحدود واضحة .
وهي حدود تقطع الناس بصراحة عن كل محرم ؛ وترسم لهم أسلوب انتفاعهم
بهذه الدنيا إلى حين .

وتأخذهم بأدب واضح من التعفف والقنوع بحجزهم عن الأهواء والأطماع
وبدفعهم في طريق الاعتدال والقصد .
إن عظمة الإيمان ليست في أنه يجرد أصحابه من الدنيا ... وما يظن ذلك إلا
جاهل قاصر ...

عظمة الإيمان أنه يتيح لأصحابه امتلاك ما يشاءون ؛ على أن يكون ذلك في
أيديهم لا في قلوبهم ، ينزلون عنه جملة وتفصيلاً في ساعة فداء ، ويحيون في ظله
- ما عاشوا - أعفاء سمحاء .

فى مجال الترقى قد تكون الحرب سجلا بين المرء وهواه ، يستقيم حيناً ، ويتعثر حيناً آخر ، ولكن إصراره على المضى إلى هدفه يصل به على طول المدى .
والمرء فى المراحل الأولى من هذه المجاهدات يلقي نوازعه الدنيا وجهها لوجه فإذا انتصر عليها أحس لذة الظفر نورا يشرق على روحه ويتخلل شعاب قلبه .
وفى هذه الحال يقول رسول الله ﷺ : «أحب الصدقات أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تحب الغنى وتخشى الفقر» (١) .

ومدافعة شح النفس إذا حدثت بالبخل عمل حسن ، وله أجره الكريم .
وهناك نفوس لا تزال تتعود العطاء حتى يكاد يكون لها طبعاً .
فإذا وجدت دواعى الكرم انطلقت إليه كالسهم المارق ، لا يعوقها حديث نفسى ولا يثبطها تعلق بدنيا . . .

كما يصف ذلك العربى نفسه وهو يستقبل الضيف الوافد ، يقول :
فقمتم ، ولم أجثم مكانى ، ولم تقم مع النفس علامات البخل الفواض
إلى جذم ما قال قد نهكنا سوامه وأعراضا فيه بواق صحاح
كذلك موقف المؤمن مع الدنيا .

لقد حجفته عزائم الإيمان عن كل محرم فيها ، وملاً يديه من أسبابها ليتوسل بها إلى إقامة الحق ، وعبادة الله .
وربما أقبل على ما أباح الله منها ، ولا عليه فى ذلك .
وربما سيطرت عليه المعانى الكبيرة التى يعيش فيها فصرفته صرفاً عن أنواع المباح التى يهش لها غيره .

ومن ثم ترى فريقاً من الناس يمر بأفراح الدنيا كما يمر التلميذ الممتحن غداً ، بضجة الناس فى الشوارع ، لا يعلق بانتباهه منها إلا القليل .
عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جنبه .

فقال : يا رسول الله ، لو اتخذت فراشا أوتر من هذا . فقال : «مالى وللدنيا ،

ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سافر فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة ، ثم راح وتركها»^(١) .

وفى رواية أن أبا بكر وعمر قالا : يا رسول الله ، ما يؤذك خشونة ما نرى من فراشك وسريرك؟ وهذا كسرى وقيصر على فراش الحرير والدياج؟؟ .

فقال : «لا تقولا هذا ، فإن فراش كسرى وقيصر إلى النار ، وإن فراشى وسيرى هذا عاقبته إلى الجنة» .

ونحن لا نقول بتحريم الطيبات ، وإنما نصف درجة من الاستغراق العلوى تشغل عما دونها ...

وإننا لنرى أحيانا بعض العلماء يشغله التفكير عن العناية بهندامه والاهتمام بظهره ، لا تمعدا لإهمال ، ولكنها طبيعة هذا الصنف من الرجال .

الصبر

سألت نفسى : هل يستغنى الأحياء عن الصبر؟ إنه لازم لكيانهم المعنوى لزوم الماء ، أو الهواء لكيانهم المادى .

نعم ، قد تستغنى الدواب ، أليفة كانت أو متوحشة عن هذا الخلق ، لأنها تحيا وفق هواها ، وتسيرها طباعها وحدها .

أما الإنسان فهو كائن تتبعه التكاليف مذ يعقل ، تأمره بفعل ما قد يكره وترك ما قد يحب .

بل هو بعد سنوات قلة من ميلاده يقاد إلى المدرسة برغمه ، ويبدأ المربون يخرجونه من نطاق اللهو واللعب إلى استيعاب مبادئ القراءة والحساب وحفظ أشتات من النصوص والأناشيد .

فقبل أن يجىء مرحلة البلوغ ، وتناط بعنقه التكاليف الجادة تمهد نفسه لحياة يهجر فيها رغباته ، ويحترم فيها واجباته .

ولا أدرى إذا كان هناك فريق من البشر يستغنون عن هذا الخلق لظروف معينة تحيط بحياتهم ، وتوفر لهم من المتاع والراحة ما يغنيهم عن مشقات الكفاح الأدبى والمادى ! .

إننى أشك فى أن الدنيا تضم بين طياتها هذا النوع من الناس .

ذلك أن البشر الذين يقتربون من الأنعام فى سيرتهم تفرض عليهم الأقدار ألا ما من طراز سافل ، لا يرون محيصا من احتمالها وهم كارهون .

على أننا نوقن بأن طريق الإيمان ، ومنهج الشرف والبطولة ، لا بد فيه من صبر طويل طويل .

وإن الرجل كل الرجل هو الذى يستسهل المتاعب بإلفها ، والذى يعلم أنه - ما تردد فى صدره نفس - يجب أن يلقى الدنيا والناس بحزم وتحفظ ، وبصيرة وتصون .

وأن الصبر عتاده فى هذا كله ، فلن يزحزح عن النار ويدخل الجنة إلا بهذه اليقظة وهذا الدأب .

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل - يعنى إلى الجنة - فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحجبت بالمكاره ، وقال : ارجع إليها فانظر إليها ، فرجع فإذا هى قد حجبت بالمكاره ، قال : لقد خشيت ألا يدخلها أحد ، قال : فانظر إلى النار وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها ، وإلى ما أعد لأهلها فإذا هى يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له : ارجع إليها فانظر إليها فإذا هى قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها»^(١) .

إن حياة الدعة والطراوة تقتل المواهب ، وتطمس الملكات . . .

والإنسان يتحرك ، ويتكشف معدنه ، ويغزر إنتاجه كلما أحس خطر المعارضين ، أو صدمات الشدائد ، كأن أسرار الحياة الكامنة فيه يستثيرها التهديد فتتحفز للدفاع عن نفسها ، فتندفع إلى الأمام ناشطة آملّة . !

و معادن العظماء إنما تبرق وسط الأنواء التى تكتنفها ، فكأن هذه الأنواء رياح تنفخ فى ضرامها ، فيتوهج ، ولو ترك وحده لكان وشيك الانطفاء .

ومن حكمة الله البالغة أنه لم يدع البشر يحيون فى بيئة تعطيهم خيرها منحا بل استحياهم فى بيئة تفرض الكفاح فرضا ، ولا تعطى الثمار إلا بعد غراس .

وهذا الجهد المبذول من مصلحة الحياة نفسها لتبقى وتزدهر . من مصلحة الأحياء أنفسهم ليلبغوا تمامهم .

وقد كتب الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولى كلاما فى هذا المعنى يستحق التسجيل . قال :

«حكى أحد العلماء الحديثين عن نفسه ، فقال : كنت مغرما فى طفولتى بجمع شرائق الفراش ، ومراقبة خروج الفراشة منها فى الربيع ، وكان جهادها فى التخلص من سجنها يثير عطفى دائما . وأتى والدى يوماً ما بمقص وأعمله فى غلاف الحرير المطبق على الفراشة وساعدها على الخلاص ، ولكنها ما لبثت قليلا حتى ماتت ،

(١) الترمذى .

وعندئذ قال أبى : يا بنى إن الجهد الذى تبذله الفراشة لتخرج من الشرنقة يخرج السم من جسمها وإذا لم يخرج هذا السم ماتت الفراشة ، وكذلك الناس إذا جهدوا فى سبيل ما يريدون زادوا قوة وعزما ، ولكن إذا واتاهم ما يريدون سهلا طيعا ، غلب عليهم الضعف ومات منهم شئ جليل الخطر .

وهكذا تعلم أن طبيعة الحياة عجيبة ، لأنها لا تعطينا إلا لتأخذ منا ، ولا تهب لنا شيئا إلا لتتناول مقابلا ، إنها تكيل لنا صاعا بصاع ، فلا غرو إذا كانت آمالنا لا تتحقق إلا بين الأشواك فى الأرض الوعرة ، وكأنما شاءت الدنيا أن تخفى مفاتنتها تحت مصارع المطامع لتدفع الإنسان إلى مواجهتها والتغلب عليها .

ومن ثم نعرف قيمة الشدائد ، بل نعرف الفرق بين الأبطال الصناديد ، والجنباة الرعاديذ ، إذ الشدائد هى المحك الذى يكشف عن معدن الرجل : قوة وضعفا . عقلا وهوى ، والحياة - فى الأغلب الأعم - ليست إلا مزاجا من سعادة وتعاسة ، وهناء وشقاء ، وفرح وترح ، ولا قيمة لها إذا كانت ذات لون واحد ، وقديما قالوا : وبضدها تتميز الأشياء . فلا طعم للحلو دون المر ، ولا مذاق للماء الفرات دون الماء الأجاج .

ولعله من أنفع ما يساق فى هذا المطلب ، ما قصه على أستاذ من جلة المعاصرين ، وكان - يرحمه الله - معروفا بالهدوء ، والعزوف عن الشهرة ، وقد رقى أرفع المناصب العلمية قال : «لقد أخذت نفسى بتلاوة القرآن الكريم كلما ادلهم خطب ، وأهرع إلى تدبر كلام الفلاسفة الحكماء ، أروح به عن نفسى ، وقد وقفت على تشبيهه رائع لما نلابس فى دنيانا ، كلما تذكرته هدأت أعصابى واطمأن خاطرى .

ذلك بأن الحياة اليومية ، ليست إلا كوبا ، نصفه مملوء بالماء ، ونصفه الآخر فارغ لا ماء فيه . فلست بمستطيع أن تحكم بأنه مملوء كله ولا فارغ كله وهكذا الناس لن تجد فيهم ذا حياة مملوءة كلها ولا ذا حياة فارغة كلها ، وإنما لكل منا نصيب من السعادة ، ونصيب من الشقاء ، ومن ثم يسعد أحدهنا أو يشقى بنظرته إلى الكوب الذى يستقى منه ، فإن رآه مملوءا إلى نصفه سعد بحياته ، وإن رآه فارغا إلى نصفه شقى بها .

وهكذا تعودت إذا ما نزعت نفسى إلى الجزع ، أن أذكر أن الحياة ليست فارغة

إلى نصفها ، بل مملوءة إلى نصفها ، ومن ثم تذهب متاعبي كفاء الغم ، وتروح أحزاني بدداً .

وتصبير النفس على لأواء العيش ، وإرهاق الواجب ، وإغراء الهوى يحتاج إلى عزم وقوة ، وللعرب فى هذا الأفق آداب رفيعة ، استوحوها من تجاربهم ومن أشواقهم إلى العزة ، ورغبتهم فى وفرة العرض وصون الجانب ، وهم يرون أن الركوع للشدائد لا جدوى منه إلا الذلة التى منها يأنفون ، وأن هذه الشدائد لا تقيم بساحة إلا ريثما تتحول عنها ، فعلى المرء أن يواجه ما يكره بجلد ، آملاً أن تنقش الغمة وهو ثابت الخلق نقى الصفحة قال عبد العزيز بن زرارة :

وليلة من ليالى الدهر كالحلة	باشرت من هولها مرأى ومصطرعا
ونكسة لورمى الرامى بها حجرا	أصم، من جندل الصوان . لانصدعا
مرت على، فلم أ طرح لها سلبى	ولا اشتكت لها وهنا ولا جزعا
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه	ولا يضيق به صدرى إذا وقع
كلاً لبست فلا النعماء تبطرنى	ولا تخشعت من لأوائها جزعا

وقال ابن الرومى :

ولا تحسبن الشر يبقى فإنه	شهاب حريق واقد ثم خامد
ستألف فقدان الذى قد فقده	كالفك وجدان الذى أنت واجد
ومن لم يزل يرعى الشدائد فكره	على مهل، هانت عليه الشدائد
وللشر إقلاع، وللهم فرجة	وللخير، بعد المؤيسات، عوايد
وكم أعقبت بعد البلايا مواهب	وكم أعقبت بعد الرزايا فوائد
وكم ساء يوماً سيقفوه صالح	وكم شاءت يوماً سيقفوه حاسد

والصبر الذى دعا إليه هؤلاء الشعراء ، رياضة نفسية يعرفها ألو النهى من كل جنس وملة ، وهى رياضة تحمد لطبيعتها ونتائجها ، فإن العزم أشرف من الوهن والأمل أجدى من اليأس .

وهؤلاء أباؤنا عما فى الصبر من محاسن ضبط النفس وطيب العقبي .

ونحن نركى هذه الوجهة إلا أننا نتحدث عن صبر المؤمنين ابتغاء وجه الله .

وهو مسلك يجعل الصبر مشوباً بالذكر ، ويجعل المؤمن بصيراً بأن القدر الأعلى

من وراء الأحداث التي تنويه ، ومن ثم فهو في شدته يظل قوى الصلة بربه ، يدعوه ويرجوه ، ويستسلم له ويعتمد عليه ، ويتحمل ما يتحمل لأن الله شاء ، ومشيئته موضع التسليم والإعزاز . . .

والكلمة التي تثليج فؤاده «إنا لله وإنا إليه راجعون» يستشعر معناها فيما يعرض له من بأساء وضراء ، فيربو يقينه ، ويكون أهلاً لرحمات الله بعد ما استبان موقفه من بلائه .

والمرء في هذه الحياة يختلف عليه العسر واليسر ، والصحة والسقم ، ومطلوب منه في الأحوال التي يكرهها ألا تهتز علاقته بربه وألا يضعف أمله في فرجه .
إنه في اليسر يطمئن إلى ما في يده من مال فلا يبالى بالسواوس ، بل قد تبتعد عنه ابتعاداً تاماً!

أليس ماله في يده؟

والمطلوب منه إذا أعسر ألا يستبد به القلق ، وأن يكون إيمانه بالغيب مشيعاً للسكينة في قلبه ، فيعلم أن الله لن يخذله إذا قصده ، وأن ما في يده جل شأنه قريب منه ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ (البقرة: ٢٦٨) .

والصبر لله روح يدور على هذا المحور ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك»^(١) .

والجملة الأخيرة في الحديث تفند قول ابن الرومي لما مات ابنه .

وما سـرني أن بعثته بشوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد!!

هذا جزع ولدته ساعة طيش وجنون .

وخير منه ، قول من واسى مؤمناً في فقيدة له «رحمة الله خير لها منك ، وثواب الله خير لك منها» .

الصبر لله روح الإيمان ، ومناط الثواب الجزيل الذي يصبه الله صباً على من ابتلى ، وسلم لله أمره ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) .

وعن أبي بردة قال : كنت عند معاوية وطبيب يعالج قروحة في ظهره وهو

(١) الترمذی .

يتضرر ، فقلت له : لو بعض شبابنا فعل هذا لعبنا عليه ، فقال : ما سرني أنى لا أجده ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من مسلم يصيبه أذى فى جسده إلا كان كفارة لخطاياها» (١) .

وعن أبى هريرة ، قال رسول الله ﷺ : «قال الله تبارك وتعالى : إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عواده ، أطلقتته من أسارى ، ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ثم يستأنف العمل» (٢) .

ومعنى الحديث : أن الصحة التى تعود للمريض تجدد له جسده ، وأن صبره على ما نزل يحو ماضيه السيئ كله ، ويفتح له صفحة جديدة لا سوء فيها ...

وعن أميمة : أنها سألت عائشة رضى الله عنها عن قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ...﴾ (البقرة : ٢٨٤) ، وقوله : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء : ١٢٣) ، فقالت عائشة : ما سألتى أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال لى : «يا عائشة هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة ، حتى البضاعة يضعها فى كفه ، فيفقدوها فيفزع لها ، فيجدها فى ضبنه ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير» (٣) .

الضبن : ما بين الإبط والكشح .

والأحاديث كثيرة فى أن المرض يحص المؤمن ، وينقى نفسه ، ويغسل ذنوبه .

عن عبد الرحمن بن أبى بكر : أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوباء والحمى كحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها» (٤) .

وذلك طبعاً للصابر المحتسب ، المستكين لقضاء الله الراجى عفو الله .

وقد بلغ من فضل الله على المؤمنين به أن فتح لهم باب الأمل فى واسع مغفرته ، إذا صدقوا الصبر فى عناء ليلة واحدة .

(١) أحمد .

(٢) الحاكم .

(٣) ابن أبى الدنيا .

(٤) الحاكم .

فعن الحسن - يرفعه لرسول الله ﷺ : «إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة»^(١) .

وفى رواية : كانوا - يعنى أصحاب رسول الله ﷺ يرجون فى حمى ليلة كفارة لما مضى من الذنوب^(٢) .

ونحن نعرف أن توبة نصوحا تغمر قلب امرئ فى ساعة من ليل أو نهار تطهر ماضيه كله ، وأن رحمة الله وسعت كل شىء .

بيد أننا نحسب حديث الحسن وأمثاله إنما يصور السبب المباشر لنيل المغفرة ، ولا يصور الأسباب كلها .

إن الحروب الكبرى قد تقع إثر حادث محدود أو اشتباك تافه .

فهل هذا أو ذاك هما أسباب الحرب؟ كلا ، إن الخلافات الماضية ، والعداوات الأصلية ، والقوى المعبأة ، والرغبات الكامنة فى تسوية الموقف هى التى تشعل نار الحرب وتستبقيها سنين عددا .

وما الحادث الذى وصفوه بأنه سبب الحرب إلا الفرصة التى انتهزت لتفريغ ما فى النفوس ، كذلك القول بأن صداعا يصيب المؤمن يكفر عنه ما مضى .

الحق أن أصل الصبر فى نفسه ، واختلاط هذا الصبر بأحواله وأعماله كلها هو الذى رشحه لما رأينا .

وحال ليلة يعد من نظرنا أنموذجا لشمائل حياة ، كما قيل لدريد :

تقول: ألا تبكى أخاك؟ وقد أرى مكان البكا، لكن بنيت على الصبر!

وقد وصف الله المؤمنين بخلال طيبة كثيرة ، فى مقدمتها الصبر ، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿ (الرعد : ٢٢ ، ٢٤) .

ولماذا يكون التسليم عليهم مقرونا بما صبروا فقط مع أنهم أدخلوا الجنة بشمائل كثيرة؟ .

الواقع أن الصبر عنصر أصيل فى بقية الأعمال الأخرى من صلاة ونفقة وإصلاح ، إنه الخيط الذى جمعها ، بل هو فى كيانها كالماء فى صنوف الأحياء ... قال ابن القيم :

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن إجابة داعى الهوى المذموم كانت مرتبته وأسماءه بحسب متعلقه .

فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سُمى عفة ، وضدها الفجور والزنا والعهر .

وإن كان عن شهوة البطن ، وعدم التسرع إلى الطعام ، أو تناول ما لا يجمل منه سُمى شرف نفس ، وشيع نفس ، وسُمى ضده شرها ودناءة ، ووضاعة نفس .

وإن كان عن إظهاره ما لا يحسن إظهاره من الكلام سُمى كتمان سر ، وضده إذاعة وإفشاء ، أو تهمة أو فحشاء ، أو سبا أو كذباً أو قذفاً .

وإن كان عن فضول العيش سُمى زهداً ، وضده حرصاً .

وإن كان على قدر ما يكفى من الدنيا سُمى قناعة وضدها الحرص أيضاً .

وإن كان عن إجابة داعى الغضب سُمى حلماً ، وضده تسرعاً .

وإن كان عن إجابة داعى العجلة سُمى وقاراً وثباتاً ، وضده طيشاً وخفة .

وإن كان عن إجابة داعى الفرار والهرب سُمى شجاعة ، وضده جبناً وخوراً .

وإن كان عن إجابة داعى الانتقام سُمى عفواً وصفحاً ، وضده انتقاماً وعقوبة .

وإن كان عن إجابة داعى الإمساك والبخل سُمى جوداً ، وضده بخلاً .

وإن كان عن إجابة داعى الطعام والشراب فى وقت مخصوص سُمى صوماً .

وإن كان عن إجابة داعى العجز والكسل سُمى كيساً .

وإن كان عن إجابة داعى إلقاء الكل على الناس ، وعدم حمل كلهم سُمى مروءة .

فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه .

والاسم الجامع لذلك كله (صبر) وهذا يدل على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها .

وهكذا يسمى عدلا إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار ، وعلى هذا جميع منازل الدين أ . هـ .

والذى يتبادر إلى أذهان العامة أن الصبر يستحب لمواجهة المأسى والألام ، ولا ريب أن عمل الصبر فى هذه المواطن مطلوب .

بيد أن عمل الصبر فى النفس إبقاؤها فى مجال الاعتدال والتؤدة والبصر . وإذا كانت الضراء تخرج الناس عن وعيهم حيناً ، فإن السراء تخرج الناس عن وعيهم أحيانا .

ولاتصال النعمة سكرة تستفز بعض الضعاف ، وتدفعهم إلى ما لا يليق من بطر وجهل . من أجل ذلك أوجب الإسلام الصبر على المسلم فى حاله من خير وشر ونفع وضر ، قال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَةٍ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود : ٩ - ١١) . والصبر بهذا الشمول امتلاك أزمة النفس كلها حتى لا تشرد بها الأهواء والأنواء مينة أو يسرة .

ومن الحكم التى رواها ابن الجوزى : «إن لله عز وجل يوما لا ينتجو من شره منقاد لهواه» .

وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة .

وإن العقول لما جرت فى ميادين الطلب كان أوفرها حظا من يطالبها بقدر ما استصحبت من الصبر - يعنى أن الذكاء المجرد لا يكفى فى إحراز النجاح إن لم يصحبه دأب على العلم ، وتحمل لأعبائه ، ألا ترى الأرنب الذى اعتمد على سرعته الطبيعية ، غلبته سلحفاة لأنه ركن إلى قدرته فلها وعرفت هى بطأها فتأبرت؟ كذلك اللهو يخذل العقول!

وإن العقول معدن والفكر معول - يعنى أن التفكير يتطلب جهدا وكدا وكم عرق الأذكىء من إعمال الفكر كما يعرق الفلاح وهو يضرب الأرض بفأسه غاية ما هنالك أن العامل بيديه أصح بدنا ، وأن العامل بعقله أدنى إلى الإعياء . !!

الشكر

هل معنى الكلام عن الصبر أن الإنسان يعيش فى حلقات متصلة من الآلام؟ لا يحتاج معها إلا إلى المواساة والتعزية! .

لا ، فالحياة الإنسانية أضوأ من ذلك وأرحب ، إن البشر لا يعيشون كما يعيش الأولاد فى كنف أب قاس القلب ، أو كما تعيش الرعية فى سلطان أمير غليظ الرقة .

وما أغزر النعم التى تنهمر على الناس ليلهم ونهارهم من المهد إلى اللحد ، وهى نعم لو قدروها قدرها ، أو أحسنوا استغلالها لملاأت قلوبهم بالحمد ، وأطلقت ألسنتهم بالثناء .

بل لو غلغلنا البصر فى التكاليف التى تستدعى الصبر لاستبان لنا أنها إلى النعمة أدنى منها إلى المحنة .

فالحرمات المحظورة ، والواجبات المطلوبة ، والأعباء المفروضة ، والآلام العارضة ، تلك جميعا ليست ضرائب يقدمها الإنسان لمن يحتاج إليها أو يستكثر بها ، كلا بل تلك مدارج للكمال الإنسانى ، وحصانات للقطرة السماوية أن تتلوث أو تستمرئ الحضيض !!

أما رب العالمين فهو يعطى ولا يأخذ ، وهو يطعم ولا يطعم ، وهو يجير ولا يجار عليه .

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْذَ وَلِيٍّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ١٤) .

والقرآن الكريم فى شتى صوره أحصى أصول النعم ، وذكر أمثلة شتى لما غمر الناس منها ، وارتقب من أصحاب الضمائر الحية أن يشكروا صاحبها ، وأن يعرفوا حقه فيها ، بعد ما بسطها بأروع أسلوب .

وفى هذا القرآن سورة باسم الرحمن عدت جملة من نعم الدنيا والآخرة ؛ وفى ثنايا هذا العد الموقظ المذكور توجه للإنس والجن بهذا السؤال .

﴿فَإِيَّ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣) .

توجه إليهم عشرات المرات ، يحمل التقريع بقدر ما يحمل التعليم والتذكير إن شكر الله على أنعمه حق ، ولكن ما أكثر النعم وأقل الشاكرين!!
والكلمة الشائعة فى الترجمة عن شكر الإنسان لربه هى الحمد .
والحمد كلمة تعنى - مع الشكر - الثناء على الله ، وتمجيد ذاته ، ومن ثم كانت أرجح وأذيع .

والمهم أن يرددها المسلم ، وهو شاعر بالمنة والجميل ، مقرر من أعماقه بأن الله مصدر ما اندفق عليه من خير ، وأهل ما صعد إليه من شكر ...
فى كل طرفة عين ، ونبضة قلب ، يتعرف الله إلى عباده عن طريق ما يمنحهم من بركاته ، وينزل عليهم من خيراته .
وهى بركات وخيرات متجددة على اختلاف الليل والنهار ، فلا غرو إذا استقبلها الناس بمعرفة من أسداها . وشكره! .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢)
وقد أمر الله الناس أن يشكروه لأن قلة الشكر خسة يجب التنزه عنها ، إنك لو أطعمت امرأ شهراً أو شهرين ، أو قضيت عنه ديناً أو دينين ، أو رفعتَه درجة أو درجتين ، ثم تجههم لك بعد هذه الأيادى وأعرض عنك لرأيت أن فراغ الحياة من مثله واجب . وأن بقاءه على ظهر الأرض قذى يتحرك! .

فما ظنك بمن خلق من عدم ، وأطعم وستر ، وأغدق وأمد الأعوام بعد الأعوام؟
عندما يرى عبده قد حاز كل هذه النعم ثم عادى مسديها؟ .

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ٤) .
﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿
(الأنعام: ٦٣ ، ٦٤)

إن الله أمر الناس أن يشكروه لأن الكنود ندالة ، ولأن الإصرار عليه يجعل حق صاحبه فى الحياة الكريمة صفراً ، ولأنه ما يليق بإنسان أن يستقبل فضل مولاه بكرة وأصيلاً ثم يدبر له ظهره ويتولى عن إجابة أمره .

إن الأمر بالشكر ليس تكليف مشقة يصبر الناس على أدائه ، بل هو طريق كمال ينبغي أن يسير الناس فيه بهمة وقدرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُم بِإِيَّاهِ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢) .

والإقرار بالجميل ، وركون الفؤاد إلى صانعه يجعل المرء أهلاً للمزيد ، لأن النعمة تثمر فيه ، كما يثمر الماء في الأرض الخصبة ، ولذلك لا يظن عليها بالقليل والكثير ، أما الأرض السبخة فإن انعدام الأمل في ريتها يجعل إرسال الماء إليها عبثاً ، ولذلك يقطع عنها ...

قال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧)

وشدة العذاب كفاء لخباثة الجحود! .

وماذا على الناس إذا مرحوا في نعمة الله أن يطووا ضمائرهم على عرفان الجميل والاعتراف بالفضل ، وأن يقولوا لله المنعم : نشكرك .
أهذا كثير أم هذا ثقيل ؟؟ .

إن الله قص علينا قصة سبأ لنعرف منها عقبي الكنود ، وكيف أنها كانت زاهرة ثم صارت خراباً أتى على ما سبق من سعة ورفاهية .

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٥-١٧) .

والشكر شعور في النفس قبل أن يكون حركة لسان ، وقد وضع الإسلام صوراً ورسم طرقاً لترجمة عن هذا الشعور المكنون ...

ونحن واجدون في سيرة رسول الله ﷺ من مظاهر الشكر وآيات الحمد لله رب العالمين ، ما يثير الدهشة ، وما يسرى في القلوب شوقاً ورقة ...

كان إذا استيقظ من النوم يقول : « الحمد لله الذى رد على روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره »^(١) .

وكان إذا انتهى من الطعام يقول : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين »^(٢) .

وكان إذا عاد من الخلاء يقول : « الحمد لله الذى أذاقنى لذته ، وأبقى فى قوته ، وأذهب عني أذاه »^(٣) .

وكان إذا لبس ثوبا جديدا يقول :

« الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنى إياه من غير حول منى ولا قوة » .

وكان إذا عاد من سفر يقول :

« آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون » .

وفى الصحيح أن الرسول ﷺ قال : « أتحبون أيها الناس أن تحتهدوا فى الدعاء ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : قولوا : اللهم أعنا على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك »^(٤) .

وكان من دعاء النبى ﷺ : « رب أعنى ولا تعن على ، وانصرنى ولا تنصر على ، وامكر لى ولا تمكر على ، واهدنى ويسر الهدى لى ، انصرنى على من بغى على . رب اجعلنى لك شكارا ، لك ذكارا ، لك رهبا ، لك مطوعا ، لك مخبئا ، إليك أواها منيبا .

رب تقبل توبتى ، واغسل حوبتى وأجب دعوتى ، وثبت حجتى ، وسدد لسانى ، واهد قلبى ، واسلل سخيمة صدرى »^(٥) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ! فقل له أى رسول الله ، أتصنع هذا ، وقد جاءك من الله أن قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ .

قال ! : أفلا أكون عبدا شكورا »^(٦) .

(٤) الحاكم .

(٦) ابن خزيمة .

(١ - ٣) المأثورات للإمام الشهيد .

(٥) النسائى .

وفى رواية عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه .

فقلت له : لم تصنع هذا؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ .
قال ! : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا»^(١) .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «التأنى من الله ، والعجلة من الشيطان ، وما أحد أكثر معاذير من الله ، وما شئ أحب إلى الله من الحمد»^(٢) .
إن هذا الشعور العميق بفضل الله ، والإحساس الواضح بنعمته والرغبة الحارة فى إكباره وإجلاله والاعتراف بخيره ، إن هذا كله انتقل من فؤاد الرسول ﷺ إلى أفئدة صحبه ، فهم يتبارون فى تحية ربهم وحمده وقدره حق قدره .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال أبى بن كعب : لأدخلن المسجد فلاأصلن ولاأحمدن الله بمحمد لم يحمده بها أحد .

فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه ، فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله . علانيته وسره ، لك الحمد ، إنك على كل شئ قدير .

اغفرلى ما مضى من ذنوبى ، واعصمنى فيما بقى من عمرى ، وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى ، وتب على .

فأتى رسول الله ﷺ ، فقص عليه ، فقال : «ذاك جبريل عليه السلام»^(٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ حدثهم «أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

ففضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها .

فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها .

قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدى؟ .

قالا : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

(٢) أبو يعلى .

(١) البخارى .

(٣) ابن أبى الدنيا .

فقال الله لهما . اكتبها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها»^(١) .
وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : «قال رجل عند رسول الله ﷺ :
الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه .

فقال رسول الله ﷺ : من صاحب الكلمة؟ .
فسكت الرجل ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شىء يكرهه .
فقال رسول الله : من هو ، فإنه لم يقل إلا صوابا؟ .
فقال الرجل : أنا قلنتها يا رسول الله أبغى بها الخير .
فقال النبى ﷺ : «والذى نفسى بيده ، لقد رأيت ثلاثة عشر ملكا يبتدرون
كلمتك : أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى»^(٢) .
وعن على رضى الله عنه : «أن النبى ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام ،
فقال :

يا محمد ، إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته ، أو يوما ، فقل :
« لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك .
ولك الحمد حمدا لا ينتهى له دون علمك .
ولك الحمد حمدا لا ينتهى له دون مشيئتك .
ولك الحمد حمدا لا أجر لقائله إلا رضاك»^(٣) .

ماذا كان جهد أبلّيس بعد أن طرد من السماء؟
كان جهده أن يغرى أبناء آدم بالجحود ، ونسيان ما أولاهم الله من نعم . . .
كان جهده أن يشغلهم بفنون من الغفلة تزبن لهم أن يأكلوا من رزق الله ، ولا
يحمدوه ، وأن يفتحوا عيونهم على آيات العظمة ، ولا يمجّدوه . . .
إن الدواب إذا وجدت أقواتها التهمتّها ، ما تعى شيئا غير هذا ، وإذا فقدتها
أحست لذع الجوع ، ما تعى شيئا غير هذا ، وإذا استمتعت بالعافية جرت ووثبت ،
وإذا قيدها المرض استكانت وهمدت ، ما تعى شيئا غير هذا . . .

(٣) البيهقى .

(٢) الطبرانى .

(١) ابن ماجه .

...إنها لا تعرف صبرا على بأساء ، ولا شكرا على نعماء ...
وكذلك يريد الشيطان من أبناء آدم أن يعيشوا على هذا النمط المنحط ، لا ذكر ، ولا شكر .

وكذلك ألى إبليس على نفسه يوم أخرج من الجنة فقال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف : ١٦ ، ١٧) .
وأسوأ ما يكون الجحود عندما يكون جماعيا تنحدر إليه أمة بأسرها .

فترى كأن هناك توصيًّا على ألا يذكر الله بخيرا!! بل ترى كأن هناك اتفاقا مكتوبًا أو غير مكتوب على أن تلتهم أفضال الله ، وتنسب ذلك إلى أى شيء ما عداه . . .!!!
وهل هلكت عاد ، وهلكت ثمود ، إلا بهذا الخلق الدنيء ؟ .

قيل لعاد : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (الأعراف : ٦٩) .

وقيل لشمود : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف : ٧٤) .

لكن هؤلاء وأولئك لم يستشعروا فيض النعم الذى سال فى أرجاء بلادهم فحرموا ما جحدوا ، وسلبوا ما غمطوا ، وحقت عليهم كلمة العذاب .

وقد أهاب الله بخلقه ألا يردوا هذه الموارد الوبيئة فقال : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة : ١٥٢) .

ومع ذلك ، فما أقل الذين يعترفون بالفضل ، ويشعرون بالجميل : ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (سبأ : ١٣) .

وإنه ليسرنا أن تثبت هنا باقة من النصوص والآثار الحافزة على الشكر ، المشيعة لعواطفه فى الأفتدة نقلا عن الإمام الجليل ابن القيم رضى الله عنه .

قال : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن اسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل ، عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، ويدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغيه حوباً فى نفسها ولا فى ماله» .

وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبى ﷺ قال : «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها» وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره . وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله ، فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له» .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها» .

فكان هذا الجزء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة : ٧٢) . كان فى مقابلة نعمته بالحمد .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن صالح . حدثنا أبو زهير يحيى بن عطار القرشى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة» ، لأن الله تعالى يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (إبراهيم : ٧) . وقال الحسن البصرى : «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا» .

ولهذا كانوا يسمون الشكر : الحافظ ، لأنه يحفظ النعم الموجودة ، والجالب : لأنه يجلب النعم المفقودة .

وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال لرجل من همدان . «إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد ، وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد» .

وقال عمر بن عبد العزيز : «قيدوا نعم الله بشكر الله» وكان يقال : «الشكر قيد النعم» .

وقال مطرف بن عبد الله : «لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر» .
 وقال الحسن : «كثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر» .
 وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .
 والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته ، فإن ذلك شكرها بلسان الحال .
 وقال الشعبي : «الشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله» .
 وقال أبو قلابة : «لا تضركم دنيا شكرتوها» .

وقال الحسن : «إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ، فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم ، وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث بدل نعمته عليهم عذابا» .
 وقد ذم الله سبحانه وتعالى الكنود أى هو الذى لا يشكر نعمه ، قال الحسن :
 ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أى يعد المصائب وينسى النعم .
 وقد أخبر النبى ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب ، قال : لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط .
 فماذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج ، وهى فى الحقيقة من الله ، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله؟؟

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ وَالظُّلْمُ مُرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمَ
 إِلَى مَتَى أَنْتَ، وَحَتَّى مَتَى تَشْكُو الْمَصِيبَاتِ وَتَنْسَى النِّعَمَ؟؟

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى عبد الرحمن السلمى عن الشعبي عن
 النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، والجماعة بركة ، والفرقة عذاب» .

وقال مطرف بن عبد الله : «نظرت فى العافية والشكر ، فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ، ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر» .

ورأى بكر بن عبد الله المزنى حملاً عليه حملة وهو يقول : الحمد لله أستغفر الله ، قال : فانتظرت حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له : أما تحسن غير هذا؟ .
 قال : بلى أحسن خيراً كثيراً ، وأقرأ كتاب الله ، غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على نعمه السابغة ، واستغفره لذنوبى .

فقلت : الحمال أفقه من بكر . . !!

وذكر الترمذى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا .

فقال : قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» .

وقال مشعر : لما قيل لآل داود : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلى .

وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « دعا رجل من الأنصار (من أهل قباء) النبی ﷺ فانطلقنا معه . فلما طعم وغسل يديه قال : « الحمد لله الذى يُطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا .

الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ، ولا مستغنى عنه .

الحمد لله الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب ، وكسا من العرى وهدى من الضلال ، وبصر من العمى ، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا ، الحمد لله رب العالمين» .

وفى مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ، ولا مال ، أو ولد ، فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » .

ويذكر عن عائشة رضى الله عنها أن النبی ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها ، وقال : يا عائشة : « أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم » ذكره ابن الدنيا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بن القاسم حدثنا صالح عن أبى عمران الجونى عن أبى الخلد ، قال : قرأت فى مسألة داود أنه قال : « يا رب كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك .

قال فأتاه الوحي يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ .

قال بلى يا رب ، قال فإني أَرْضَى بِذَلِكَ مِنْكَ شُكْرًا .

وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا أبو موسى الأنصارى حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال : كان من دعاء داود : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ بِالدِّعَاءِ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبد الله ابن الحارث قال : أوحى الله إلى داود «أحبني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي» .

قال : يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحبك إلى عبادك؟

قال : تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن .

فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدس أسماءه وجل ثناؤه ولا إله غيره . .

ومن دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القوت ليعرفه نعمته عليه .

وقال سلام بن أبى مطيع دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن فقلت له : اذكر المطروحين على الطريق ، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم .

قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول لنفسه : أذكرى المطروحين فى الطريق ، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه .

وقال عبد الله بن أبى نوح : قال لى رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملتك بما تحب؟ .

قلت : ما أحصى ذلك كثرة .

قال : فهل قصدت إليه فى أمر كربك فخذلك؟ .

قلت : لا والله ، ولكنه أحسن إلى وأعاننى .

قال : فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ .

قلت : وهل منعنى شيئاً سألته ، ما سألته شيئاً قط إلا أعطانى ولا استعنت به إلا أعاننى .

قال : رأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت : ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء .

قال : فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره وهو المحسن قديما وحديثا إليك ، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده ، إنه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكرا .

وقال سفيان الثورى : ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه فى الآخرة ، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه .

وقال ابن أبى الحوارى : قلت لأبى معاوية : ما أعظم النعمة علينا فى التوحيد نسأل الله أن لا يسلبنا إياه ، قال : يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه ، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها ، ويستعمل بعمل إلا قبله .

هناك ناس لهم طبايع غبية كنود ، تسدى إليهم الجميل بعد الجميل ؛ فكأنما ترقم على ماء لا يبقى فى نفوسهم أثر منه ، ولا اعتراف به .

وكثير ممن نلقى على هذا الغرار الردىء يجرىء أحدهم بطلبه فتحس أنه محرج ، وأنه محتسب فى دائرة هذه الحاجة التى يفتقدها .

فإذا قضيتها له ولى مدبرا ولم يعقب!

فإذا احتاج مرة أخرى أتى واللهفة بادية فى سؤاله وحالته حتى إذا تم له ما يريد انصرف على عجل أو بعد كلمات ميتة لا تترجم عن قلب حاضر ، ولا فؤاد واع .

هؤلاء الناس يظنون أن الحياة مكلفة بتيسير مطالبهم ، فحسبهم أن يمدوا أيديهم لتعود بما يبتغون ، كما تمد الدواب أفواهها إلى الكأ وورق الشجر لتطعم منه متى شاءت دون إحساس بفضل من غرس وصنيع من منح! .

كذلك هم حدوك النعل بالنعل يحتاجون فيجدون فيولون!! فإذا منعهم شيئا مما يريدون ارتفعت صيحاتهم بالسخط والسباب والاستنكار .

لماذا؟ إنه صراخ الحيوان المحروم .

فهلا إذا تألمتم من الحرمان أبدىتم الرضا والشكر لدى العطاء .

كثير من الناس يعاملون الله بهذا الأسلوب السافل ، يسألونه فيجيبهم فإذا رجع أحدهم بيده حافلة مر كأن لم يدع ربه إلى ضر مسه ، مر دون شكر ودون حياء .

فإذا احتاج - وما أسرع الاحتياج - عاد بذات الشعور وذات الكنود ، فلماذا يتألم إذا لدغته آلام الحرمان والطرْد؟ .

إن المنع أيسر ما يقابل به الشخص الجاحد فهو لا يذوق طعم العطاء ، ولا يقدر صاحبه .

ونحن - جماهير البشر - نصبح ونمسي نخوض في نعم الله خوضا ، فلماذا لا نوقظ أفكارنا الغافية إلى معرفة تلك المنن؟ ولماذا لا نوقظ ضمائرنا لشكر مرسلها؟ .

تلقت يوما إلى ما مضى من حياتي فرأيت صبيبا من الخيرات قد غمرني ظاهره وباطنه ومتونه وحواشيه ، وأحسست أن ما يضايقني أحيانا كان علاجا حكيما لعلل نفسية لو بقيت معي لكبت بى ونالت منى! .

وساءلت نفسي . كيف شكرها على هذا الخير الغدق؟ فكان الجواب : لقد شكرت النعماء يوم قدمت ، فلما استقرت بدأ الشعور الحار يبرد والاعتراف بالجميل يخف !

كذلك يفعل الناس ، وتلك عاداتهم مع المنعم الأعلى ، فهل هذه سبيل الاستزادة من خيره وبره؟؟ .

وتذكرت كلمة لابن عطاء الله " كيف يخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد "؟ .

إن استصحب الشعور بالعطاء السابق هو أخصر الطرق لاستدرار العطاء اللاحق ، ولابن الجوزى فى هذا خاطر لطيف .

قال رضى الله عنه :

«بلغنى عن بعض الكرماء أن رجلا سأله فقال : أنا الذى أحسنت إلى يوم كذا وكذا ، فقال : مرحبا بمن يتوسل إلينا بنا ، ثم قضى حاجته . . . !

فأخذت من ذلك إشارة فتاجيت بها ربى فقلت : أنت الذى هديته^(١) من زمن الطفولة ، وحفظته من الضلال! ، وعصمته من كثير من الذنوب .

وألهمته طلب العلم لا بفهم لشرف العلم - لموضع الصغر - ولا بحب والده - لموت الوالد .

ورزقته فهما لتفقهه وتصنيفه ، وهيات له أسباب جمعه .

(١) ابن الجوزى بهذه السطور يصف نفسه .

وقمت برزقه من غير تعب منه ، ولا ذل للخلق بالسؤال ، وحاميت عنه الأعداء ، فلم يقصده جبار إلا انهزم ، وجمعت له ما لم تجمع لأكثر الخلق من فنون العلم التى لا تكاد تجتمع فى شخص ، وأضفت إليها تعلق القلب بمعرفتكم ومحبتكم وحسن العبارة ولطفها فى الدلالة عليكم .

ووضعت له فى القلوب القبول ، حتى إن الخلق يقبلون عليه ويقبلون ما يقوله ، ولا يشكون فيه ، ويستاقون إلى كلامه ، ولا يدركهم الملل منه ، وصنته بالعزلة عن مخالطة من لا يصلح ، وأنسته فى خلوته بالعلم تارة ومناجاتك أخرى .

وإن ذهبتُ أعدُّ لم أقدر على إحصاء عُشِيرِ الْعُشِيرِ ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) .

فيا محسنا إلىَّ قبل أن أطلب ، لا تخيب أملى فيك وأنا أطلب . فبإنعامك المتقدم أنوسل إليك» .

ويقول ابن الجوزى رضى الله عنه :

نازعتنى نفسى إلى أمر مكروه فى الشرع ، وجعلت تنصب لى التأويلات وتدفع الكراهة ، وكانت تأويلاتها فاسدة ، والحجة ظاهرة على الكراهة .

فليجأت إلى الله تعالى فى دفع ذلك عن قلبى ، وأقبلت على القراءة ، وكان درسى قد بلغ سورة يوسف فافتتحتها ، وذلك الخاطر قد شغل قلبى حتى لا أدري ما أقرأ ، فلما بلغت إلى قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ (يوسف : ٢٣) ، انتبهت لها وكأنى خطبت بها .

فأفقت من تلك السكرة ، فقلت يا نفس أفهمت؟ .

هذا حر بيع ظلما فراعى حق من أحسن إليه ، وسماه مالكا ، وإن لم يكن له عليه ملك ، فقال : إنه ربى .

ثم زاد فى بيان موجب كف كفه عما يؤذيه فقال : أحسن مثواى .

فكيف بك وأنت عبد على الحقيقة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك وهداك أقوم طريق ، ونجباك من كل كيد

وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن .

وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويله .
وجلى في عرصة لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن
الخلق مقابحك ، فتلقوها منك بحسن الظن .

وساق رزقك بلا كلفة تكلف ، ولا كدر من ، رغدا غير نزر .

فوالله ما أدرى أى نعمة عليك أشرح لك ، حسن الصورة وصحة الآلات؟ أم
سلامة المزاج واعتدال التركيب؟ أم لطف الطبع الخالى عن خساسة؟ أم إلهام الرشاد
منذ الصغر؟ أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل؟ أم استحباب طريق النقل
واتباع الأثر من غير جمود على تقليد لمعظم ولا انخراط فى سلك مبتدع؟ .

﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (إبراهيم : ٣٤) .

كم كائد نصب لك المكاييد فوقاك؟ .

كم عدو حط منك بالذم فرقاك؟ .

كم أعطش من شراب الأمانى خلقا وسقاك؟ .

كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك؟ .

فأنت يا نفس تصبحين وتمسين سليمة البدن محروسة الدين ، فى تزيد من
العلم وبلوغ الأمل .

فإن منعك مراد فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة فى المنع
فسلمى حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح .

ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سنح ذكره امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة .

وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح . . .

فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه بعد ذلك كله؟ ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ

مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف : ٢٣) .

الخوف

الخوف من الله عاطفة تنبع من حسن معرفته ، وكمال العلم به ، فهي ليست وجلا مبهما لا يدري مأتاه أو نتائجها ، بل الخوف شعور واضح بجلال الخلاق العليم ، وما ينبغي إكثانه له من مهابة ، وإعظام .

وكيف لا يخشى جبار السموات والأرض الذى بيده ملكوت كل شيء ، والذى لا تماسك شيء إلا بإيجاده وإمداده ، والذى لا يعترض غضبه شيء إذا أعلن غضبه على أحد ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة : ١٧) .

إن الإنسان عادة يشعر بانتفاء ذاته أمام من تبهره عظمتهم ، وهذا ما يسميه علماء النفس : الشعور السلبي بالذات ، وهو شعور يشتبك مع انفعالات نفسية أخرى ، فيكون عواطف الإعجاب ، والتهيب ، وما أشبه ذلك .

وأحق من يقف البشر بساحته وهم مفعمون بالخضوع والاستكانة ، والزلفى ، والاستجداء هو الله جل شأنه الذى ترجع إليه أمورهم كلها فيبيت فيها بتا لا معقب عليه ﴿ أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ (٢٠) أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿ (الملك : ٢٠ ، ٢١)

وليس أساس الشعور بالخوف من الله هذا وحده ، نعم إن المرء يفرق من الهزيمة ومن الفقر ، ويقف قلقا مضطربا أمام من يستطيع أن يوقع به شيئا من ذلك ، لكن بناء الخشية على ذلك فقط لا يليق .

إن الخوف يرتبط بالمعرفة ، فإذا رأيت امرأةً يتعرض لتسيار كهربائى صاعق ، أو يتوقف أمام قطار حديدى منطلق فهو إما جاهل أو مجنون .
إن العلم بخصائص الأشياء يملئ على صاحبه التصرفات المناسبة .

ومن عرف الله معرفة اليقين ، انمحت من نفسه كل آثار الجراءة والبرود وساورته بين الحين والحين مشاعر الوجل والحذر .

وهى مشاعر لا يستغنى عنها حتى فى حكم نفسه وضبط سلوكه .

ثم هى الباعث الدائم على استرضاء الله ، وفعل ما أمر وترك ما نهى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿ (البينة : ٧ ، ٨) .

على أن الأفراد والجماعات لهم فى جنب الله زلات مخوفة ، وكم يقترب البشر من الرذائل التى تجر عليهم الويل ، لأنها محادة لله واستهانة بحقه ، وعمى عما يجب له .

ولو أن المعصية تلقى جزاءها العدل على عجل لخسف بآتيها ، وذاق للفور عقبي جهله وغروره ﴿ وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (فاطر : ٤٥)

ولكن الصبور جل شأنه يمنح الخطائين فرصا واسعة كي يثوبوا لرشدهم ويعتدروا لربهم .

﴿ ... وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (فاطر : ٤٥)

من الجائز أن تنفجر فى أجسادهم مراجل الغضب الإلهي بغتة ، وهم سادرون فى غيهم فلا تبقى منهم أحدا ، ولا تدع لهم وسما ولا رسما ...

وقد قص علينا المولى فى كتابه أخبار الأمم الأولى ، وكيف هانت على الله لما أهانت أمره ، وكيف نكل بها لما نكلت عن الصراط المستقيم ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَنَطْعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ (الأعراف : ٩٧ - ١٠٠) .

والخوف من الله عاطفة تدل على شرف النفس ، وبقظة الحس ، وامتلاك الزمام

فى الساعات الحرجة ، وأنه لرجل جدير بكل احترام ومثوبة هذا الذى يستمكن مما يشتهى ، ثم يتمتع عنه وهو خال لا لشيء إلا لأن الله يراه .
علام يدل هذا المسلك؟ .

إنه يدل على إيمان بالله عميق ، وعلى أن ذلك الإيمان يقظان لىؤدى واجبه كالديدبان الحارس ، وعلى أنه لما استثيرت النفس نهض إليها ، وفرض وجوده وحده فحسم نوازع الشر .

ولذلك جاء فى حديث السبعة الذين يظلمهم الله ، يوم لا ظل إلا ظله! .
«...ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» (١) .

وهناك من يتعد عن مثل هذه الجريمة حرصاً على سمعته ، وقهراً لشهوته ، وعلى لسانه قول القائل :

ذكرت تعلقة الفتيان يوماً وإسناد الملامسة للمليم

وهذا السلوك - وإن كان شرف نفس - إلا أنه ليس أثر الإيمان الذى يجب أن يملأ أرجاء النفس ، وأن يسيطر على بواعث الفعل والترك فيها .

نعم ، هو شرف لأن الذى يدع رذيلة ما ، حتى لا يقفه الناس موقف تشريب وتقريع ، أفضل ممن يغلبه هواه ، فلا يبالى ما يلقي من ذم .

إلا أن سيرة المؤمن الذى يخاف الله أشرف وأحق بالتنويه . . .

إذ أنه ترك الإثم هنا لسبب أجل هو الخوف من جلال الله .

ثم المؤمن الذى يعرف الخير والشر ، والحسن والقبيح من لسان الشارع لن يفضل فى معرفة العيب الذى يتركه ، والخير الذى يفعله .

ولو أنه تلقى ذلك من أفواه الناس الذين يطلب ثناءهم ويخشى ملامهم لأمكنه فى عصرنا هذا أن يسكر وأن يزننى وهو مطمئن إلى أن مواهبه الأخرى ستجعله عظيماً محبوباً . . .

إن مخافة الله بترك ما حرم هى الأساس الأعظم فى تكوين الشخص الشريف المأمون .

(١) البخارى .

ومن الخطأ حسبان الخوف وحده هو الحاجز عن الشر ، والدافع إلى الخير ، إن الواقع فى حياة المؤمن غير هذا ، والمفهوم من طبيعة الإيمان غير هذا . . .

فقد يترك المرء المعصية حياء من المنعم ، أو رجاء ما عنده ، أو شعورا نفسيا وعقليا بدمامتها ، أو حبا غالبا لله الذى أمر ونهى .

والمؤمنون ليسوا سواء فى هذه البواعث ، بل المؤمن الفذ تختلف أحواله فى استقبال ما يعرض له ، فقد يفعل الشئ أو يتركه بدافع الرغبة حيناً وبدافع الرهبة حيناً ، وبدوافع أخرى حيناً آخر .

والخوف من الله دافع بارز فى حياته من غير شك ، وهو دافع معقول ، فمن ظن الخوف لا يعرض للبشر أصلاً فهو مبطل ، ومن ظن الخوف من أى شئ أنفس معدنا ، وأرقى دلالة من خشية الله فهو كاذب .

ومن ثم كان الخوف من الله ركنا فى الإيمان به ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . . . ﴾ (الأنفال : ٢) .

ويكاد الخوف يكون وحده العامل الحاسم فى كثير من المواقف القلقة ، والعاصم المنجى عن ثوران بعض الغرائز العنيفة وجماحها الشديد .

سيما وقد نبهنا إلى أن الخوف وليد المعرفة ، فكلمنا اتسعت معرفة المرء لله ازداد مهابة له ، وحذرا من مخالفته ، وإكبارا لحقه .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « صنع رسول الله ﷺ أمرا فترخص فيه ، فبلغ ذلك ناسا من أصحابه فكأنهم كرهوه ، وتنزهوا عنه ، فبلغه ذلك فقام خطيبا فقال : ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله واشدهم له خشية » (١) .

وفى خوف الرسول ﷺ من ربه ، وفى تخويف المسلمين عامة من بطش الله وعذابه نقرأ قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ

(١) مسلم .

الْقِيَامَةَ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿ (الزمر: ١٣ - ١٦) .

وقد تضمنت سنة رسول الله ﷺ نماذج إنسانية لأثر هذا الخوف العالى فى تطهير السلوك الإنسانى ، وقيادته - إذا اضطرب - نحو الصراط المستقيم .
إن امرأة ضغطت عليها الحاجة حتى أُلجأتها إلى التفكير فى تسليم نفسها لمن يملك المال ولا يملك الخلق وأولئك فى الحياة كثيرا .
فلما واجهت المكروه ارتعد بدنهما ، وتلوى الشرف المكظوم فى نفسها فلم تملك إلا البكاء ...

عن ابن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله.

فأتته امرأة فأعطاهما ستين دينارا على أن يطأها.

فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت.

فقال: ما يبكيك؟

قالت: لأن هذا عمل ما عملته، وما حملنى عليه إلا الحاجة.

فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله! فأنا أحرى.

أذهبى فلك ما أعطيتك، ووالله ما أعصيه بعدها أبدا.

فمات من ليلته، فأصبح مكتوبا على بابه. إن الله قد غفر للكفل فعجب الناس من ذلك» (١) .

إن المرأة الطهور سر هذا التحول فى نفس رجل قضى أغلب عمره فى الآثام ، ثم سرت فى روحه عدوى الخير والعفاف والتقوى فأقلع عن غيه ، واجتث أصول الشر من قلبه ، وغيره الخوف من الله ، فآلى على نفسه لا يعصيه أبدا .
فما أدركه الأجل وهو على هذه النية الجازمة كانت توبته قد غسلت خطاياہ ، فمات مغفورا له !!

إن خشية الله شىء عظيم .. !!

(١) الترغيب والترهيب .

وإن النذر لتتلاحق في آيات الكتاب العزيز كي تشعل في الضمير هذا الشعور الهادئ فلا يتعثر المرء ولا يضطرب .

وإيقاداً لهذه الشعلة ، وارتقاباً لما يعقبها من آثار سجلت السنة النبوية قصة غريبة لرجل طالت إساءته ، فلما احتضر اختلط في نفسه أمران : خوفه من عقبي ما فعل في ماضيه الطويل ، وجهله الذي حيره في وسيلة للخلاص منه ! .

فماذا يصنع؟ امتزج خوفه وجهله في عاطفة ساذجة ووصاة جمع أولاده على تنفيذها بعد موته . قال عليه الصلاة والسلام : « كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبننيه : إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم اطحنوني ، ثم ذروني في الريح ، فوالله لنن قدر الله على ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد .

فلما مات فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك ففعلت ، فإذا هو قائم .

فقال : ما حملك على ما صنعت؟ قال : خشيتك يا رب ، أو قال : مخافتك ، فغفر له » (١) .

الرجاء

الوجود الذى نحسه ، وما يكمن فى تضاعيفه من لطف وبر ، هو نعمة محض لا علة لها إلا محض الفضل الأعلى . إن المرء ينام وتبقى فى عروقه وأعصابه عشرات القوى التى تضبط حياته لا تهن ولا تسكن .

من الذى استبقاها يقظة دائبة؟ بل من الذى أبدعها ابتداء من صميم العدم؟ إنه الله .

إنه لم يخلقك إثر سؤال منك ، ولم يشرف عليك وأنت جنين ، ثم وأنت رضيع لأنك طلبت منه ذلك ، إنه فعل بك ذلك لأنه - من ذاته - منعم وهاب ، واجد ماجد . ولو كان يدير الأمور وفق الأسئلة والرغبات لاندكت الآفاق وسرت الفوضى فى كل ناحية .

إنه أرحم بالعباد من أنفسهم وأعرف بمصالحهم من منتهى تفكيرهم وعطفه السابق على مقدرات الخلائق هو الذى يسير الحياة ، ويشيع فيها الخير ، ويضمن لها البقاء .

وفى هذا يقول ابن عطاء : " جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل عنايته فيك لا لشيء منك .

وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته؟ .

لم يكن فى أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال ، لم يكن إلا محض الإفضال وعظيم النوال " .

إن الفضل ينبثق من ذى الجلال والإكرام لأن ذلك وصفه - كما ينبثق الشعاع من الشمس - ولله المثل الأعلى - لأن طبيعتها الانتقاد .

إن الملك الجليل الشأن الذى انبسط سلطانه على كل شيء فهو فى السماء إله وفى الأرض إله ، ويعطى ويغدق لأن الكمال نعته سواء عرف البشر ذلك أم أنكروا .

وعطاؤه على قدر عظمتة ، ومن ثم فهو أحق من يرجى ويقصد!!
إن البشر يتهافتون على من يأنسون فيه القوة والغنى التماس جداء وابتغاء نداء ،
ولو عقلوا لعلموا أن ما لديه قطرة معارة ، وأن أحق من يشدون إليه الرحال
ويربطون به الآمال ، هو الكبير المتعال .

إن الأساس فى طبائع البشر طرا ، مهما سمت مناصبهم وبدت قدراتهم ، أنهم
يأخذون لا يعطون .

أليسوا فقراء إلى الله ، عالة على فضله؟ فالأتجاه بالرجاء إليهم طيش .

أما الرجاء فى الله فعمل وافق موضعه وأصاب هدفه .

ثم إن جمهرة البشر حين يسألون تتحرك فيهم صفاتهم الفطرية ، فهم بين جاهل
بحال السائل ، أو عالم بها عاجز عن علاجها ، أو قادر يمنعه شح نفسه عن
الإجابة . وتلك كلها آفات منفية عندما يتجه الرجاء إلى الله جل جلاله .

ولذلك ترى أولى الأبواب يقصدونه بالمطالب الجسام وهم راجون ألا ينقلبوا عن
ساحته إلا راضين . . .

قال ابن الجوزى :

«خُلِقْتُ لى همة عالية تطلب الغايات .

بلغت السن وما بلغت ما أملت ، فأخذت أسأل تطويل العمر ، تقوية البدن ،
وبلوغ الآمال .

فأنكرت على العادات وقالت : ما جرت عادة بما تطلب .

فقلت : إنما أطلب من قادر على تجاوز العادات .

وقد قيل لرجل : لنا حويجة فقال : اطلبوا لها رجلا .

وقيل لآخر جثثاك فى حاجة لا نرزؤك . فقال : هلا طلبتم لها سفاسف الناس؟

فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا فلم لا نطمع فى فضل كريم
قادر؟ .

ترى ما هى العظائم التى نقف بباب الله راجين أن نشوب بها؟ ما هى الأعطية

الجزلة التى تمنى على الله قضاءها ، ونراه جل شأنه أهلا للإفضال بها وبأضعافها .

إن كل امرئ يحب ألا يدع شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا امتلكه .
ولو أن الله منح العباد ما يشتهون من ذلك كله ما تعب ، ولا نقصت خزائنه .
غاية ما يجب أن نتصارع به ، أنه لا يجوز أن نطلب إثما ولا جهلا ولنضرب لذلك مثلا .

إن الحياة الدنيا دار اختبار ، وهى يمر لا مستقر ، والآخرة عند الله أزكى منها وأبقى ، فإذا وفّدَ بشرٌ على الله بآماله التى يطلب تحقيقها ، وكانت هذه الآمال مضادة لهذه الحقائق كلها ، بأن كانت الدنيا فى وعيه أرجح من الآخرة وكانت رغبته لا تعدو إشباع نهمته منها وحسب! أترى هذا الجاهل يعود إلا بخيبة الرجاء؟ .

إن المشكلة التى يجب أن تنحل فى أذهان الناس أولا هى تصور حقائق الحياتين . !!

وشىء آخر : ماذا يجاب إليه طفل يحب أن يبقى طول عمره رضيعا؟ أيققق له رجاؤه؟ إن أغلب الناس ينزلون فى أدعيتهم عند نداء طبائهم ، ولو أجيئوا لعاشوا أطفالا لا يحملون من أعباء التكليف شيئا .

إن الله أهل لأن تنزل عليه بكل ما يجيش فى نفسك من آمال .
وإذا كان قد أعطى تفضلا من غير سؤال ، فهل يرد سائلا جاءه راجيا؟ بيد أننا بحاجة إلى العقل والأناة والتبصر .

أعجبني ما رواه ربيعة بن كعب قال : كنت أخدم النبى ﷺ نهارى ، فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله ﷺ فبت عنده فلا أزال أسمعته يقول : « سبحان الله سبحان ربى » ، حتى أمل أو تغلبنى عيناي فأنام .

فقال يوما : « ياربعة سلنى فأعطيك » .

فقلت : أنظرنى حتى أنظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله ، أسألك أن تدعو الله أن ينجينى من النار ويدخلنى الجنة .

فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : « من أمرك بهذا؟ » .

قلت : ما أمرنى به أحد ولكنى علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذى أنت منه فأحببت أن تدعو الله لى .

قالى : «إنى فاعل فأعنى على نفسك بكثرة السجود» (١) .

(وفى بيان ما يرجو العبد ، وتتعلق به همته يقول ابن الجوزى :

دعوت يوما فقلت : اللهم بلغنى آمالى من العلم والعمل ، وأطل عمري لأبلغ ما أحب من ذلك : فعارضنى وسواس من إبليس ، فقال ثم ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذى ينفع طول الحياة؟ .

فقلت له : يا أبله . لو فهمت ما تحت سؤالى علمت أنه ليس بعبث .

أليس فى كل يوم يزيد علمى ومعرفتى فتكثر ثمار غرسى . فأشكر يوم حصادى؟ . أفيسرنى أنى مت منذ عشرين سنة؟ لا والله ، لأنى ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتى به اليوم .

وكان ذلك ثمرة طول الحياة التى فيها اجتنبت أدلة الوحداية ، وارتقيت من حضيض التقليد إلى بقاء البصيرة ، واطلعت على علوم زاد بها قدرى ، وتجوهرت بها نفسى .

ثم زاد غرسى لآخرتى ، وقويت تجاربى فى إنقاذ المباحين من المتعلمين ، وقد قال الله لسيد المرسلين : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٤) .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا» .

وفى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله عز وجل الإنابة» .

فيا ليتنى قدرت على عمر نوح ، فإن العلم كثير ، وكلما حصل منه حاصل رفع ونفع) .

عندما قرأت كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزى أحسست أن الرجل عبر بكلمات بصيرة بليغة عن خوالج نفسية تحركت فى باطنى ، وسجلت أطرافا منها قبل أن أطلع على كتابه هذا .

(١) مسلم .

وربطنى بالرجل إلى جانب ذلك أنه مشغول بتعليم الإسلام ونصح الجماهير ،
وهى الوظيفة التى شرفنى القدر بها . . .

والناس يظنون فى رجال الدين - كما يسمونهم - جمود الحس ، وسواد المزاج ،
وفقدان القدرة على تذوق الحياة .

وهذه أوصاف قد توجد فى نفر من نكبت به الأديان قديما وحديثا ، وهى
موجودة يقينا فى طوائف أخرى ، ولكن سوء الحظ جعل النظرة العجلى تتناول
خدام الإيمان وحدهم بهذا الاتهام . . !!

وكثيرا ما أبتسم فى حرج ونفرة وأنا أرى كثيرا من المعلولين فى خلقهم
الغموصين فى مواهبهم يستطيعون - بحكم مراكزهم القوية فى المجتمع - أن ينالوا
منا ، وأن يضرّبوا حولنا أسوارا من حديد لنحيا كما يريدون لا كما تتطلب ملكاتنا
وقدراتنا وخبراتنا .

وكم يكظم الإنسان الآلام فى نفسه ، وهو مفعم بالأشواق إلى الجمال والعزة
والاستغناء ، ثم يمد بصره فلا يرى حوله إلا الدمامة والهوان والعيلة .

وما أغرب الناس ، إنهم يشتهون الدنيا ، وينحنون لملاكلها فى ضراعة ووضاعة ،
وفى الوقت نفسه يحرمونها على علماء الدين ؛ ثم يحتقرونهم لفقرهم ، ولكل ما
يستتبعه الفقر من مسكنة وقلق .

وكم يشعر الإنسان أنه بين نارين ، إن سكنت عن حقه فى الحياة ضاع
واستمكن الرعاع من زمامه ، وإن طلبه - فى بيئة ضئيلة به - قيل : طلب دنيا
يزاحم عليها . .

إن أمثالنا من الدعاة إلى الله ينقلون أقدامهم بوجل فى سبيل مزحومة بالأقذاء
والإنكار ، لا يعين على السلامة فيها إلا الله ، والذى لا نسأى دعاء ورجاء .

وما أنكر من نفسى أنى أحب الدنيا ، ولبئست هى إن كانت مهادنة لظالم
أو إغضاء عن منكر .

أما أن تكون دعما للحق ، وغنى عن الأدنياء فنعما هى . . .

إن وجه الرذيلة شائه فى بصرنا ، وطعمها مر فى مذاقنا ، ونحمد الله إذ
أورثنا كرهها .

أما طببات الحياة التى تلهج الألسنة بالثناء ، وتبعث الجوارح على الشكر فنعمما هى ، وما نستحيى من استحالاتها والإكثار منها ...

وربما كان لبعض الناس جلالة على خشونة العيش ، واصطبار على كآبة المنظر فى الأهل والمال ، لكنى والله أضيق بهذا وأستعيز بالله منه .

ولست أطلب من الله سعة تشغل عنه ، بل أطلب سعة تدفع إليه ، وكثيرا يحصن من زراية السفهاء ، ولعب الكبراء ...

فإن كان ذلك بابا إلى نقص العلم ، أو هوان المنزلة يوم القيامة فنرجو أن يجعل الله بيننا وبينه حجابا غليظا وأمدا بعيدا ...

جالت هذه الخطرة فى نفسى وأنا أقرأ لابن الجوزى هذه النفثة التى سطرها فى كتابه " صيد الخاطر " يصف بها حياته ورجاءه .

وقلت : ألا ما أقرب الشبه بين عيش وعيش ، وأمل وأمل .
قال : - غفر الله لنا وله - :

" ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته ، فإن من علت همته يختار المعالى .
وربما لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى فى عذاب .

وإنى أعطيت من علو الهمة طرفا فأنا به فى عذاب ، ولا أقول : ليته لم يكن ، فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل ، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل .
ولقد رأيت أقواما يصفون علو همهم . فتأملتها فإذا هى فى فن واحد ، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم ، قال الرضى :

ولكل جسم فى النحول بليّة وبلاء جسمى من تفاوت همتى

فنظرت فإذا هذا غاية أمله الإمارة . وكان أبو مسلم الخرساني فى حال شببيته لا يكاد ينام ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ذهن صاف ، وهم بعيد ، ونفس تتوق إلى معالى الأمور مع عيش كعيش الهمج الرعاع .

قيل : فما الذى يبرد غليلك . قال : الظفر بالملك .

قيل : فاطلبه ، قال : لا يطلب إلا بالأهوال .

قيل : فاركب الأهوال ، قال ! : العقل مانع .

قيل : فما تصنع ؟ قال : سأجعل من عقلى جهلا ، وأحاول به خطرا لا ينال إلا بالجهل ، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به ، فإن الخمول أخو العدم .

فنظرت إلى حال هذا المسكين ، فإذا هو قد ضيع أهم المهمات ، وهو جانب
الآخرة ، وانتصب في طلب الولايات ، فكم فتك وقتل؟ حتى نال بعض مراده من
لذات الدنيا .

ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين .
ثم اغتيل ، ونسى تدبر العقل ، فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال .
وكان المتنبي يقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي . ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربه فيختار أن يكسى دروعاً تهده

فتأملت هذا الآخر ، فإذا نهيمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب .
ونظرت إلى علو همتي فرأيته عجباً . وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أنى لا
أصل إليه ، لأنى أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها .

وأريد استقصاء كل فن ، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه .
فإن عرض لى ذو همة فى فن بلغ منتهاه ورأيته ناقصاً فى غيره ، لم أعد همته
تامة . مثل المحدث الذى فاته الفقه ، والفقيه الذى فاته علم الحديث ، فلا أرى
الرضى بنقصان شىء من العلوم إلا حادثاً عن نقص الهمة .

ثم إنى أروم نهاية العمل بالعلم ، فأتوق إلى ورع بشر ، وزهادة معروف ، وهذا مع
مطالعة التصانيف ، وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد .

ثم إنى أروم الغنى عن الخلق ، وأستشرف الإفضال عليهم ، والاشتغال بالعلم
من الكسب وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم إنى أتوق إلى طلب الأولاد ، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف ، ليبقى الخلفان
نائبين عنى بعد التلف . وفى طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم أرنى أروم الاستمتاع بالمستحسنات ، وفى ذلك امتناع من جهة قلة المال ، ثم
لو حصل فرق جمع الهمة . وكذلك أطلب لبدنى ما يصلحه من المطاعم والمشارب ،
فإنه متعود للترفة واللفظ ، وفى قلة المال مانع ، كل ذلك جمع بين أضداد .

فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا؟ .

وأنا لا أحب أن يخلدش حصول شيء من الدنيا وجه ديني بسبب .
 ولا أن يؤثر في علمي ، لا في عملي .
 فواقلقى من طلب قيام الليل ، وتحقيق الورع مع إعادة العلم ، وشغل القلب
 بالتصانيف . وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم .
 وما أسفى على ما يفوتنى من المناجاة فى الخلوة مع ملاقة الناس وتعليمهم .
 ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة .
 غير أنى قد استسلمت لتعذيبى ، ولعل تهذيبى فى تعذيبى ، لأن علو الهمة
 تطلب المعالى المقربة إلى الحق عز وجل .
 وربما كانت الحيرة فى الطلب دليلا إلى المقصود . وهأنذا أحفظ أنفاسى من أن
 يضيع منها نفس فى غير فائدة .
 وإن بلغ همى مراده . . . وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله " .

والرجاء فى الله تعالى ، وحسن الظن به ، إنما يقبلان إذا اقترنا بالعمل الواجب ،
 وصحبهما الإسراع فى حق الله تعالى ، والسهر على مرضاته .
 أما مع البطالة والاسترخاء فلا مكان لرجاء ولا موضع لحسن الظن .
 وتدبر قوله تعالى يصف من ترشحهم أعمالهم لرضاه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .
 (البقرة : ٢١٨)

إيمان وهجرة وجهاد ، تلك هى التى يرجو أصحابها فضل الله تعالى .
 أما الريبة والقعود والراحة فلا تبلغ أملا ، ولا تنتج إلا شرا .
 وتدبر قوله تعالى يحصى أنواعا أخرى من البر ، هى التى تؤهل لحسن القبول :
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .
 (فاطر : ٢٩ ، ٣٠)

تلاوة القرآن - يعنى إحياء تعاليمه . وإعزاز شرائعه - والنفقة التى تسد ثغرات

الاجتمع ما أعلن منها وما خفى ، والإقبال على الصلوات الجامعة إقبالا يعلى ذكر الله تعالى فى الحياة ، ويجعل الهتاف باسمه وحده شارة الأمة ، تلك هى أسباب الرجاء الحق ، وتأميل النصر ، والتمكين ، والنعماء .

وللناس - بطبيعتهم البشرية - أخطاء تبدر منهم - ويسيثون بها إلى أنفسهم وغيرهم ، وربما جرت غضب الله عليهم ، إلا أنهم إذا أحسوا سوءها ، وضرعوا إلى الله تعالى أن يفك عنهم إصرهما ، كان للرجاء فى غفران الله تعالى موضع .

إن هذا الرجاء الحار لا يجوز أن يفارق المؤمن فى أى لحظة من حياته ، سواء كان قوى الساعد يضرب فى الأرض ببأس ، أو وهو يولى ظهره للحياة ، ويضع قدمه على عتبة الآخرة قادما إلى الله تعالى .

عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت فقال :

كيف تجددك؟ قال : أرجو الله يا رسول الله وإنى أخاف ذنوبى .

فقال : رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف » (١) .

وعن حيان أبى النصر قال : خرجت عائدا ليزيد بن الأسود ، فلقيت وائلة بن الأسقع وهو يريد عيادته ، فدخلنا عليه ، فلما رأى وائلة بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل وائلة حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفى وائلة فجعلها على وجهه .

فقال له وائلة : كيف ظنك بالله؟ قال : ظنى بالله - والله حسن . قال : فأبشر ، فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله جل وعلا : أنا عند ظن عبدي بى ، إن ظن بى خيرا فله ، وإن ظن بى شرا فله » (٢)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « أمر الله عز وجل بعبد إلى النار ، فلما وقف على شفتها التفت ! فقال : أما والله يارب إن كان ظنى بك حسنا . فقال الله عز وجل : ردوه ، أنا عند حسن ظن عبدي بى » (٣) .

وهذا الحديث ضعيف السند ، ومعناه يقبل فى حدود الدائرة التى رسمناها من صحيح الكتاب والسنة ، وأقصى ما يشير إليه التنويه بقيمة حسن الظن إن الشخص الذى يحسن بك الظن يعرفك معرفة لا بأس بها ، وإن كانت المعرفة هنا أوضح فى ناحية الرحمة والتجاوز .

(٣) البيهقى

(٢) أحمد .

(١) الترمذى .

وهو قد يخطئ فى حقه لا اختلال المقاييس التى يزن بها الأمور ، لكنه - مع هذا الخطأ - لا يوصف بأنه لك عدو ، إنه صديق ، أو تابع ، لم يحسن التصرف فقط .

وربما انضم إلى هذه الخلطة ما يعرض صاحبها لمؤاخذات قاسية .

وحديث الرجل الذى التفت إلى الله - وهو على شفا الهاوية - وفى فؤاده رجاء لم يغرب شعاعه ، جعله إلى الرمق الأخير يتلفت آملا الغوث ، غير مصدق أن الله يسلمه إلى هذا المصير . هذا الحديث - إن صح - لا يهون من قيمة العمل .

إنه يصور حالة امرئ مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وكان يجوز أن يقذف فى النار لتحرق بقايا السوء فى نفسه ، كما سيقع ذلك لكثير من المؤمنين الذين بينت السنن الصحاح عقبى تخليطهم ، وتفريطهم ، غير أن الله جلت رحمته عفا عنه .

وكأن كفة الخير فى عمله كان ينقصها القليل لتميل جهة اليمين ، فكان حسن ظنه بالله - وحسن الظن بإيمان - المرجح الذى نجا به .

أما قلة الاكتراث بالواجب ، وسرعة التهاوى على المحرم فلا يمكن أن يكونا فى نفس تحسن بالله تعالى الظن ، بل هما فى نفس صدق عليها إبليس ظنه .

ومن التلاعب بالألفاظ أن ترى أما جاهلة بالله تعالى ، تمرق فى حدوده ، وتهدر أحكامه ، وتؤمل مع ذلك فى نعيمه ورضوانه بدعوى أنها تحسن الظن بالله تعالى .

ومن أذعياء التدين من يشغب على قواعد الدين ، ومن يجرى العامة والخاصة على الإفلات من ريقته باسم الأمل فى الرحمة ، والتعويل على حسن الظن .

وذلك كله ضرب من الفوضى الفكرية والخلقية لا يجوز السكوت عليه ، وقد حارب الأئمة من قديم ، وشددوا النكير على أصحابه ، قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي : قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التماذى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجوا النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

قال :

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، . والإيمان كالبذر فيه . والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها .

والقلب المستهتر بالدنيا ، المستغرق بها كالأرض السبخة التي ينمو فيها البذر . ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلمما ينفع إيمان مع خيث القلب وسوء أخلاقه .

وكما لا ينمو بذر في أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمى انتظاره رجاء .

وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تتمتع أيضا ، سمى انتظاره تمنيا لا رجاء .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلية تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع المفسدات .

فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت .

وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور .

قال عليه السلام : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » ^(١) .

(١) الترمذى .

وقال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ (مریم : ۵۹) .

وقال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (الأعراف : ۱۶۹) .

وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (۳۵) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿

(الكهف : ۳۵ ، ۳۶)

فإذن العبد المجتهد فى الطاعات ، المتجنب للمعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا دخول الجنة أ . هـ .

التوكل

التوكل شعور بهيمنة الله على الحياة ، وبأن حركاتها وسكناتها محكومة بحوله وقوته لا يمكن أن تند منه أو تبعد عنه .

واستقرار هذا الشعور فى القلب يجعل صلة الإنسان بربه عميقة ، وركونه إليه باديا . ولكى ندرك الأساس العقلى لهذا الشعور يجب أن نلقى نظرة لا افتعال فيها على ما يدور حولنا من شئون ، وعلى مسلكنا المعتاد بإزائه .

إن أحدنا يخرج من بيته إلى عمله فى الصباح ، وهو مالك لأمره ، يعتقد أنه ليس عليه أكثر من أن يحرك قدميه إلى حيث يصل ، وتلك وسائل مقدورة له .

ولعل الماديين من الناس يقولون . وما دامت تلك الوسائل فى حوزته فلا معنى للتفكير فيما وراءها .

ونريد نحن أن نتأمل فى هذا القول ، ومدى صدقه .

هل صحيح أن الوسائل الموصلة فى أيدينا؟ .

لننظر إلى الكيان البشرى نفسه . إن الساعة التى فى معصمك ، والمنبه الذى فى بيتك لا يدوران إلا بعد أن تملأهما يوميا ، فإن غفلت عن ذلك توقفت العقارب وسكت الدق . أفكذلك قلبك بين حناياك؟

إن دقائقه لا تهدأ أبدا ، إنه يخفق أردت أو لم ترد ، إنه يواصل عمله ليلا ونهارا ، وأنت نائم وأنت يقظان ، فهل لك عليه من سلطان؟ فإذا خرجت من بيتك ، وشاء مالك التصرف فيه أن يقفه فمن يمنعه؟ .

ولنفرض أنك مالك أجهزتك الظاهرة والباطنة ، وأن هيمنتك عليها شاملة كاملة ، فماذا تملك من ظروف الحياة الخارجية؟ إن الحركة الواسعة التى تدور فى الشارع بعيدة عن نطاق حكمك ، ولو تنبه حسك أشد التنبه ما أمكنك أن تسيطر على كل شيء ، ويمكن على حين غرة أن تصاب بأذى شديد من قشرة برتقالة تحت قدمك ، أو من سيارة مارقة لم يحسن قائدتها الابتعاد عنك .

إن هناك أشياء كثيرة لا يتم مراد الإنسان إلا بتوفيرها جميعا ، وهذا التجميع والتنسيق لا تحكمهما مشيئة بشر ، ونحن المؤمنين لا نرد ذلك إلى حظوظ عمياء بل إلى مشيئة الخالق الكبير ، المهيمن على كل شيء ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود : ١٢٣) .

من أجل ذلك كثرت الأوامر في الكتاب والسنة بالتوكل على الله جل وعلا ، لأن التوكل دلالة علم بالله وصفاته وما ينبغى له ...

وفيه بصيرة من العبد بالحدود التي تعمل في نطاقها قدرته وإرادته ، وبالمدى الواسع الذي تتصرف فيه الإرادة العليا والقدرة العليا .

والتوكل بهذه اليقظة الفكرية والنفسية أهل لأن يظفر برعاية الله وتوفيقه ومحبته ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق : ٣) .

أى إن الله يكفى من لا ذ به واعتمد عليه ، وهو - سبحانه - يستحيل أن يفوته ما يريد ، فهو بالغ أمره لا محالة ، بيد أنه أدار الكون على قوانين مقدورة ، وسنن معلومة ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر : ٢١) .

ومن الجهل بالله وصفاته - والجهل طريق الكفر إن لم يكنه - أن يتوقع أحد الخذلان والضياع مع ارتباطه بالله!! وقد جاء في نظم القرآن الكريم تساؤل غريب يكشف وجه الحق في هذه القضية ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ... وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ (الزمر : ٣٦ - ٣٨)

والتوكل كلمة مظلومة ، إنها تعنى ركون الإنسان إلى الله فيما لا طاقة له به لأنه لا يستطيع عمله . أما ما يدخل في حدود طاقته ويملك البت في بدايته ونهايته فلا مكان للتوكل فيه .

إذا دخل الليل وهو فى حجرته نهض إلى المصباح فأوقده ، هذا عمله الذى يقوم به ولا ينتظر من السماء أن تنوب عنه فيه .

إذا سار في طريق التزام الجانب الأيمن ، وتجنب مظان الخطر ؛ وأجاب داعي الحذر ، أما إثثار الفوضى والنزق وانتظار السلامة باسم التوكل فجهل ...
إذا تقدم لمسابقة استكمل أهبة الفوز بما تفرض من كفاح ذهني وعلمي وما تتطلبه من نشاط يقرب من الغاية ...
إذا سكن بيتا غلق أبوابه ليلا ، وتعهد ثغراته حتى لا يجد اللصوص لهم منفذا وهكذا .

من أجل ذلك أجاب رسول الله ﷺ الأعرابي الذي سأله : أتركها وأتوكل أم أعقلها وأتوكل - يعنى ناقته ؟ فقال : أعقلها وتوكل .
ونبه الله المجاهدين - إذا ضمتهم جنبات الميدان - أن يكون انتباههم حاداً وتيقظهم بالغاً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ .
(النساء : ٧١)

وقبل أن يأمر الله نبيه بالتوكل عليه فى قوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾
(هود : ١٢٣)
قبل ذلك مباشرة قال : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾
(١٢١) وَأَنْتُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿ (هود : ١٢١ ، ١٢٢) .

فالأمر بالتوكل جاء بعد إعلان عن عمل موصول وصبر طويل .
ورأى أحد الأئمة فقيرا ينطلق إلى الحج دون زاد ، فسأله أين زادك ؟ .
فقال : أنا متوكل على الله .
فقال له : أمسافر أنت وحدك؟ قال : بل مع القافلة .
فقال له : أنت متوكل على القافلة!! .
وصدق ، فهذا متأكل لا متوكل ، وهذا الصنف جاهل بالإسلام ، ومعرفته بالله غامضة يشوبها حمق كثير .
والتوكل إيمان بالغيب بعد استفاد كل الوسائل المقررة فى عالم الشهادة ، إيمان بالله بعد أداء كل ما يرتبط بالنفس من واجبات .
والتوكل يجىء صدقا وسكينة فى موضعه الحق ، ولنضرب لذلك الأمثال .

طلب الرزق غريزة لدى الأحياء كلهم ما إن تبدو تباشير الصباح حتى يستعد الفلاحون والتجار والصناع وأصحاب الحِرَف للدخول فى كفاح طويل أو قصير كى يحرز كل امرئ قوته وقوت أسرته .

وهذا الكفاح محك قاس للأخلاق والمسالك ، فإن اللفتة على تأمين المعاش قد تلجئ أصحابها إلى الختل والتلون أو الكذب والحيف . وربما وجدت الضعاف يتملقون الأقوياء ، والصغار يدوبون فى الكبراء .

والإسلام يرفض أن يكون الكدح وراء الرزق مزلفة لهذه الآثام كلها ، ومن ثم فهو يطلب بصرامة أن يكون الارتزاق من أبواب الحلال المحض ، وألا يلجأ مسلم أبداً إلى غش أو ذل أو ضيم ليجتلب به ما يشاء :

الوسائل التى حددها الشارع هى وحدها الأسباب الشريفة التى يقوم بها ثم يقف عندها مرتقبا فى ثقة ما تتمخض عنه من نتائج .

والتزام التقوى فى معالجة هذه الشئون وأمثالها هو منطق الإسلام ، وهو منطق منتج لا عقيم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٤) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق : ٢ ، ٣) .

والتقوى هنا رعاية الشرف فى التكسب ، والاستقامة فى الطلب ، فإن إلحاح الرغبة فى طلب الكفاف أو فى طلب الثراء قد يدفع إلى اللؤم والعوج .

وحجزا للنفوس عن هذه المهاوى يقول رسول الله ﷺ : « لا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله ، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته » (١) .

وغرسا لفضيلة التوكل عند طلب الرزق روى الغزالي فى الإحياء هذه الآثار .

قرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٨) ، فقال : ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته ، وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتبه الله لك .

وقال يحيى بن معاذ : فى وجود العبد ، الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

قال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون؟ فأوماً إلى الشام .

وقال هرم : كيف المعيشة؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

وهذه الآثار لا تعنى إلا رفع كبوات البؤس أو زجر نزوات الطمع ، فإن البشر فى هذه الميادين يفتقرون إلى علاج شديد .

لقد رأينا ذل الفقراء وشره الأغنياء وراء المال يفعل الدواهى فلا جرم أن ترد الآثار تلطم هذا التطرف كيما ترده إلى سواء السبيل .

ولكن هذه التعابير التى يقصد بها إشاعة الثقة فى أرجاء النفس الإنسانية حتى لا تضرع وتجزع انقلبت دلالاتها فى بعض النفوس ففهمت منها ما لا يجوز أن يفهم ، فهمت منها أن السعى باطل ، وأن السكون دين ، وفى ذلك يقول رجل مهزوم أطاش العجز لبه :

والسعى للرزق - والأرزاق قد قسمت بغى إلا إن بغى المرء يصـرعه
ويقول آخر :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

وهناك موطن آخر للتوكل يستحب فيه ذكر الله ، والاطمئنان إليه ، ويكون الإيمان بالغيب فيه مصدر أنس وقوة لأصحابه .

ذاك موطن الكفاح الذى يحمل عبئه أصحاب الرسالات ، ويتعرضون فيه لخاوف مزعجة ، ولا يثبتون فيه على الروح والغبن إلا لأملهم فى الله واستنادهم

إليه . وإلا بالتوكل الذى ينير أمامهم ظلمات الحاضر ، ويجرئهم على مواجهة الجبروت بعزم .

والقوى الشريرة التى يواجهها حملة الدعوات ليست عدوا سهلا ، وإنقاذ الحقائق الكبيرة والحقوق الضائعة من بطش هذه القوى عمل يقترب بالمعجزات . فإن الاستكانة المطلقة التى تغمر الأفئدة وتطوئها على الخوف من هؤلاء الأقوياء الأشرار تجعل انتصاب المصلحين أمامهم ، والدخول فى معركة مريرة لاستئصالهم - تجعل ذلك حلا فادح الثقل مرهوب العقبي .

وإننا - لطول ما بلونا - نقدر موقف موسى وأخيه عندما أمرا بالذهاب إلى فرعون ونصحه ، فقالا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ ۖ ﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿ (طه : ٤٥ ، ٤٦) .

إن الشعور بصحبة الله هو المؤنس فى هذه الوحشة ، وهو المشجع فى هذه الرهبة ، وذلك معنى التوكل فى تلك المواقف .

وهو ما نزل به الوحي على قلب الرسول عليه الصلاة والسلام أول ما طرقت الرسالة فقال الله له : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٩) وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿ (الزمل : ٨ - ١٠) .

ونحن نجد التوكل على الله هو المعنى الشريف الجليل الذى يلوذ به المكافحون ، ويرقبون معه مستقبل رسالتهم ، ومطلع الفجر وسط ما يخيم عليهم من إظلام .

إنه ليس فقط القوة المعنوية التى يتحاملون بها على جراحاتهم بل هو كذلك اللفظ المنعوم الذى يجرى على ألسنتهم ويسمعه منهم خصومهم وهم يناقشونهم :

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿ (إبراهيم : ١١ ، ١٢) .

عندما يطلب من أولئك المؤمنين الصابرين أن يشتروا حياتهم وراحتهم واستقرارهم بنبذ الإيمان ، والعودة إلى الضلال القديم يأبون إلا الصمود على الحق ،

وتحمل الأذى فى سبيله فيقولون : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

(الأعراف : ٨٩)

وأساس هذا الثبات والرجاء أن مرد الأمور على تطاول الزمن إلى الله ، وأنه إذا وهب النصر فلن يعترضه أحد ، وأنه ناصر جنده لا محالة ، وأن الباطل يأخذ جولته ثم يتلاشى ، وأن ليس أمام أهل الإيمان إلا التعويل على الله والتأميل فيه : ﴿ إِنْ يَنْصَرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦٠)

والتوكل على غير الله قصير العمر ، أو عديم الجدوى ، أما التعلق بالله فهو ارتباط بالمصدر الدائم للخير ، ولذلك قال : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ (الفرقان : ٥٨) ! ...

الْحُبِّ

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .
(المائدة : ٥٤)

هذه الآية عرضت لمحبة الله جل وعز ، ولبعض آثارها العملية ، فى فترة من تاريخ الإسلام كان يحتاج فيها إلى أخلاق معينة .
والقوم الذين أحبهم الله وأحبه ، ذكروا فى سياق الآية على أنهم بدل من قوم آخرين نزلوا عن هذه المرتبة ، لم ترشحهم خلالهم ومسالكهم لمحبة الله ، بل ما زالوا يتدلون فى مهاوى السوء حتى عدوا مرتدين عن الإسلام .
والارتداد - الذى توعد الله أهله بالطرد - هو فى نظرى نتيجة سيرة طويلة يصحبها التفريط والالتواء ، ولست أظنه جاء دفعة واحدة .
إنه يبدأ استثقالا للواجبات واستحلاء للآثام ، ثم عكوبا على هذه وتمردا على تلك ، ثم ميلا لأهل السوء وانحرافا عن أهل الخير .
وعندما يكون هوى الرجل مع المبطلين ، وعندما يكون انتصاره لهم ، فهو مرتد يقينا عن الإسلام !!

وما بقاء رجل على دين ينفر من تعاليمه ويخون أمته؟ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . (المائدة : ٤١)
وإذ يدبر هؤلاء عن الله وحقوقه ، يجىء آخرون فى قلوبهم حياة ومودة ، يحبون ربهم ويلقون أمره بالإعظام والخفاوة .

وولاؤهم لله يدينهم من كل مؤمن به ، ويكرههم فى كل فاسق عن أمره ، ويطلقهم فى العالم سلما لأوليائه حربا على أعدائه ، تنهض بهم رسالات الخير ، وتنهزم أمامهم ألوان الشرور .

وإذا صحت محبة الله فى قلب امرئ فقد تبوأ قمة الكمال ، وتهيأ لفضل من الله جزيل!

نعم ، إن نشوء هذه العاطفة ونماءها يسبقها اصطفاء خاص ، والشعور بحب الله ليس متاحاً لكل إنسان إنه سمو يتخير الله له من يشاء ، ولذلك ختمت الآية السابقة بهذا التذييل :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

إنها منة تسيل من عين الجود قبل أن تكون كسبا تتجه إليه الإرادة!

ومن حقا أن تسأل : كيف ذلك؟ أليس هذا الكلام مما يقعد الهمم ويبدد اليأس؟
ونجيب : كلا ، والأمر يحتاج إلى زيادة إيضاح .

إن المواهب الإنسانية الرفيعة لا تنشأ أصلا من كسب الإنسان ، بل لابد أن يسبقها استعداد فطرى يولد المرء به ، ولا يد له فيه .

وجمهور العباقرة والممتازين ترجع عظمتهم ابتداء إلى أصالة فى معادنهم الفكرية والنفسية لا توجد فى غيرهم ، ثم يتعهدون هذه الطبايع الفذة بما يبلغ بها الغاية . ويمكن أن ينضاف إلى الغرائز الأولى تفاوت عناصر البيئة ، فرب بيئة أحمدت ما فى النفوس من وقدرات ملتزمة . وأهالت عليها التراب ، ورب بيئة نفخت فى هذه النفوس ما يهيج ضرامها ويرفع شعلتها .

وما ينغرس فى الجبلات من خلال ، وما تضطرب به المجتمعات من أحداث شأن يعود إلى الأقدار العليا لا إلى إرادتنا المحدودة .

إن الإيمان نفسه يمكن عده فضلا - من هذه الزاوية - فقد كان من الجائر أن نولد ، أنا وأنت ، أرواما أو أعاجم لا ندرى ما الكتاب ولا الإيمان .

فإذا متنا على هذا الحال ، وعاملنا الله بقانون العدل لم يعذبنا وحسب .

أما التأهيل للنعيم المقيم فلا بد له من يقين وصلاح وجهاد ، وذلك كله تلده بيئة دون أخرى - من أجل ذلك وصف الله التوفيق للإيمان بأنه فضل فقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد : ٢١) .

إن صدقة الغنى عمل مشكور يدخر له يوم القيامة ، بيد أن الفضل الأول لمن أغناه فأقדרه على النفقة فى سبيله .

فكسب العبد بيده أو قصده بقلبه لا ينسيان منة الوهاب الكبير ولذلك ننسب للفضل فى كثير من الأعمال التى نقوم بها عن اختيار محض .

وعاطفة الحب الإلهى إذا انقذت فى فؤاد مؤمن فإن الله هو الذى أولى هذا الشرف . وأفاء تلك النعمة ، وليس أحد يملك أن يفرض على الله صداقته .

حقا إنه - تبارك اسمه - لا يضيع زلفى متودد إليه ؛ ولكنه يمنح وده من شاء صدقة منه على من اصطفى من عباده .

ويدهى أن الله يعطى من تعرض لعطائه ؛ ويضع الخير فى الأيدى الممدودة إليه .

أما من أدبر وتولى ؛ فلا شئ له إلا الطرد والهوان .

ومحبة الله تنغرس فى قلوب العارفين به .

والمعرفة كما تكون عن جهد الإنسان فى الفكر ، والذكر ، والتأمل ، والتنزيه تكون فيما يكشفه الحق عن عظمة الذات وجمالها لبصائر المتعلقين به وعلى قدر هذا الانكشاف يكون الإعظام والحب والتفانى .

وجمهور البشر لهم أشياء يحبونها ويتعلقون بها ، وتضع على سيرتهم طابعها وتكمن وراء كثير من أقوالهم وأفعالهم .

وانعطاف الإنسان نحو شئ معين بدافع الغريزة أو العادة لا شئ فيه ما دام فى إطار الحدود المشروعة .

ولكن لا يجوز أن يمتلك هذا الميل زمام الإنسان ، ويتولى تصريفه ، وينحى غيره من البواعث الأخرى .

أو بتعبير أوضح ، من أحب الله لم يؤثر عليه شيئا .

وعندما تتنافس المشاعر المختلفة فى الاستيلاء على زمام المرء ، وتحديد وجهته ، فيجب أن تهزم كل عاطفة أخرى ، وأن يرجع جانب الله رجحانا حاسما .

ونحن فى الحياة العادية نشهد ناسا كثيرين يتعلقون بمبادئ ، وأشخاص وأشياء

مختلفة ، ويؤثر هذا التعلق فى طريقة إنفاقهم لأوقاتهم ، وبنائهم لحياتهم ، وإصدارهم للأحكام الخاصة والعامة .

وعاطفة المرء نحو ربه تتحدد قيمتها فى هذا المعترك النفسى البعيد المدى .
والمفروض أن حب المسلم لربه أربى من أى عاطفة أخرى عند أى إنسان آخر ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

ويظهر ذلك جليا عندما يصطدم فى نفس المرء شعوران متناقضان ، فقد تميش فى قلبه رغبة القعود فى بيته مع ولده وأهله ، وقد يهتف به نداء الواجب أن يدع ذلك كله ، وينطلق إلى ميدان الجهاد مضحيا بنفسه ورغباته .

ومصير الإيمان مرتبط بنتيجة هذا الصراع العاطفى ، فإن غلبت محبة الله ، ورجحت كفة أمره فيها ونعمت ، وإلا فالهزيمة فسق عن أمر الله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة : ٢٤) .

والواقع أن محبة الإنسان للكثير من الأشياء هى التى تصده عن الكثير من الواجبات خصوصا إذا غلبت الرغبة على فكره وغطت على بصيرته ، فإنه يفقد اتزانه فيما يصدر من أحكام ، وفيما يصدر عنه من أعمال ، بل إنه قد يهبط إلى مراتب الطفولة - وهو المسن - لأن الطفل لا تسيطر على تصرفاته إلا شهواته ...
وقديما قيل : حبك الشئ يعمى ويصم .

وكم من رجل أرداه حبه للمال ، أو للثناء ، أو للراحة بين أهله وعشيرته إذ يقصر هذا الحب خطوه إلى معالى الأمور ، ويغريه بالقعود عن نصره الحق بالنفس والمال .
ولذلك كانت نفس الإنسان - إذا أثر الحياة لها - عدوه المخوف . وكان ولده وزوجه أعداء له كذلك ، يوم يؤثر الحياة إلى جوارهم عن تلبية النداء وإجابة داعى الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ (التغابن : ١٤) ، والواجب أن يتلطف الإنسان مع أهله وعشيرته

حين يتعلقون به ، ويبغون بقاء معهم ، تلتطف من يرق لضعفهم ، ولكن لا يمنعه
 إعذاره لهم من توديعهم إلى حيث ينبغي أن ينطلق ، ومن هنا ختمت الآية بقوله
 تعالى : ﴿... وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن : ١٤) .
 ثم قال محذرا من الركون إلى القعود : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ
 أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن : ١٥) .

ومقتضى حب الله عز وجل ؛ أن يطيع الإنسان أمره ؛ ويدع نهيه ، ويحرص على
 رضاه .

وكلما ربت هذه العاطفة فعل الإنسان الكثير لله دون أن يحس تعباً ، لأن ما
 غمر فؤاده من شعور يهون عليه المشاق .

ودعوى الحب مع التفريط في الحقوق ، ومع الاستهانة باتباع الرسول دعوى
 منكرة ، فإن من أحب الله تأسى برسوله ، واستظل بلوائه ، واقتفى في الدقيق
 والجليل أثره ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران : ٣١) .

ولذلك قال الشاعر - في لوازم المحبة :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه !! هذا العمرى فى الفعـال بديع !
 لو كان حبك صادقاً لأطعته ! إن المحب لمن يحب مطيع

وهذا صحيح ، فإن المحب ينفذ ما يطلبه منه حبيبه ، بل هو يتشهى أمراً منه
 ليسارع إلى تأديته بشوق ورغبة ..

إلا أن المرء قد تعرض له حالات مرضية يختل معها سلوكه ، ولا تبلغ به هذه
 العاطفة مداها ، كما تنقطع الدائرة الكهربائية فى أحد المواضع ، فلا يضاء المصباح
 لاحتباس التيار .

المعروف أن المرء يحب نفسه ويحرص على مصلحتها ، ومع ذلك فقد يصاب
 بمرض يهدد حياته ، ويأمره الطبيب بترك عادة له ، حتى يستشفى مما ألم به فيعجز
 عن إجابة أمر الطبيب ، ويقع فيما حظر عليه !!

إنه لا يكره نفسه ، ولكن شلل الإرادة تحت تأثير العادة أزله بعيداً عما يجب .

وبعض العصاة من المؤمنين لا يكرهون ربهم ولا أنفسهم ، وإنما يقعون فى الخالفات تحت تأثير هذه الأحوال المعتلة .

ولا ريب أنهم - عند ارتكاب هذه الخالفات - لا يكونون فى صحو فكرى كامل ، إنهم أشبه بالمسهد الذى جن عليه الليل ، وتصارع عليه الكلال والأرق ، فتفكيرهم أدنى إلى الأحلام الطائشة منه إلى المنطق المستحكم الحصيف !!

ولندع الآن الخوض فى نتائج المحبة ، ولنتحدث أولا فى أسبابها .

لماذا نحب الله؟ أو لماذا ينبغى أن نحبه؟

ونحن واجدون - بعد التأمل الذى يجعل الضباب وبريح الغفلة - أن الله أهل لكل حب ، وأنه أولى بتعلق القلب من حب المرء لوالده وولده ونفسه التى بين جنبيه !

ونبدأ بأسرع دواعى المحبة ورودا على الذهن ، وأعنى به الإحساس الذى يستعبد الإنسان ويقيده بأواصر نفسية متينة نحو المحسن ، ولا شك أن الله تبارك اسمه ولى النعم التى يخوض الناس فيها خوضا ، ويمرحون فى بحبوحتها طولا وعرضا ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ﴾ (النحل : ٥٣) .

والنعم الإلهية تكتنف الوجود الإنسانى من كل ناحية ، إلا أن البشر يعاملون ربهم معاملة الولد المدلل العاق لأبيه ، يضيق إذا حرم بعض رغائبه ، ويتمادى به الضيق حتى ينسى المنز الجسام التى تطوق عنقه وتستبقى كيانه . ولو أن الله يسارع إلى الإنسان بكل ما يهوى لهلك الإنسان .

إننى أشهد - على ضوء تجاربى التى حفرتها الأيام من حياتى - أن أنفس ما يعلى شأنى أنى وليد أمور كنت بها ضائقا ، أو أتت بعيدا عن تفكيرى ، وتقديرى . ولو سارت أحوالى وفق ما أهوى ما كنت إلا أحد الهمل ، ولو وكلت إلى نفسى ، ورغباتها المجابة لهلكت .

وما أصدق قول الله فى كتابه : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٦)

ولو عقل الإنسان لكان حبه لله سواء فى المحن والمنح لأن تقدير الله للإنسان أجدى عليه من تقديره لنفسه .

وتبقى بعد ذلك كله أصول النعم التى يحيا بها الإنسان ويقتعد بها مكانه فى الوجود الكبير ، وهو مكان جد خطير ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم : ٣٢ - ٣٤)

واسداء الجميل يورث الشكر ، وهو شعور قد يطول وقد يقصر ، ولكن تكرار الجميل على تراخى الأيام وتفاوت الأحوال يورث الحب ، والحب عاطفة تلتصق بالشغاف ، وتشعب فى نواحي السلوك كلها .

وتكرار الجميل لمن يعترف به ظاهر ، بيد أن الإنسان كثيرا ما يستقبل النعم الجزيلة بإحساس يبدأ بـ رَاقَا . ثم سرعان ما يبهت . ومع ذلك فإن رب العالمين لا يحبس فضله عندما يطلبه سائل الأُمس الذى أخذ ونسى !!

وقد حفل القرآن بصور شتى لطبيعة الإنسان فى هذه المواقف ، وبرز فى هذه الصور كيف أن الله أهل للحب كله ، وأن الإنسان أهل للوم كله . وتأمل هذه الصور لذهول البشر مع ترادف العطاء ، واستحقاق الشكر والثناء ، والحب والولاء ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء : ٦٧) .

والإنسان يجأر طالبا من مولاه النجدة عندما تحصره الأزمات ، وتأخذ بخناقها ، ويشعر بأنه سيهلك فى حومتها لا محالة .

فإذا أتته النجدة التى طلب ، واسترد أنفاسه ، عاد سيرته الأولى ، ونأى عمن قربته منه الأزمات ، واستأنف حياة الغفلة التى أراد الله إخراجها منها ، بهذه المتاعب العارضة .

أجل ، فالآلام - فى الأغلب - ترد على المرء دواء لعلل كامنة فيه ، ومعاناةمرارتها سبيل الشفاء لمن يحسن الاستفادة والتذكر .

ولئن كانت السراء غذاء للكيان الإنسانى إن الصراء دواء لا بد من تناوله .

وفى حياتنا العادية نحتاج إلى أنواع الأدوية كما نحتاج إلى أنواع الأغذية .

لهذه وظيفتها وموضعها ، ولتلك وظيفتها وموضعها ، وربما كانت الآفات التى تعترض القلب الإنسانى وتعكر صلته بالله أكثر وأحوج إلى المعالجة من العلل التى تنتاب البدن وتعكر صفوه .

إلا أن موقف الإنسان من ربه عندما يدخله فى تجارب الألم غريب ، إنه يشوب إلى الحق بسرعة ، ويصرخ سائلا العفو والرحمة ، ممن يملك هذا وضده .

فإذا نفس عنه كربته خفت الصوت العالى ثم احتبس ، ثم ذهل ، ثم انقلب صوت كنود وكبرا!!

لماذا؟ هل أخذت أيها الإنسان ضمانا بانتهاء المتاعب إلى الأبد؟ هل اطمأنت إلى أنك لن تقع فى الفخ مرة أخرى ؟ .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿ (الإسراء : ٦٨ ، ٦٩)

وتمر بالبشر مآزق شتى ، إذا استحكمت عليهم حلقاتها ناشدوا الله العفو والرحمة ، وإذا احتوتهم سعة الحرية نسوا وجحدوا ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿ (الأنعام : ٦٣ ، ٦٤) .

والواقع أن الناس أمام هذا الإفصال المتكرر صنفان :

صنف غافل القلب غليظ الرين ، تمر به الأفراح والأتراح دون وعى ، وكأنه لم يدع الله إلى ضر مسه ، بل يظن أن ما يمر به من يؤس ونعمى طبيعة الحياة ويقول :

﴿ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ (الأعراف : ٩٥) .

أى تلك عادة الدنيا ، وحالة الزمان!! .

وهذا صنف كفور لا خير فيه ولا دين له . . .

وصنف آخر يتأمل فى غزارة النعم التى تنهمر من المكثر الوهاب .

ويعرف حق صاحبها فى أن تحفظ وترعى ، فيطوى فؤاده على تقديرها وإعزاز مرسلها ، ولا يزال هذا الشعور يشرح صدره كلما جدت منة . ومنن الله تتجدد ولا تفنى - فيكسبه هذا الشعور الموصول حب الله ، والرضا عنه والتعلق به .

وللحب داع آخر . إن النفس الإنسانية تبهرها العظمة ويعجبها العظمة ، ويسرها الإقبال عليهم ، والتودد إليهم والتنويه بأثارهم .

وكم من عبقرى لم نر شخصه طويلا القلوب على محبته ، والحماس له لأن أبصارنا تعلقت بمواهبه الجليلة ، وامتيازه الرائع ، ففعلت صورته الباطنة بنا ، ما تفعله صور الجمال الحسى بألباب العشاق .

ولو أن الناس لفتتهم هذه الحقائق ، وسيرهم منطقها باطراد لكان لهم مع الله شأن آخر . . .

أطلعنى أحد الناس على صورة رائعة للشمس ، وهى تغرب ، وأخذ يطرى الرسام العبقري الذى خلقها بريشته .

وكانت الصورة رائعة حقاً! بدت فيها الشمس وهى تلم أشعتها من فوق السطوح والقمم ، وتتأهب لوداع الأحياء إلى ملتقى آخر!! ومن ورائها أفاق معصفرة احمرت فيها حواشى السحب ، واستقرت فيها - إلى حين - فترة الانتقال بين إقبال الليل وإدبار النهار . !!

قلت : هذه صورة جميلة ، خطتها يد ماهرة ، تستحق الثناء .

لكن لماذا يعجب الناس براسم الصورة على الورق؟ ولا يتجهون بأبصارهم وبصائرهم إلى صانع الأصل الذى احتواه الفضاء الرحب ، ودارت فيه أجرام ضخمة ، وتأنقت فيه الطبيعة الحية ، وتحركت فيه الأرض كثيرا حول نفسها وقليلًا حول الشمس ، وجرت فيه الشمس مدى لا ندرى كنهه ولا نسبر غوره!! .

إن الأصل نفسه فى الشروق الزاهى ، أو فى الغروب الدامى ، على اختلاف

الليل والنهار يستحق التأمل الذكى ، ويستحق بعد ذلك وقبله أن تتجه الأفئدة إلى
بارئ السموات والأرض تسجد لجلاله وتسبح بحمده .

وإلى الأصل المنقوش فى صفحات الكون لا إلى الرسم المصغر على وجوه
الأوراق . نظر «محمد» عليه الصلاة والسلام إلى بدايات الليل ، ونهايات النهار ثم
رد الأشياء إلى مالكها الحق ، ونسبها إلى صاحبها الأصيل قائلا : «اللهم هذا إقبال
ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك فاغفرلى» .

والعجب للناس : ينظر أحدهم إلى تمثال من حجر أتقن ناحته إصفاء بعض
الملامح البشرية عليه ، ثم يروحون وألسنتهم تلهج بمدحه .
أما مبدع هذا الجسم الحى فقلما يكثرثون له ، بل فيهم من يجحد وجوده ،
وينتهك حرماته .

وما أبعد البون بين صخرة هذب ظاهرها على نحو معين ، وعضلات من لحم ودم
وعظم وعصب ، تور خلاياها بالحياة أخذاً ورداً ، فلو وضعت إصبعك على جزء ما
من هذا الجسم ثم تأملت ما تحتها لعلمت أن ألوف الشعيرات تسرى فيها بالدماء
ويتفاعل فيها الزفير والشهيق ، وتتولد الطاقة من احتراق الأغذية وطرد نوع من
الهواء - الكربون - واستقبال نوع آخر - الأكسجين .

وشئ آخر ، أطراف هذا الجهاز الحسى وذيله التى لا آخر لها ، والتى تجعل
الجسم كله يهتز لوخزة شوكة تصيب أى ناحية فيه .

إن التأمل فى النفس الإنسانية يجعل المرء يد بصره إلى أعلى قائلا مع
الملائكة : تسبح بحمدك ونقدس لك ، ومع هذا فإن صانع ذلكم الإعجاز يلقى من
بعض عباده بل من أكثرهم الغمط والكنود .

وأما الذين استنارت سرائرهم بصدق المعرفة فهم يتلمحون ما فى الصفات العليا
من عظمة وشمول ، وما يصدر عنها من عجائب فى الأرض والسماء ، فينعطفون
نحورهم ، وملء نفوسهم الإعجاب والإعزاز والود .

ونحن ندري أنه ليس لبشر ما فعل حقيقى ، يصح وصفه بأنه خالق لتمثال ،
أو مبدع لآلة ، فإن يده لم تصنع أكثر من أنها تصرفت فى مادة موجودة أو ألفت
بين أشياء كائنة ، وأن الإلهام الأعلى هو الذى هدى أصحاب المواهب إلى إبراز ما
يحمدون عليه ويعظمون به ، إلا أننا نجد فى هذا الإيجاد المجازى فرصة للمقارنة ،
وثغرة لتعريف الناس بربهم ، وإزاحة الغطاء عن قلوبهم حتى يحسنوا فهمه ومودته .

وفى الأيام الأخيرة وفق أحد المخترعين إلى صنع آلة تحول الماء المالح إلى ماء عذب ، وهذا ابتكار حسن وددت لو تابع العلماء تحسينه حتى يمكن الاستفادة منه فى أرحب دائرة ، إن استخدامه الآن ينفع بعض السفن التى تستغرق فى رحلاتها أماماً طويلة ، أو بعض المحصورين الذين لا تيسر لهم موارد الماء القراح لبعدهم عن منابعه . لكن ما هى الآلات التى تروى الألوف من الخلائق ، وما يتبعهم من حيوان وطيور؟

ما هى الآلات التى تسوق نطاف الماء الصافى إلى مساحات هائلة من الأرض فتحيل جديها خصبا ومواتها حياة؟

كيف يتلطف بديع السموات والأرض فيسقى أولئك الأحياء من عباده وهذه الحقول المنداحة فى بلاده دون أن يشعر بنصب أو يتكلف إدارة أجهزة وطنين آلات؟ .

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قِبَلِهِ الْمُبْسِينَ (٤٩) فَنَنْظُرُ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (الروم : ٤٨ - ٥٠)

والحق أن إمداد البشر بالماء الخلو على هذا النطاق الواسع بوساطة جهاز منسوج من الهواء ، مبسوط الأذرع بين الأرض والسماء ، يستاق الماء بخارا من البحر الملح ثم يكثفه سحباً يختلط كيائها بما يجعل ماءها عذبا ، ثم تنطلق فى شتى الأشكال مختربة الآفاق إلى حيث تهمل بالخير والبركة . . .!! إن هذا لما يملأ الفؤاد روعة ، ويزيده إكراما وإعلاء لشأن الخالق المدبر تقديست أسمائه ، وتباركت آلاؤه ، ولا إله غيره .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر : ٢١) .

فليستعرض الإنسان ما يعرف من مواهب وخالل ، وليستعرض في ذهنه ما يبهره ، من عباقرة وأبطال ، ثم ليقارن بين تلك القوى الكليّة والقوى المطلقة ، وبين هذه العظّمات الباهتة العاجزة والعظمة الساطعة الخالدة!!
إنه سوف يرى رب العالمين أولى بالتمجيد والإعجاب ؛ وأحقّ بالمحبة والاقتراب ...

والبشر - من الناحية العقلية - لا يمارون في هذه الحقيقة ، غير أنها لا تنتقل من ألبابهم إلى قلوبهم فتتحول من فكرة إلى شعور ، ومن شعور إلى سلوك .
إن هذه الحقيقة تدخل نفوسهم كما يدخل الطعام في بطن الموعود ، لا تستقبلها أجهزة سليمة تحول إلى قوة ونماء وحرارة بل ربما كان فيه الخنف .
كذلك البشر يعلمون عن الله ما ينبغي أن يؤسس في نفوسهم الحب المكين له ، ومع ذلك قد يحبون غيره مثله أو أكثر : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ... ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

وندع للإمام الغزالي أن يقارن بين ما يستثير الإعجاب والحب في شمائل الناس ؛ وبين صفات الفرد الصمد جل جلاله ؛ قال :
وأما العلم : فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؟ وقد خاطب الخلق فكلمهم فقال عز وجل :

﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥)
بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق غلّة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) .
والقدر اليسير الذى علمه الخلاق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى :
﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن : ٣ ، ٤) .

فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا ، وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، فعلم العلماء جهل

بالإضافة إلى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم ، وإن كان الأجهل لا يخلوا عن علم ما تتقاضاه معيشتة .

والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم ما يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور فى الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد ، وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهى أيضا كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيد ، حتى إن الإنسان ليسمع فى الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف فى قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حبا فى القلب ضروريا للمتصف به فإنه نوع كمال ، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى .

فأعظم الأشخاص قوة ، أوسعهم ملكا ، وأقواهم بطشا ، وأقمتهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره - ما منتهى قدرته؟ .

وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس فى بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا . بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عدما يعجز عنه فى نفسه وغيره بما هو على الجملة متعلق بقدرة . فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها ، والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلا قدرة له على ذرة منها ، وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه ، خالق قدرته ، وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك .

ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال فى أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال :

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الكهف : ٨٤) ، فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه فى جزء من الأرض .

والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدرة .

ثم تلك الغيرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه .

فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه ، واستيلائه وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فهو الجبار القاهر والعليم القادر . السموات مطويات بيمينه ، والأرض وملكها وما عليها فى قبضته ، وناصية جميع المخلوقات فى نطاق قدرته .

إن أهلكهم عن آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة .

وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقهم ، ولا يمس لغوب ولا فتور فى اختراعهم ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته ، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب الإنسان قادراً لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ، والتقديس عن الرذائل والخبائث أفهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة ، والأنبياء والصديقون - وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث - فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذى الجلال والإكرام .

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص أو عن نقائص ، بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو من العيب والنقص ، فالكمال لله وحده ، وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره ، فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره قائماً بغيره . وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقديس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره .

فهذا الوصف أيضا . إن كان كمالا وجمالا محبوباً فلا تتم حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما

أن للفرس كمالاته بالإضافة إلى الحمار ، ولإنسان كماله بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان .

فإذا الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الأحد الذى لا ند له ، والفرد الذى لا ضد له الصمد الذى لا منازع له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلى الذى لا أول لوجوده الأبدى الذى لا آخر لبقائه الضرورى الموجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ؛ ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال ! والقدرة والكمال ، الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، وتخرس عن وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوءة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين :

« لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه :

العجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازاً؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والحامد ، ونعوت الكمال والمحاسن ، أو ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها ، أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة أمراً محبوباً بالطبع عند من أدركه؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيره على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقته له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون ، وفى مسارج المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

خاتمة

أحمد الله على عونه الكريم فى إتمام هذه الفصول ، مع كثرة الأعباء ، وثقل الواجبات التى ارتبطنا بها فى ميدان الحياة العامة .

لقد كان حبيباً إلى نفسى أن أخلص للعلم ، وأن أعكف على الدراسة ، لكن دون هذه الرغبة عوائق جمة ما يسهل التغلب عليها .

والرجل الذى يشغل وظيفة إدارية قد تكون مسلاته فيها أن ييسر لأمتة نفعا ، أو يدفع عنها ضرراً ، وإنه ليحزننى أن يكون تقريب النفع للناس ، وإبعاد الضر عنهم عملاً يحرج فيه الفؤاد وترهق الأعصاب ، ويكاد يجر الملل بعد الكلال !! .

قد يقول القارئ لهذا البحث : ما لى ولهذه الشكاة؟ إن مجال القول لا يزال ذا سعة ، وكان ينبغى أن يأخذ الكلام حقه فى الاتصال والامتداد حتى نعرف : ما عرا هذا الجانب العاطفى المغيبون من تحريف وعوج جعلاه كثير المزالق والخسائر؟ .

وهذا تساؤل كنت أعددت الجواب عليه عندما شرعت أملأ الصحائف الأولى من كتابى هذا ، ثم سرعان ما دخلت فى تفاصيل لم يكن من الوفاء بها بد .

فلما انتهيت منها - وها هى ذى بين يدى القارئ العزيز - أحسست أن نقد هذا الجانب العاطفى ، ومتابعة سيره فى حياة المسلمين ، وتاريخهم يحتاج إلى جهد جديد ، ودراسة متوفرة ، وذاك ما لا أملك إليه سبيلاً الآن ...

بيد أنى مدرك ضرورة إكمال هذا البحث ، كى تتم الصورة العلمية للموضوع ، وكى يعرف المسلمون مسارب الخطأ فى جزء كبير من ثقافتهم ...



محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٣	اليأس من الناس	١١٩
مقدمة	٦	نقص القادرين على التمام	١٢١
الإسلام والإيمان والإحسان	١٥	أحذرك نفسك	١٢٢
حديث جامع	١٧	الاستكانة لله	١٢٣
ما هو الإيمان ؟	٢٢	المحبوسون في سجن المادة	١٢٦
العقيدة الصحيحة بين الإسلام والنصرانية	٢٩	من؟ إلا الله . !!	١٣١
الإلحاد خرافة علمية	٣٣	من حقيقة العبودية	١٣٥
ما الإسلام؟	٤٤	من أخطاء العابدين	١٣٨
معنى الشهادتين	٤٥	المنة لله وحده	١٤١
الخطيئة في حياة البشر	٤٨	لا تتخضع عن حقيقتك	١٤٢
دائرة الخضوع لله	٥٢	اعرف حقوق سيدك	١٤٣
ما الإحسان؟	٥٨	فضول العيش أشغال	١٤٦
الإحسان فريضة مكتوبة على كل شيء	٦١	في محاسبة النفس	١٤٩
قوانين الإحسان وأخطاره	٦٤	شارت الطريق	١٥٣
الإحسان بين التأمل الذاتي والصلاح الاجتماعي	٦٨	التوبة	١٥٧
حقيقة الذكر المطلوب	٧٢	رغبة إلى الله	١٦١
الذكر عبادة اجتماعية	٧٧	ثم يتوب الناس؟	١٦٧
أمتنا بين الإساءة والإحسان	٧٩	مدارج التوبة	١٧٠
دعائم الكمال النفسى	٨٥	توبة الصفاة ، واستغفار الرسول ﷺ	١٧٢
نسبنا السماوى	٨٧	الورع	١٧٧
المادية تشد الناس إلى أسفل	٨٩	العفة والقناعة	١٨١
الإلحاد خيانة عظيمة	٩٤	الصبر	١٩٧
مقلد و الحضارة المادية عندنا	٩٩	الشكر	٢٠٦
جهاد النفس	١٠٣	الخوف	٢٢١
إشباع الشهوات	١٠٩	الرجاء	٢٢٧
من تجارب المرين	١١٢	التوكل	٢٣٩
التعب الضائع	١١٣	الحب	٢٤٦
استمعجال الشهرة	١١٤	خاتمة	٢٦١
تسليم لله	١١٥		
من خداع الشيطان	١١٦		
ثق في ربك	١١٧		

مؤلفات فضيلة الشيخ

مُحمد الغزالي

- | | |
|---|---|
| ١ هموم داعية . | ٢٥ من معالم الحق . |
| ٢ جدد حياتك . | ٢٦ حقيقة القومية العربية . |
| ٣ مشكلات في طريق الحياة الإسلامية . | ٢٧ الإسلام والطاقات المعطلة . |
| ٤ سر تأخر العرب والمسلمين . | ٢٨ كيف نتعامل مع القرآن؟ |
| ٥ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مظان المشرقين . | ٢٩ كنوز من السنة . |
| ٦ مع الله . . دراسة في الدعوة والدعاة . | ٣٠ الفساد السياسي في |
| ٧ الإسلام والمناهج الاشتراكية . | الاجتمعات العربية والإسلامية . |
| ٨ من هنا نعلم . | ٣١ كفاح دين . |
| ٩ الإسلام والأوضاع الاقتصادية . | ٣٢ جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج . |
| ١٠ نظريات في القرآن . | ٣٣ تأملات في الدين والحياة . |
| ١١ الحق المر . . « ستة أجزاء » من ١١-١٦ . | ٣٤ الإسلام في وجه الزحف الأحمر . |
| ١٢ الإسلام المفترى عليه . | ٣٥ صيحة تحذير من دعاة التنصير . |
| ١٣ معركة المصحف في العالم الإسلامي . | ٣٦ مقالات (أربعة أجزاء) من ٣٦-٣٩ . |
| ١٤ خلق المسلم . | ٤٠ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام |
| ١٥ الإسلام والاستبداد السياسي . | وإعلان الأمم المتحدة . |
| ١٦ الاستعمار أحقاد وأطماع . | ٤١ الجانب العاطفي من الإسلام . |
| ١٧ في موكب الدعوة . | ٤٢ عقيدة المسلم . |
| ١٨ ظلام من الغرب . | ٤٣ كيف نفهم الإسلام؟ |
| ١٩ التعصب والتسامح . | ٤٤ مائة سؤال عن الإسلام . |

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com



هدية شركة نهضة مصر للعالم الإسلامي



موسوعة فضيلة الشيخ

محمد الغزالي

على أسطوانات CD



تشتمل على:

- أكثر من (75) كتاباً هي يجمل ما كتب الشيخ.
- أكثر من (175) ساعة صوتية وثلاث ساعات فيديو نادرة.
- (بحث مميز - تصنيف موضوعي شامل).
- (آراء وأقوال العلماء والمشاهير عن فضيلته).
- كتاب خاص يروى دقائق حياة الشيخ الخاصة لأول مرة بقلم أ/ محمد عبد القدوس.
- كتيب توضيحي خاص عن فضيلة الشيخ ، والموسوعة في علبه أنيقة.

تم إعداد موسوعة فضيلة الشيخ محمد الغزالي على عدد (4) أسطوانات
خصص لكل أسطوانة منها موضوع بعينه يشمل كامل تراث فضيلته



الأسطوانة الأولى

الأسطوانة الثانية

الأسطوانة الثالثة

الأسطوانة الرابعة

آراء ومواقف
وأحداث

المكتبة
المرئية

المكتبة
الصوتية

المكتبة
المقروءة

تصلب من:

مركز التوزيع: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - الغامرة ت 590827 - 02-5908895
فرع الإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى) ت 5230569-03
فرع المتصورة: 47 ش عبد السلام عارف ت 2259675-050

